تقدمة التلاوة

د. محمود محمد عمارة

أستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
المنصورة - أمام جامعة الأزهر
ت : ٣٥٧٨٨٢

الطبعة الأولى
١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م

مكتبة الإيمان للنشر والتوزيع
المنصورة ـ أمام جامعة الأزهر
تليفون ٣٥٧٨٨٢

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ذات يوم.. تباهى رجل بأنه ختم القرآن الكريم كله فى ليلة واحدة!؟ ولما سمع ابن المبارك ذلك قال: أعرف رجلا ـ يعنى نفسه ـ وقف عند آية.. حتى الفجر.. فلما يجاوزها!!

والحوار يرسم الحد الفاصل بين نظرتين إلى القرآن الكريم:

نظرة عجلى.. تكتفى بالعقيرة تجأر بها.. دون أن تغوص فى الأعماق وراء الأسرار.. أسرار القرآن.. يزين بها جيد الحياة.

ونظرة أخرى تجد نفسها من الآية الواحدة فى بستان وريق.. لا تدرى من كثرة عجائبها.. ما تأخذ.. وما تدع؟!!

قالت الجن لما سمعوا القرآن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾[1].

ويعنى ذلك: أنهم فهموه.. فعرفوا سره.. أى: تذوقوه.. ومن تذوقه عرف.. ثم اعترف.. بعظمة هذا القرآن العظيم وكيف؟

يقرأ المؤمن المشوق قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾[2].

ومع التسبيح.. يَسْبَحُ فكره فى رحلة مباركة: ينظر إلى الشجرة.. فماذا يرى.. وماذا يسمع؟

تقول الورقة: سبحان من جعلنى جمالا للشجرة.. ووقاية للثمرة.. وصيانة للنبتة..

وتقول الثمرة: سبحان من جعلنى عظما [النواة].. ثم كسانى لحما.. حتى لا يفسد اللحم لو لم تكن نواة..

ويقول العالِم: سبحان من فتح أفهامى.. وسدد أحكامى..

ويقول الجبل: سبحان من ثبّت أركانى..

ويقول البحر: سبحان من أسالنى وأجرانى!

---

(١) الجن: ١.   (٢) الإسراء: ٤٤.

وهكذا كان القرآن فى حياة الأبرار من أمتنا.. كانوا يتعلمون مع القرآن.. العمل به.. ثم أصبحوا اليوم يعلمون.. ولا يعملون.

يقول الدكتور مصطفى السباعى: رحمه الله.

[خير من ألف إذاعة تتلو القرآن على المسلمين بأعذب الأصوات صباح مساء، إذاعة واحدة يتلى فيها القرآن بآدابه من قلب خاشع يستمع إليه المسلمون بقلوبهم وعقولهم ساعة واحدة كل أسبوع.

لم يكن عدد المصاحف عند المسلمين فى القرن الأول للهجرة يبلغ عشر معشار عددها عندهم اليوم، وهى الآن لا يتلى منها عشر معشار ما كان يتلى حينذاك، وما يتلى بتفهم وتدبر لا يبلغ عشر معشار ما يتلى بغير تفهم وتدبر، فلا تعجبن إذا لم يفعل القرآن فى نفوس المسلمين فى الحاضر عشر معشار ما كان يفعله فى نفوسهم فى الماضى.]

وإذن فنحن مدعوون إلى تجديد الصلة بهذا القرآن.. لنستقبله بكل مداركنا فى محاولات نستروح بها نسماته التى نرطب بها جفاف حياتنا.

وإذا كان أسلافنا الكرام قد استقربهم المقام هناك فى عمق بستان القرآن فرأوا من أسراره عجبا.. فلا أقل من أن نسدد ونقارب.. ونحوم حول البستان.. فلعلنا أن نصيب منه حظا.

وهذه محاولات تستهدف المقاربة.. وإن لم تصل إلى ما تريد.. إنها صفحات حومتُ فيها حول آى القرآن الكريم.. بتكليف من إذاعة البرنامج العام... وفى رواية [تقدمة التلاوة] حاولت فيها فهم الآيات... ثم ربطها بالواقع المعاش.. فتجاوزا ما قد يدور حول الآيات من الاختلاف وجهات النظر.. مركزا على أرجحها.. مستحضرا فى نفس الوقت أوجاع أمتنا.. فى محاولة للتخفيف من هذه الأوجاع بدواء القرآن الذى هو شفاء ورحمة للمؤمنين.

والله وحده المأمول أن يجعل هذه المحاولة فى ميزان حسناتى.. وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د/ محمود محمد محمد عمارة

أول محرم ١٤١٨/ ٨ من مايو ١٩٩٧

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدمة التلاوة

من أول سورة الفاتحة إلى قوله تعالى: ﴿**هم فيها خالدون**﴾ آية: ٢٥ من سورة البقرة .

فى سورة الفاتحة يقرر الله تعالى حقيقة اختصاصه بالحمد. . لأنه رب العالمين الذى تعهد الأكوان بما فيها الإنسان. . حتى صارت فى أحسن تقويم. . ثم أظلها برحمته. . فمضت في ظلها المنشود. . تتقلب فى نعمته الناطقة بجماله. كما عبرت هيمنته على يوم الدين عن كماله وجلاله.

وبهذا الجمال وهذا الجلال صار هو المستحق للعبادة. . الجدير بالاستعانة. . القادر وحده على تثبيت الأقدام على سواء الصراط. . والواصل بنا إلى جنته. والتى تتم كمالا بزحزحتنا عن مصير المغضوب عليهم. . والضالين.

وتلك هى عظمة الحق تعالى. . والتى يفتتح بها كتابه. . وهو دعوته إلى السلام. . ليتعلم الدعاة اليوم كيف يخطون الخطوة الأولى على طريق الدعوة بإقناع المدعوين أولا. . أنهم أهل للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فإذا نجح الداعى فأثبت ذلك. . جاءت الخطوة التالية. . كما بينتها سورة البقرة: ﴿**الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ..**﴾.

إنه دستور الدعوة ومرشدها الأمين والمهيمن فى نفس الوقت. . وها هو ذا يدخل ساحة الدعوة مستعليا.

فإذا كان العربى يعتز ببلاغته. . فإن هذه الحروف المقطعة تهجم على ملكته البيانية فتخرسها. . من حيث كانت من جنس ما ينظم منه كلامه. . ثم هو عاجز حيالها. . وقد ألقى سلاحه بعد أن نقله التحدى من موقف الهجوم إلى موقف الدفاع بتعجيز سلاحه الذى يدل به وهاهو ذا ينحسر من الفعل إلى رد الفعل اللائق بالمهزوم!

ومن ثم يأخذ الداعية سمته بكنس كل النظريات الأرضية وما فيها من شك وتمزق ليتفرد الأصلح بالبقاء. من حيث كان هو الكتاب البرىء من الريب وتبعاته والقادر على قيادة البشرية إلى الحق لو كانوا متقين مستعدين لتلقى دلائل الهدى.

ولقد كان رد الفعل مختلفا فكان هناك المتقون، والكافرون، والمنافقون.

أما المتقون: فهم الذين انتفعوا بهداية القرآن: يؤمنون بالغيب فمنحهم ذلك الإيمان طاقة عمروا بها الحياة التى إن لم تكافئهم على أعمالهم يوما فإن لهم الجزاء الأوفى يوم القيامة، بينما الماديون المحصورون بين المهد واللحد يصارعون الدنيا بقواهم الذاتية الواهنة فلا يبلغون ما يؤملون ثم يكونون من اليأس فى هوة سحيقة القرار.

والمتقون ثانيا: يحسنون صلتهم بخالقهم فيقيمون الصلاة على دعائمها من الخشية والتمام والانضباط... وفى نفس الوقت يوثقون صلتهم بمخلوقاته سبحانه لا بالكلام المعسول وإنما بالمال المبذول.

والمتقون رجال تاريخيون يعايشون الحق بأرواحهم الطليقة ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

فحياتهم مرتبطة به قائمة على أصوله،ومن ثم فرضوا على الحياة احترامهم لما كان الحق نسيج حياتهم. فكانوا من الهدى بالمكان المكين.

﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ دون غيرهم ممن عرض عليهم الهدى، فلم يكونوا على مستواه.

ولما ذكر تعالى خاصة عباده وخلاصة أوليائه بصفاتهم التى أهلتهم للهدى والفلاح - كما فى البيضاوى - عقبهم بأضدادهم العتاة، المردة، الذين لاينفع فيهم الهدى، ولا تغنى عنهم الآيات والنذر. فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وإذا كانت دلائل الهدى قد عرضت عليهم فرفضوها بل بلغوا فى العناد أن قابلوها بقلوب عليها أقفالها، فاستوى الإنذار وعدمه.

فذلك يعنى أنهم لم يغيروا ما بأنفسهم من جحود فخطوا نهايتهم بأيديهم. تلك النهاية التى حقت عليهم فصاروا فى الدنيا صما وعميانا: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقد استحقوا ذلك العذاب الموصول جزاء من جنس عملهم لما تجدد إنكارهم كلما جدد الرسول إنذارهم. وإذا كان من الكافرين حينئذ أناس سوف يدخلون فى دين الله أفواجا فإن السياق يقتصر على العتاة الجاحدين منهم بيانا للكفر فى أبشع صوره حتى إذا بدا المتقون فى موكب آسر على أوفى خصائص الجمال، بانت عيوب الكافرين وظهر عوارهم. وياليت الدعاة يواجهون العصاة فى هالة من الجمال الذى يجعل القبح يتوارى خجلا.

وهكذا يعلمنا القرآن أدب الدعوة فى صمت، وحكمة عندما يرى الناس أجمل الجمال، يواجه أقبح القبح فإذا هو زاهق... وإذا المتقون فرسان الحلبة بلا منازع.

وإذا بان المتقون بخصائصهم والجاحدون بطبيعتهم فقد بقى صنف المنافقين المذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

إنهم الصنف المعقد الشخصية وفى عالمه الباطن مسارب وجيوب يحار فيها الفهم وتضل الآراء.

من أجل ذلك كانوا كما قال البيضاوى: (هم أخبث الكفرة، وأبغضهم إلى الله؛ لأنهم موهوا الكفر وخلطوا به خداعا واستهزاء ولذلك طول فى بيان خبثهم وجهلهم واستهتر بهم وتهكم بأفعالهم وسجل على عمههم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال وأنزل فيهم: ﴿إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار﴾.

إن الحق الصريح يعلن عن نفسه... والباطل الصريح أيضا يتحرك على أرضه مكشوفة.

أما النفاق فمرض. ومرض عضال يحتاج فى تشخيصه وعلاجه إلى نفس الأطباء الذين يحللون الدم ويسلطون الأشعة ويتسمعون دقات القلب وقد لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا؛ لأن الباطن معتم والأسلاك شائكة ووسائل

التمويه على جانبى الطريق يبثها المريض نفسه. كل أولئك يجعل من الشفاء أملا بعيد المنال.

من أجل ذلك: ينبه الحق تعالى إلى الخلل الواضح فى نفسية المنافق ليكون المسلمون منه على حذر... وكان ذلك بضرب الأمثلة الكاشفة المعبرة:

﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾. فالمنافق: كالضب الخادع: يوهم الحارس أنه مقبل عليه ثم إذا به يتوارى فى جحره ثم يخرج من باب آخر:

وإذا الذئاب استنعجت لك مرة فحذار منها أن تعود ذئابا

ولكنهم فى الواقع لا يخدعون إلا أنفسهم التى ترتد حسيرة لأنها مهما لبست من ثوب الرياء فإنها أبدا فى نقطة الضوء وما تزال نار الحسرة على ما فاتهم من المجد تحرقهم. وهذا هو مرضهم الذى يشكل أعمالهم يزيده الله تعالى كلما كان الحقد رائدهم.

وقد بلغ من فساد القلب أنه بات أعمى لا يرى الحق حقا ولا الباطل باطلا:
﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ﴾ ثم كان الخداع أسلوبهم الأثير فى معاملة المؤمنين... حين يدعون أنهم مؤمنون.. وهم المستهزئون ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ..﴾

ولئن كان النفاق حقق لهم بعض المنافع العاجلة فإن النتيجة النهائية تعلن خسرانهم: ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

ألا وإن المسألة العويصة فى علم ما، تحتاج إلى ضرب الأمثال حين لا يكفى والأمثال كما قيل: (أوقع فى القلب، وأقمع للخصم الألد لأنه يريك المتخيل محققا، والمعقول محسوسا).

وهكذا صورهم القرآن الكريم: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا ..﴾ لكن النار لم تكد تشتعل حتى انطفأت. ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ..﴾ وينزل المطر فى صحبة هول يكاد أن يصك آذانهم ويعمى أبصارهم ثم

تراودهم خواطر الهلاك، ثم يخرجون من هذه المعمعة مهلهلين مرهقين خاسرين.

وبعد هذا البيان ينبغي أن يكون الإيمان سفينة النجاة: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم..﴾ ومسوغات العبادة تأخذ بالألباب في السموات والأرض... فلا تجعلوا لله أندادا تأخذون إليهم خيره سبحانه وتعالى..

وإذا لم يكفكم القرآن دليلا فحاولوا أن تأتوا حتى بأقصر سورة من مثله. وما أنتم بقادرين. فاتقوا النار المعدة للجاحدين الذين ألغوا عقولهم في الوقت الذى يحظى فيه المؤمنون بالبشرى بجنات تجرى من تحتها الأنهار.

سورة البقرة: من قوله تعالى :﴿ولقد جاءكم﴾
إلى قوله تعالى ﴿بما تعملون بصير﴾ [٩٢ : ١٢٠]

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ..﴾ الآيات.

حين دعى اليهود إلى الإيمان بما أنزل الله من القرآن. الذي جاء مصدقا لما معهم من التوراة، رفضوا معلنين اكتفاءهم بالإيمان بما أنزل عليهم. وعندئذ حاصرتهم الآيات الكاشفة عن زيف إيمانهم الذى يدعون... فحقائق القرآن منسجمة مع حقائق التوراة كما أنزلها الله تعالى.

ومن شأن توافق الحقائقٌ أن يحمل على حسن استقبال كتاب لم يأتكم بما تنكرون. فإذا لم تؤمنوا فهو الهوى المتحكم وليس هذا منطق الإيمان. وأى إيمان هذا الذى يحملكم على قتل أنبياء جاءوكم بالهدى.. بينما توردونهم موارد الردى؟قولوها بصراحة: هل تريدون الحق وتبحثون عن دلائله؟ إن كنتم كذلك فقد ﴿جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ..﴾.

فلم يكن الذى جاءهم به بينة واحدة ولكنه بينات.. حشد من الدلائل ثم هى واضحات فى نفس الوقت.

فماذا حدث؟ ليت الذين لا يقدرون على الطاعة أن يكفوا عن العصيان على الأقل! أما أن تغمرهم دلائل اليقين ثم يتخذون العجل إلها فى حركة معبرة عن طبيعة كانزة، فهى النفس المصبوغة بالظلم طبعا لا تطبعا. هذا الظلم الذى يفرز مضاعفاته عنادا ومضيا فى الجحود إلى حد أنهم لما خوفوا بالطور لجو فى عتوهم وقالوا فى تبجح: سمعنا قولك، وعصينا أمرك، متجاوزين حدود النفاق المعهود المستخفى إلى لون من النفاق الصريح قد تفردوا به دون البشر جميعا.

ومع وضوح التهافت فى منطق المبطلين إلا أن القرآن الكريم يعلم الدعاة أن يدخلوا فى حسابهم إحراج المبطل بالامتحان العملى الذى يصل به إلى إعلان

إفلاسه وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ إن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾.

ولا يمكن للطبيعة المتشبثة بالحياة أن تعلن زهدها فى هذه الحياة. ويتركهم السياق حائرين ذاهلين لينوب عنهم فى إعلان الحقيقة.

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾.

الظالمين الذين بلغ بهم الظلم حدا كانوا فيه أحرص الناس على حياة.. مجرد حياة مهما كانت صغيرة حقيرة. المهم أن يعيشوا لدرجة أن أحدهم - وباسمهم جميعا - يتمنى أن لو عاش ألف سنة، مع أن المشرك وهو لا يؤمن بالآخرة كما يؤمنون يتواضع فى تمنيه فكان اليهودى أحرص منه على الحياة!

وعلى فرض أنه حقق أمنيته فلن يغنيه العمر الطويل عن العذاب الوبيل.

وإذا كان الجنس للجنس أميل فعلى المؤمنين أن يسقطوهم من حسابهم ولا يطمعوا فى وفاقهم بعد أن وضح تنافرهم. وكيف تطمعون وهم لا يكتفون ببغضكم وإنما يوغلون فى البغض لدرجة أنهم يكرهون من يحبكم. وهو جبريل النازل بالخير والهدى هدى وبشرى للمؤمنين.

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾.

وليفهم العقلاء من الناس هذا المقياس المنبثق عن الآيات الكريمة: فلا يكفى أن تحب صديقك ولابد إلى جانب ذلك من أن تحب صديق صديقك، وكأنما حبك له عين تتفجر بالود وحب كل من ينتسب إليه.

ثم إذا كان الحق تعالى عدوا للكافرين يبغضهم لبغضهم جبريل النازل بالخير على قلب محمد فقد يطيب لنا أن نردد قول الشاعر الناطق بهذه السنة الاجتماعية:

خليلى ما واف بعهدى أنتما إذا لم تكونا لى على من أخاصم

إن نفوس المعاندين هنا تبذل فطرتها النافرة من الحق فترمى به بعيدا، مع

وجاذبيته . . . وكان عليهم أن يستثمروا الخير المتاح لهم،لكنهم نبذوه ولم يحاولوا أن يفهموه وأن يبحثوه ثم هاهم أولاء . . يستقبلون بالترحيب ما ينسجم مع طبيعتهم الملتوية وهو : السحر الذى برئ منه سليمان وتولوا هم كبره .

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ . .﴾ .

والسحر هو : ما يستعان فى تحصيله بالتقرب إلى الشيطان، مما لا يستقل به الإنسان. وذلك أليق بمن يناسب الشيطان فى إرادة الشر . وخبث النفس . أما قصة الملكين هاروت وماروت ببابل : فقد كانا يعلمان السحر . . تفريقا بينه وبين المعجزة وما يعلمان أحدا حتى يقولا له : إنما نحن فتنة وابتلاء . فمن تعلم منا . وعمل به . فقد كفر . . ومن تعلمه . وتوقى عمله . ثبت على الإيمان .

أما أنتم : فقد تعلمتم منه ما يرضى طبيعتكم العدوانية : ففرقتم به بين المرء وزوجه . . فمزقتم أواصر الأسرة . . ثم زين لكم غروركم أن لكم بالسحر . تأثيرا فى مجرى الحياة . . مع أن الضرر الحادث به . . إنما هو بإذن الله سبحانه وتعالى . . ويا لها من صفقة خاسرة تبيعون فيها دينكم بدنياكم .

ولقد كان طريق الإيمان اهدى وأجدى . ﴿لو كانوا يعلمون﴾ .

ولا علم هناك . . بل ولا رغبة فى المعرفة . . وإنما هى عقدة الحسد تملى لهم . وتسول هذا الجحود . وهذا الجمود .

وعلى المسلمين إدراك هذه الحقيقة حتى لا يخدعوا بزور من القول يخفى العقدة الدفينة . . إن صناع الحياة . . وزراع الخير . . لن يلتقوا أبدا مع أعداء الحياة . . وبؤرة الشر . . ويعنى هذا استمرار حملة الادعاء والتضليل . . على حقائق الإسلام ومنها قضية النسخ التى تحمل فى ذاتها دليل صدقها وحكمتها فى نفس الوقت وذلك قوله تعالى :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ .

إن النسخ مظهر من مظاهر حكمته تعالى ورأفته بعباده.. وتلك حقيقة راسخة لا يجادل فيها إلا الفارغون أو الحاقدون.. فلا تشغلوا أنفسكم أيها المؤمنون بإثبات الثابت.. ولكن الأمر الذى يجب أن تتنبهوا له احتمال أن يسرى إليكم بالعدوى ذلك الداء الذى تفرد به اليهود وهو السؤال المتعنت الجهول.. ولا يغب عن بالكم لحظة واحدة حقيقة نوايا أعدائكم الراغبين فى خبالكم.. من بعد ما تبين لهم الحق..

وإذن فحملة التضليل سوف تكون مركزة على حملة الحق الذى اختصكم الله تعالى بحمل رايته.. ولكن لا تواجهوا النار.. بالنار.. ابتداء... ولا تواجهوا الريح.. بالأعصار.. بل كونوا على العهد بكم مسالمين.. ولكن حذرين..

﴿فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير﴾.

فارفعوا غصن الزيتون.. متسلحين فى نفس الوقت بحسن صلتكم بالله تعالى.. بالصلاة. والتكافل الاجتماعى.. عن طريق الزكاة..

﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير﴾.

سورة البقرة: من قوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَة ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَالرُّكَّعِ السُّجُود ﴾[١٠٦ ـ ١٢٥]

يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ الآيات..

فى حلقة من سلسلة التشكيك فى حقائق الإسلام قال اليهود متعجبين ساخرين: ألا ترون إلى محمد.. يأمر أصحابه اليوم بأمر.. ثم ينهاهم عنه غدا.. ولا يتصدى السياق لدحض تهمة تحمل فى ثناياها أمارة تهافتها.. ولكنه يلتفت إلى المؤمنين كاشفا لهم عن العلة الدفينة الباعثة على هذا الاتهام.

إن عقيدة القوم هشة.. عفنة.. ومن ثم لم تمكنهم من رؤية الحق.. إنهم لم يعلموا أن الكون كله ملك له سبحانه.. ولو أنهم علموا.. لتبين لهم أن النسخ داخل فى مشيئته سبحانه وتعالى.. وقدرته القابضة على الكون كله.. ثم هو من مظاهر حكمته التى تقتضى تغيير الحكم أحيانا.. ولمصلحة العباد.. ولأنك على الحق.. مؤمنا بطلاقة القدرة.. وطلاقة المشيئة.. فإنك مقتنع بالنسخ دونهم. فامض لما أمرك ربك. ولن يكون مضيك سهلا ميسورا إلا إذا نحيت الأشواك من طريقك.. والتى منها أن تقع فى مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل حين سألوا موسى تعنتا لا استرشادا.. ولو قد سألتم مثل ما سألوا.. لأوشكتم أن تكونوا أمثالهم..

فلا تحققوا بالثرثرة أمل عدوكم.. حذر نكسة ربما واجهتموها لو سرت إليكم بالعدوى أمراضهم.... وهذه ناحية سلبية..

أما الناحية الإيجابية فهى: أن تلزموا غريزتكم: بعمارة النفس.. بالصلاة. وإسعاد المجتمع.. بالزكاة.. وهذا هو الزاد الباقى.. والجزاء المدخر.. وفى الوقت الذى يصير فيه المراء هباء.. يكون سعيكم مشكورا.. واصلا بكم إلى

الجنة . . . تلك الجنة التى وعد بها المتقون العاملون . . وظنها الفارغون حكرا عليهم بينما لا زاد لهم إلا الأمانى الكاذبة . .

ولا يمكن لهؤلاء الفارغين أن يصلوا إلى جنة سدوا الطريق إليها بالادعاء والتطاول . . ألا وإن الطريق إلى جنات عدن مفتوح أمام كل البشر . . ولكن من يطلب العلياء . . لم يغله المهر . . والمهر هنا : إسلام الوجه لله تعالى . . وحده . . دون سواه من آلهة الحجر . . وآلهة اللحم والدم . . . ثم إحسان القول والعمل . . ومن يفعل ذلك . . فله أجره المدخر عند ربه . . وقبل ذلك فله فى الدنيا : الأمان . . وهو يقتحم غمرات المستقبل بقلب شجاع . . ثم هو بنجوة من الحزن على ما فات . . فلا تذهب نفسه عليه حسرات . . مدركا أن الوجود الحق من نصيب المسلم الذى برئ بالإيمان من علة القلق . . وعلة الحزن . .

فبقيت جيوش المقاومة فى كيانه سليمة تحرسه حتى لا تأكله الهموم . . وإن وجوده ذلك القوى ليجعل وجود الآخرين إلى جواره صفرا . .

وها هم أولاء حساده يعترفون بهذه الحقيقة : **﴿قالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء﴾** .

وحاصل الجمع : أنهم جميعا . . لا شىء . . ويتفرد المؤمن بالساحة . . أو هكذا يجب أن يكون . وإذا بقى هو فارس الحلبة فعليه أن يتقدم لتحمل مسئولية الدفاع . عن الحق الذى صار به شيئا مذكورا :

فليتصد للذين يمارسون الظلم فى أدنى دركاته بمنع المساجد أن يذكر فيها اسم الله . . **﴿أولئك ما كان لهم أن يدخلوها﴾** وإذا حدث ودخلوها فلن يكونوا **﴿إلا خائفين﴾** . . لا مخربين . . ولو قصرتم يوما . . فعوقبتم بمن تمكن من مساجدكم . . ففروا إلى الله الذى جعل لكم الأرض مسجدا وطهورا . .

﴿فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ .

ويجب أن تظلوا أبدا متسلحين بالوعى الراصد تحركات القوم الظالمين . . مدركين أن أعداءكم سوف ينقلون المعركة من تخريب المساجد . . إلى محاولة تخريب العقائد : بنسبة الولد إليه سبحانه . . ثم بتمنى أن يكلمهم الله . . أو يخصهم بآية . وذلك قوله تعالى :

﴿وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما فى السموات والأرض كل له قانتون
بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون. وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ .

وليتهم يدعمون أوهامهم بأثارة من علم.. ولكنه التقليد الأعمى:

﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾ .

و﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾ .

لقد تشابهت قلوبهم.. فتطابقت أقوالهم.. فكتبوا ما يملى عليهم.. وكانوا صوت سيدهم.. إن العيوب فيهم.. وما فى الإسلام من عيب:

﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾ .

ولما كانوا غارقين فى الشك والتخمين.. فأنى لهم الذكرى وقد حرموا أسبابها..

﴿إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا﴾ .

وقد بشرت.. وأنذرت.. وانتفع ببشارتك.. ونذارتك.. الموقنون.. ويكفيك هذا خروجا من العهدة.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ .

ويساوى هذه الحقيقة انه ﴿لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾.. ورضاء الناس غاية لا تدرك.. فكيف ترجو رضاء من كانت حياته فى مماتك وذهاب ريحك؟ فلا تبالغ فى إرضائهم.. مهما زينوا لك من القول.. حذر الميل إليهم.. وعزاؤك أن فريقا منهم ﴿يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به﴾ وهم بهذا الإيمان حجة على من سواهم من الجاحدين.. ولا يهز الشجرة إلا فرع منها.

ودون أهل الكتاب جميعا تبرز خطورة بنى إسرائيل الذين تتلطف بهم الآيات فتذكرهم بنعم الله عليهم وتفضيلهم على من عاصروهم من أمم الأرض.. ثم تحذرهم من مغبة الكفران فى يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا..

الا وإن سنن الحق سبحانه وتعالى لا تحابى أحدا.. بدليل أن إبراهيم عليه

السلام لما طلب أن تكون الأمانة فى ذريته قال له سبحانه: **﴿لا ينال عهدى الظالمين﴾**.

وأن البنوة: بنوة الروح لا بنوة النسب.. ومن أراد الإمامة من الأبناء فعليه أن يكون على مستوى الآباء إيمانا.. وعملا.. وهكذا كان إسماعيل مع إبراهيم عليهما السلام:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

سورة البقرة: من قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [١٢٤ ـ ١٤٥]

فى الآيات الكريمة يذكر الحق سبحانه نبيه. وأمته معه يذكرهم بقصة ابتلاء إبراهيم عليه الصلاة والسلام بطاعة ربه. فكان على غاية ما يكون الوفاء بها. فاستحق الإمامة تتويجا لهذا الوفاء. وتنويها به.

وحين اتجهت فطرته إلى جعل الإمامة فى ذريته.. استمرارا للنعمة. وإبقاء على كلمة التوحيد فى عقبه.. حدد له الحق تعالى ثمن الوصول إلى هذا المركز المأمول: ﴿قال لا ينال عهدى الظالمين﴾.

إن الإمامة عهد مع الله.. فلا ينال شرفه إلا من ارتفع مثلك إلى مستواه: عدلا.. ووفاء.. ولا تكفى لحمة النسب ولا وشيجة القربى للفوز بهذا الشرف العظيم...وعلى الذين يريدون الإمامة فى الدين أن يسعوا لها سعيها.. على درب أبيهم إبراهيم عليه السلام.

ثم تبين الآيات جوانب من هذا التكليف الذى نال به ذلك التشريف: وذلك قوله تعالى:

﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ثم قوله تعالى: ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل﴾.

إن البيت الذى جعله الله أمنا ومثابة يحن إليه كل من زاره.. ينبغى أن يظل كذلك أبدا. وتلك مسئوليته عليه السلام ومعه ولده بتكليف من ربهما سبحانه.

ولا يقف الوالد وولده فى الطاعة عند حد الالتزام بهذا الأمر الإلهى.. لكنهما يتجهان إلى الله تعالى أن يقبل عملهما.. وأن يجعل ذلك العمل بداية لمرحلة جديدة تثمر فيها كلمة التوحيد ثمراتها اليانعة.. وقد رسم الدعاء هنا صورة مشرقة للبيئة الإيمانية التى تزكو فيها الثمار وتنمو.

وما أجمل أن ينقل الراكعون الساجدون خطاهم على أرض خصبة رخية

ندية.. آمنة.. ليتمكنوا فى ظل من الرخاء الحلال أن يعبدوا الله كما ينبغى..

﴿رب اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

وفى هذا الجو الوضىء يواصلان الدعاء أن يظلا مسلمين وعلى نفس الطريق يسير الأولاد والأحفاد..

ثم يكون مسك الختام رسولا من هذه الأمة يصل بها إلى قمة الكمال البشرى. يعلمهم الكتاب. ويسدد أقوالهم وأفعالهم ويجعل من قلوبهم مستودعا لأسراره سبحانه.

وفى الآيات درس للآباء أن يدخروا لأبنائهم ما يبقى.. ودرس للدعاة أن تمتد منهم الآمال عبر الأجيال.. ليظل نهر الخير دافقا رائقا.. إنهم لا يعبرون عن مصلحة شخصية.. لكنهم يعملون لتبقى راية التوحيد مرفوعة أبدا.

وإذ ترسم الآيات صورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام صديقا نبيا.. فإنها تستدعى أهل الكتاب والمشركين جميعا ليسيروا على دربه.. وإلا.. فلا يدير ظهره لشريعته إلا من لا نفس له: **﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾**.

إن الخط البارز فى حياته هو الإسلام الذى وصى به بنيه. ومن بعده وصى يعقوب بنيه.. ومتى؟ **﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾** وإذا كانت لحظة الاحتضار مظنة الدموع.. والآهات الحبيسة خلف الضلوع.. فإن يعقوب فى سكرة الموت يتجاوز ذلك كله ليوصى بنيه بالإسلام.. وكفى.. الإسلام الذى هو أمله.. وعمله. حتى فى اللحظة التى تجنح فيها حياته إلى مغيب.

فإذا جاء بعد ذلك من يقول: **﴿كونوا هودا أو نصارى تهتدوا﴾**.

فإن الحق أكبر من أن يدخل معهم فى جدال لا جدوى منه.. لأن ملة إبراهيم هى مرفأ النجاة.. حقيقة تفرض نفسها.

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

وهذا هو إبراهيم عليه السلام.. لمن شاء أن يتخذ إلى ملته سبيلا.

وتلفت الآيات نظر الأمة إلى ضرورة أن يؤمن هؤلاء المعاندون بمثل ما آمنتم به من التوحيد.. فإن لم يؤمنوا.. وفسقوا عن أمر ربهم.. فلا يغرنكم تقلبهم في البلاد.. فالله معكم ﴿**فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم**﴾.. والبقاء للأصلح دائما.

لقد انتهت مسئولياتكم بالإسلام.. وبدعوتهم إليه.. ﴿**تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم**﴾.. ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾.

وفي تحصين المتلقي المسلم ضد مؤامرات الأعداء تذكر الآيات ما سوف يهرف به الأعداء.. ومنها التشكيك في تحويل القبلة وذلك قوله تعالى: ﴿**سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم**﴾.

ويعلمهم الحق الجواب مقدما.. ﴿**قل لله المشرق والمغرب**﴾. حتى إذا هبت العاصفة غدا في مظاهرات إعلامية مغرضة كان المسلمون مستعدين لها على حد قول الشاعر:

عرفنا الليالي قبل ما نزلت بنا فلما دهتنا لم تزدنا بها علما

ثم يذكر الحق تعالى أمته بأن يوفروا طاقاتهم فلا يبددوها مع أناس لا ينقصهم الذكاء.. وإنما هم يعيشون أزمة ضمير مستتر وجوبا..

﴿**ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك**﴾..

سورة البقرة: من قوله تعالى: ﴿ الصَّفَا ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [١٥٨ ـ ١٧٧]

تحرج المسلمون من السعى بين الصفا والمروة... لأنه يذكرهم بما كانوا يفعلون أيام جاهليتهم. حين كانوا يمسحون على صنمين هناك.. على الصفا.. وعلى المروة.. فحررهم الحق سبحانه من هذه العقدة النفسية.. التى نشأت عن فرط حساسيتهم: **﴿فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما..﴾**

لقد تغير الموقف: تكسرت الأصنام. وانحسر الظلام.. وها أنتم أولاء تنقلون خطاكم فى حراسة الإيمان.. فلا حرج عليكم بعد الآن!

وإذا تميزت الأشياء بضدها.. فإن السياق ينقلنا من خطاب الذين يكادون يذوبون حياء. إلى الحديث عن الحس الغليظ الذى مات فى صدور قوم تفتح عينك عليهم.. فلا ترى أحدا.. إنهم الذين يكتمون الحق.

وإنك لتحس بالنقلة الهائلة.. فتعجب من قوم. جاءتهم من الحق بينات واضحة.. بلا خفاء.. ودلائل هدى تأخذ بأيديهم إلى حيث يسعدون ويسعدون.. ثم.. إن حاجة البشرية إلى تلك البيّنات ماسة.. ومع كل ذلك يكتمون.. فيحجبون بالكتمان مطالع الضوء.. فاستحقوا أن يتحول الكون كله ألسنة تطاردهم باللعنة فإذا حياتهم مشحونة بالتربص والكراهية. التى أحاطوا أنفسهم بها.. ومع شناعة الجريمة فإن باب التوبة مازال مفتوحا.. يتلقى العائدين منهم إلى الصف المؤمن.. أما الذين يصرون فإنما يخطون بالإصرار سوء عقباهم

وما كان أغنى المجرمين عن هذا التمزق لو أنهم تمثلوا حقيقة التوحيد الجامعة **﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو..﴾**

وليتهم أحسوا بالنعمة المسداة من هذا الواحد الأحد سبحانه: **﴿الرحمن الرحيم﴾**

هذه النعمة التى تتقاضاهم أن يتأملوا مجالاتها التى يمرون عليها.. لتنقلهم

إلى المنعم سبحانه:

﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾.

وإذا عقل أناس ما فى هذه المشاهد من حكمة بالغة.. فقد الغى آخرون عقولهم.. فانفلت عيارهم انفلاتا ورطهم فيه وله كاذب بالشجر أو الحجر. فوهبوها ولاءهم من دون خالقهم سبحانه.. مع أن الأمر على العكس وهو ما حققه المؤمنون الذين هم أشد حبا لله..

ويا ليت المشركين السائرين فى الاتجاه المعاكس يرون أنفسهم على شاشة المستقبل أذلاء صاغرين.. إذن لأعادوا حساب الربح والخسارة.. ليتهم يرون أنفسهم يواجهون قوة الله التى لا تغلب.. يحيط بهم العذاب الذى يبلغ ذروته حين يلعن بعضهم بعضا.. ويتمنى التابعون لو عادوا إلى الدنيا ليصفوا حسابهم مع متبوعيهم وقوادهم المزيفين.. ولكن.. ما كل ما يتمنى المرء يدركه..

وإنك لتحس بالقطيعة الكبرى بين الذين كانوا بالأمس يضحكون ويدلون بما يملكون.. وإنها لحقيقة ننبه المؤمنين إليها ليواصلوا المسير فى ضوء الإيمان.. ولا بأس أن يتحملوا ما يلاقونه من طغيان الملحدين والمشركين.. فلابد من ثمن مدفوع.. ولابد أيضا من جزاء غير مقطوع. والمعدن لا يظهر على السطح وحده: لابد من معول وساعد وجهد موصول.

إن الأحداث لتكاد تحطم المؤمن.. ولكن لتعيد ترتيبه من جديد.. قد تبرق السماء.. وقد يكون هناك رعد وعواصف.. لكن الأمطار فى النهاية تغسل الهموم!

وحتى لا تزل أقدام المؤمنين فإنه تعالى يحذرهم من الشيطان: **﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾**.

إنه يدعوكم إلى طعام خبيث.. بينما يدعوكم الله إلى مائدة حافلة بالحلال

منه.. فكلوا من مأدبة الله سبحانه رزقا حلالا.

إن الشيطان الرجيم لا ينقل الإنسان إلى الإثم فجأة. ولكن على مراحل لا يحس المذنب فيها بالخطر.. ينزل به من الأفضل.. إلى الفاضل.. ثم إلى الشر.. أو يصعد به إلى الأفضل ابتداء ليشعره بمشقة تكون سببا فى خروجه من الطاعة جملة... وهذا سر من أسرار ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾.

وهذه المعركة المستمرة مع الشيطان تبين أهمية اليقظة والاستعداد بكل ملكات الإنسان.. ومن ثم يظهر عوار المقلدين ابتداء.. والذين يذهبون فى العناد إلى منتهى الشوط حين يقلدون الآباء.. ولو كانوا جاهلين.

ثم تحمل الآيات المؤمنين مسئولية إدارة هذه المعركة لحساب الحق:

كلوا من طيبات الله.. واشكروا له.. فالكون مائدة مبسوطة بالحلال إلا ما استثنى من المحرمات.. ثم تندد فى نفس الوقت بأولئك الذين يأكلون فى بطونهم النار حين عرض عليهم الهدى.. فباعوه.. وأخذوا الضلال.. وعرضت عليهم المغفرة فآثروا عليها العذاب!!

هؤلاء الذين يكتمون ما كلفتم أنتم ببيانه.. تلك عقباهم.. وهذا جزاؤهم.. فكونوا منهم على حذر:

إنهم يحتكرون الدواء.. ليموت المريض. ويضمرون النصيحة حتى يشقى الحائر اللهفان..

وأخرى.. لابد أن تحذروها: إنهم يجرونكم إلى جدل فارغ حول القبلة.. ويسرهم أن تفرغوا طاقاتكم فى قضايا شكلية لا تغنى عن الحق شيئا..

وإذا كنتم تبحثون عن البر والخير.. فهذا هو البر:

﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله﴾

فسلمت عقيدته.. وآتى المال مستحقيه.. قريبا يقف مثلك على قدميه.. ومسكينا تكمل نقص ميزانيته.. فيشترى الدواء.. والغذاء ليقوى على عمل يعود عليك خدمات شتى. وغريبا يعود إلى وطنه ليأخذ موقعه عاملا.. ومدينا ينهض

من كبوته ليستأنف حركته المباركة من جديد.. كل ذلك إلى جانب تصفية نفسك من الضعف.. بالصلاة.. وغيرك من الحقد.. بالزكاة.. وأمتك من الخلل بالثقة المتبادلة وفاء بالعهد المؤكد.. على أن تنطلق فى ذلك كله من صبر يتميز بجماله المانع من الضجر.. فى ظل دولة تحقق التوازن بالعدل.. ومجتمع ينشر الأنس بالعفو.. وشريعة تحفظ الحياة بالقصاص. هذا هو البر.. وليس هو شقشقة باللسان تضر بالإنسان وبالإيمان.

سورة البقرة: من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [٢٤٣ ـ ٢٥٨]

فى سلسلة الإعداد الإلهى للأمة المسلمة يقص علينا سبحانه جانبا من حياة الغابرين تبصرة وذكرى. تتحد بها الغاية. ويتضح السبيل.. وتتلافى أمتنا تجاوزات منهم مثل ما فعل الأولون. حتى إذا قادت ركب البشرية إلى الكمال كان لها من ذكراها مدد يعينها على المضى قدما... وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾.

لقد خرجوا زحفا مخافة الموت. فتخطفهم الموت الذى يحذرون.. ثم أحياهم ربهم آية شاهدة أن الموت والحياة بيده وحده.. ولا يغنى حذر من قدر.. الأمر الذى يبعث الإرادة من مرقدها جهادا فى سبيل الله.

وإذن.. فقاتلوا فى سبيل الله.. فما أطال الحذر عمرا.. ولا قصر فى الأعمار طول الجهاد.... ﴿قاتلوا فى سبيل الله﴾ وقدموا أرواحكم قرضا مضمون السداد من رب العباد. وإن لكم فى تاريخ بنى إسرائيل لعبرة تؤكد هذا المعنى: ﴿إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله﴾.

ما هى قصة الملأ هنا؟

لقد غلبهم العمالقة فأذاقوهم لباس الجوع والخوف. فقالوا لنبيهم: اجعل لنا ملكا نقاتل تحت لوائه أعداءنا. ونسترد كرامتنا وحريتنا.

ورأى النبى إرادة القتال تعلن عن نفسها.. وأحلام الانتصار تشتعل فى عقول القوم وقلوبهم.. ولم يستخفه المرقف الساخن.. ولم يتخذ قرار الحرب فى لحظة انفعال طارئ.. تفاديا لنكسة تقصم ظهر الأمة حين تخوض حربا لم تستعد لها..

وما أكثر المغامرين الذين يركبون الموجة الانفعالية الصاخبة.. فى رحلة غير محسوبة النتائج.. وبعد الانبهار.. يكون الانهيار.. وتنكشف الرغوة عن خدعة.. وتتبدد الأصوات المتنادية بالكفاح بالسلاح.. عند اللحظة الحاسمة

وهكذا. وعندما يكون المصباح كبير الشعلة.. يفنى الزيت سريعا!

من أجل ذلك يكشف النبى للقوم عن خوفه من تخاذلهم إذا فرض عليهم القتال.. ﴿قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾

أخشى الا تفوا بالوعد. ولا تتحملوا مسئولية المواجهة..

واجابوه: أى عذر لنا فى التخاذل ودواعى القتال تحرق أعصابنا... لقد ﴿أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾..

ولكن الأفعال تكذب الأقوال: ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم﴾..

لقد استجاب لهم نبيهم قائلا: ﴿إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا﴾..

وثارت دماء العصبية الرافضة أن يكون ملكهم.. فقيرا.. ولا يتحدر من سلالة الأشراف.

﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾

وتطل القيم العفنة برءوسها راغبة فى تنحية القيادة الراشدة.. بالجراة.. لا بالحق.. بالحيلة.. لا بالإقناع. بالمناورة.. لا بالمحاورة.

وإنه لموقف عجيب يذكرنا بالبعير الجامح:

إن أثقلت عليه صاح.. وإن خففت عنه صاح.. لا تدرى أين ما يرضيه فتجلبه.. ولا أين ما يسخطه فتتجنبه!!

ويتصدى النبى لفريق الغضب مبينا أحقيته فى القيادة للأسباب الآتية:

١ ـ يكفى أن الله اصطفاه..

٢ ـ ثم سلحه بالعلم القادر به على سياستكم.

٣ ـ وبالجسم القوى الصابر على مغارم القتال.

ولاحظ تقديم العلم على القوة الجسمية.. إعزازا من القرآن للقوى النفسية التى هى أشرف القوتين.. وتنويها بالعلماء وهم أوتاد الأمة.. الأمر الذى يفرض

علينا احترامهم حتى لا يعيشون غرباء فى أوطانهم.. وإلا فإن تجريح العلماء بلا هدى ولا كتاب منير.. محاولة تريد لأمتنا أن تعيش بلا تاريخ.

و﴿**قال لهم نبيهم**﴾ أن علامة ملكه إتيان صندوق التوراة، وبقية من تراث موسى تحمله الملائكة..

وقبل المواجهة الساخنة أراد أن يبتليهم لينفى الخبث ولا يبقى إلا الذهب الخالص... فأخبرهم ـ وفى لحظة العطش ـ أن الله مختبرهم بنهر فمن شرب منه.. فليس منى.. إلا من اغترف غرفة بيده.. فشربوا منه إلا قليلا. اكتفوا بالغرفة.. فتخطوا العقبة الأولى.. وعندما شاهدوا جالوت وجنوده تخاذلت فرقة أخرى سقطت فى الامتحان.. وانضمت إلى طابور الهزيمة الذى كان لابد من تجاوزه.. ليواجه القائد العدو بالقلة التى تواجه المعركة.. التى إن أبقت على الحياة فيهم أبقت عليها فى رجال عرفت الحياة من هم.. وإن أسلمتهم إلى الموت أسلمت إليه برجال لا يعرفون الموت ما هو!!

﴿**فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء**﴾.

وهكذا ينقض الصبى الصغير كالصقر على الطاغية جالوت.. فيصرعه فإذا هو جثة هامدة تتخطفها الطير.. معلنة سخرية الأقدار عندما تجىء نهاية الجبارين من حيث لا يحتسبون.

ويارب همة عالية أنقذت أمة بالية!

وكما تفاضل المؤمنون.. أيضا يتفاضل المرسلون: ﴿**تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض..**﴾

ولقد كان المتوقع أن يتجه البشر إلى الرسل طلبا للنجاة.. ولكن اختلفوا.. فاختلفت بهم السبل.. وعلى المؤمنين أن يرتفعوا فوق هذا المستوى الهابط: إنفاقا فى سبل الخير.. مستشعرين عظمة الخالق سبحانه.

﴿**الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض**﴾..

وإذ تتبين الحقائق هكذا فلا إكراه فى الدين.. والقضية معروضة للناظرين ليتخذ كل قراره بمحض اختياره.

﴿فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها﴾.

وحينئذ يسعد بولاية الله الحق: **﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.**

وبينما يمضى المؤمنون فى النور.. وعلى الصراط المستقيم.. يتخبط الكافرون هناك.. فيدورون حول أنفسهم.. فتتبدد منهم الطاقات دون جدوى.. ولم يعد لهم إلا المبارزات الكلامية التى تطلع عليها شمس الحق.. فإذا هى لا شىء.. **﴿والله لا يهدى القوم الظالمين﴾..**

*

سورة البقرة: من قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُل ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٢٥٣ ـ ٢٦٨]

مع أن الرسل عليهم السلام قمة الكمال البشرى.. إلا أنهم متفاوتون فى مراتبهم: اتخذ الله إبراهيم خليلا.... وكلم موسى تكليما ؛ .جمع لداود الملك والنبوة..... وآتى عيسى ابن مريم البينات.

وكان محمد ﷺ مسك الختام: فمنصبه أعلى... ومعجزاته أقوى... وقوته أكثر... ودولته أكبر.

وكان المتوقع أن يتجه البشر إلى هذا الكمال الأسمى فى محاولة للاقتراب إن تعذر الوصول.. ولكنهم اختلفوا.. فاقتتلوا.. فى إطار من مشيئته تعالى والذى كان من الممكن أن تمنع هذا الاقتتال.. غير أنه تعالى لم يشأ.. لتكون قضية الإيمان متاحة للإنسان الذى يتخذ فيها قراره بمحض اختياره... محققا بهذا الاختيار إرادته سبحانه.

وإلى المؤمنين يتجه نداء خاص أن ينأوا عن هذا الاختلاف بالاتفاق تدعيما للحق الذى يظل صخرة النجاة.. عند كل نزاع..

ألا وإن الاستجابة إلى هذا النداء يفرضها الإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب.

ثم تصوُّر جلال الألوهية الذى ضمت عليه آية الكرسى فهى دالة على أنه تعالى ـ كما يقول البيضاوى: فهو واحد فى الألوهية.. متصف بالحياة.

واجب الوجود لذاته موجد لغيره.. إذ القيوم هو القائم بنفسه المقيم لغيره.. منزه عن التحيز والحلول مبرأ عن التغير والفتور لا يناسب الأشباح... ولا يعتريه ما يعترى الأرواح.

مالك الملك والملكوت ومبدع الأصول والفروع. ذو البطش الشديد. الذى لا يشفع عنده إلا من أذن له... عالم الأشياء كلها: جليها وخفيها. كليها وجزئيها.

الواسع الملك والقدرة لا يؤوده شاق. ولا يشغله شأن... متعال عما يدركه وهو عظيم لا يحيط به فهم... وهذه العظمة الإلهية كافية لمن أراد الإيمان..

وإذن.. فلا إكراه فى الدين.. وذلك شأن العقيدة القوية.. الواضحة.. التى لها من قوتها وجلائها ما يكفى للإقناع.. بلا ضغوط من خارجها.

وهذا ما فعله المؤمنون الذين كان الإيمان لهم حبلا استمسكوا به فكان نورا يمشون فى سناه.. بينما بقى الكافرون يتخبطون فى الظلمات فكان جزاؤهم العادل أن كانوا أصحاب النار الكاوية بعد أن رفضوا النور الهادى.

وتجىء قصة إبراهيم عليه السلام مع النمروذ مثلا لأهل الإيمان.. وسدنة الكفر: لقد تساءل الطاغية عن إله إبراهيم.. فأجابه: ﴿**ربى الذى يحيى ويميت**﴾... فكان منه ذلك الرد المتهافت.

إنه أيضا يقتل إنسانا.. ويستبقى زميله.. وإذن فهو أيضا: يحيى ويميت.. بعد أن قتل الأول.. وترك الثانى حيا!!

وتجيئه الضربة المسكتة حين تحداه الخليل أن يأتى بالشمس من المغرب.. فعقدت المفاجأة كيانه كله.. وما كان له أن يهتدى إلى جواب.. وهو يتخبط فى الظلمات..

وهذا الطاغية مقرون بزميله فى العناد والذى أنكر أن يحيى الله قرية كانت خرابا. فأماته الله تعالى قرنا من الزمان. وأمات معه حماره. ثم أحياه فأراه كيف بقى طعامه كما هو لم يتغير. وكيف عاد حماره حيا.. آية منه سبحانه.

ويضرب الله الأمثال للناس.. ليعرفوا.. ثم ليعترفوا.. وقد اعترف: ﴿**قال أعلم أن الله على كل شىء قدير**﴾

وعلى الجانب الآخر: ترى إبراهيم عليه السلام وهو ماض على طريق الإيمان.. نوره يسعى بين يديه فيسأل ربه ما يزيد ذلك الإيمان ويرسخه: ﴿**رب أرنى كيف تحيى الموتى**﴾

فأمره سبحانه أن يقطع مجموعة من الطير أجزاء.. ثم يوزعها على قمم

الجبال حوله بعد أن يتأكد من علاماتها.. محتفظا برءوسها في يده. ففعل. ولما دعاها.. عاد كل جسم إلى رأسه في يده.. وصار حيا كما كان.

وإذا استقرت دعائم الإيمان فى أرض النفوس هكذا.. فقد برزت مسئولية المسلمين فى تنمية هذه الدعائم لتصير على الأرض نهضة وعطاء ورخاء.. بالإنفاق.. وهذا ما أشارت إليه الآيات التالية..

﴿مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة﴾..

إن المال عزيز على النفوس. ولا يساعد الطبع على بذله بسهولة.

من أجل ذلك يشعل الحق تعالى الرغبة فى إنفاقه بهذه الصورة الموحية المعبرة.. صورة حقل مديد تضع فيه الحبة .. فإذا هى سبع سنابل إلى ما يشاء الله تعالى من أضعاف.

وإذا استجابت الأرض لأمر ربها.. فأعطت.. فواجب الإنسان يفرض عليه أن يكون أكثر قبولا.. وأشد إقبالا على بذله. بلا من ولا اذى.. حتى لا يحبط بالمن أثر الإحسان..

وإلا.. فإن كلمة طيبة خير من صدقة متبوعة بالأذي.. إن الفقير لأحرج إلى كلمتك الطيبة منه إلى طعامك وشرابك.

ولأن القضية مرتبطة بغريزة التملك وما لها من ضغوط على الإنسان. فإن السياق القرآنى هنا يلاحق النفس الإنسانية بصورة أخرى تساعد الإنسان على البذل طواعية صادرا فى عطائه عن سماحة نفسه:

فالذى ينفق ماله رياء.. إنما هو حجر أملس.. عليه طبقة من تراب... يسقط عليه وابل من المطر غزير.. فلم يبق من التراب شىء.

وأين هذا من المنفق ماله احتسابا... ومثله كمثل بستان على ربوة عالية.. فجذور أشجاره ممتدة فى الأعماق لتمتص نسبة أكبر من عناصر الخصوبة... بقدر ما هى بعيدة عن وخامة السهل. ووعورة الجبل.

إن هذا البستان لخصيب أبدا: إن أصابه مطر غزير.. أو أصابه ماء يسير.

وكذلك قلب المؤمن الذى لا يقاس إيمانه بحجم صدقته. ولكن بمقدار ما يحمل فى قلبه من عناصر الخير والود. ويأتى حجم النفقة فى المرتبة التالية.

إن النفس الراغبة فى الإنفاق بطبعها لا يهمنا فقرها الآن وسوف تبذل غدا متى وجدت إلى الإنفاق سبيلا. ويستمر القرآن الكريم يقود النفوس من داخلها بإيقاظ غريزة الأبوة بعد إثارة غريزة التملك.. حين يذكّر الإنسان بذريته التى يمكن أن تضيع من بعده.. حتى ينفق مما يملك بل من أفضل ما يملك.، محطما بهذا الإنفاق أمانى الشيطان الذى يسول للإنسان البخل والفحشاء. ونحن مطالبون أن نقطع عليه الطريق بالإحسان ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾.

سورة البقرة: من قوله: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢٦٣ ـ ٢٧٤]

يقول الحق سبحانه وتعالى فى سورة البقرة:

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ الآيات..

الأصل في الواجد أن يعطى المحتاج ابتغاء مرضاة الله تعالى.. منزها نفسه عن كلمة يجرح بها شعور من أعطاه..

فإن فعل.. فنعما هى.. وإذا لم يكن ممن يملك لسانه فلم يرتفع إلى هذا المستوى.. فخير من صدقته أن يسمع المحتاج كلمة تطيب بها نفسه.. وتستبقى كرامته؟

وإلا فما قيمة معونة تبنى بها حجرا.. ثم تهدم بها جدارا؟ ما قيمة قرش تستنبت به زهرة.. ثم تقتلع بها بستانا؟

ألا إن المحتاج لفى غنى حينئذ عن معونة تحييه لحظته الراهنة.. ثم تميته دهرا طويلا!

المسلم مدعو إذن إلى البذل.. وقبل ذلك مأمور بوقايته من الفساد:

﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**﴾.. ويحمله على الالتزام أمور:

أولا: عهد الإيمان بالله.. الرزاق.. فالمال ماله.. فهو المعطى فى الحقيقة. لا أنت.

ثانيا: أنه سبحانه غنى.. يعطى تفضلا.. وحتى إذا لم يشكر الآخذ.. كان به رحيما حليما: فكيف بك أيها الإنسان؟

فلتتخلق بأخلاق الله.. أعط.. ولا تمن.. ولا تؤذ..

ثالثا: إن اعتدادك أمام الفقير بما أعطيته:

أ ـ يضيف إلى ذل الحاجة.. قسوة الهوان.

ب ـ ربما حمله على عدم السؤال ولو أشرف على الموت.

رابعا: يمنعك من إبطال صدقتك أنها عملك أنت ﴿**صدقاتكم**﴾ وليس من المعقول أن تنقض غزلك من بعد قوة . . وبيدك!

خامسا: تصور هذا الموقف المفزع المانع لك من التقصير:

رجل يتصدق رياء. . فضاع ما بذله. . كما تضيع طبقة الغبار على حجر أصم. . أملس. . أصابه مطر غزير. . فهل يبقى من الغبار شيء؟!

وكان هذا الضلال ثمرة الكفر الساتر نعمة الله بالجحود. . بينما هذه الصورة الوردية الآتية تدعوك إلى العطاء حسبة. . صورة المؤمن المنفق. . الذى تحثه نفسه على البذل. . فكان جنة وارفة الظلال على أرض خصبة مثمرة دائما. . أصابها مطر غزير. . أو يسير. . ثم. . ألا تخشى من مفاجآت المستقبل؟

تأمل هذه الصورة الموحّية المؤثرة الموقظة غريزة الأبوة فيك. . لعلك تخشى. . فلا تردى!

صورة شيخ بلغ من الكبر عتيا. . وله جنة مورقة مثمرة. . وله كذلك ذرية متعلقون به ضعفاء. . وفجأة هب إعصار فيه نار فصوحت الأغصان الناضرة. . فأصبحت كالصريم. . واحترقت معها آماله. . وضاع بين يديه عياله. .

وإذن فحاول بالإنفاق تجنب ذلك المصير إن كنت صادقا فى حب نفسك وولدك. مستفيدا بهذا البيان الإلهى. . لعلك تهتدى. . فلا تتصرف فى مالك تصرف الأطفال سرفا. . ولا تصرف الجشعين استغلالا. .

فإذا قررت الإنفاق كما يعلمك الرزاق فانتصر على نفسك وجد بالجيد من مالك. . واحذر أن تجود بالردىء الذى لا تقبله من غيرك إلا على مضض. . وإلا فصحوتك هذه هى الفجر الكاذب!

فإذا انتصرت على نفسك النزاعة الطامعة فى استبقاء الجيد. . فتقدم على الطريق خطوة أخرى لتحسم المعركة بالانتصار على عدوك الخارجى. . الشيطان:

﴿**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء**﴾ . .

ولاحظ هنا صعوبة المواجهة مع الشيطان الذى يوهمك أنه يعدك.. ولا يتوعدك... يعدك: فهو حريص على مصلحتك بهذه الموعدة أو هكذا يبدو.. فاحذره على دينك.. إنه يضع لك السم فى العسل.. وما أكثر الذين حباهم الله نعمة التأثير فى قلوب الناس.. ثم سخروا النعمة فى الإغراء والإغواء.. فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل بتلبيس من وادى إبليس.. فحملوا قلوبا غضة طرية على كره من هم من الكره فى المكان البعيد.

هذا هو الشيطان يحذركم قائلا: القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود.. فدعه فى جيبك.. ولكن الحق تعالى: **﴿يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم﴾**

يعدكم مغفرة تمحو ما بدر منكم من تقصير.. فتخلصوا من عقدة الشيطان وسيروا تحت راية الرحمن.. الذى يعدكم فضلا منه فوق ما تستحقون..

ومن فضله تعالى رزقه المعنوى الذى لا يضاهيه ما تملكون وما تحصنون: إنه الحكمة: **﴿يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا﴾**..

وما يدرك قيمة هذا الرزق إلا أصحاب العقول التى لا تقف عند الأحجام.. وإنما تدرك بالبصيرة جلال الحكمة.. وقيمة العلم الصحيح.. الذى ينشط الإرادة.. فتنطلق إلى العمل..

وليست الحكمة أن تكون شريطا معبأ بأحكام.. تنثرها نثر الدَّقَل.. ثم لا تفهم مغزاها.. ولكنها صفة تحكم بناء النفس من الداخل.. لتصبح حاكمة بهذا الأسر المشدود حركة الحياة.. ومن الحقائق التى نكتشفها بالحكمة.. بالعلم. والفقه: أن ما تنفقونه يعلمه الله تعالى.. صغيرا كان أو كبيرا.. وهو خير يرتد إليك بركة فى العمر والولد.. متى صح انتماؤك لأمتك فأنفقت سرا وعلانية.. وفى كل مناسبة.. وعلى كل الناس حتى الأقرباء المشركين..

إن الآية الكريمة لم تقل: (وتؤتوها فقراءكم..). ولكنها أطلقت فكانت هكذا: **﴿وتؤتوها الفقراء..﴾**.

فأنفقوا عليهم ولا يضيركم بقاؤهم على الكفر.. فليس عليك هداهم ولكن

الله يهدى من يشاء.

إن الله تعالى لم يمنع أحدا من رزقه بسبب اعتقاده.. وقضية الإنفاق إذن.. قضية أخرى غير قضية الهداية.. فأنفقوا ما يعود عليكم شخصيا بالنفع.. وربما كان الوجه الودود.. والرفد المرفود سبيلا إلى إسلام قوم لا تتوقعون هدايتهم..

﴿فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا﴾. فقد كنتم التعبير الأصيل عن دينكم.. وهذا يكفى..

وإذا كانت قيمة الصدقة بقدر ما تخفف من آلام الناس.. فإن عليكم أن تتحروا بها أناسا ألجمهم الحياء.. فطووا بطونهم على الجوع.. ولو أشرف بهم على الموت:

﴿للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا﴾.

وقد كنت أقول لبعض من ألقاهم من الأغنياء: اجعلوا فى أموالكم نصيبا مفروضا.. لفقراء لا يحترفون السؤال بينما الموت أهون عليهم من أن يمدوا لكم يدا.. قبل أن يستأثر الشحاذون بأموالكم.

وقد أسعدنى أن رأيت فى تفسير المنار ما نصحت به. فكان شاهدا صادقا يفرض على الأغنياء الالتزام.. لما تحققه مثل هذه الصدقة من خير لا تراه العين.. ولكنه لا يضيع أبدا: **﴿فإن الله به عليم﴾** فأنفقوا ولا تخشوا من ذى العرش إقلالا..

وإذا فاز الشحاذون بنصيب الأسد.. فقد احتفظ الحق تعالى للأعزاء الذين ذلوا.. احتفظ لهم بنصيبهم المفروض الذى يحملكم على إنفاقه أنه رصيد لكم عند من لا تضيع عنده الودائع سبحانه وتعالى:

﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

سورة آل عمران: من أول السورة
إلى قوله تعالى ﴿إنك على كل شىء قدير﴾ [١ - ٢٦]

يقول الحق سبحانه:

﴿ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم..﴾ الآيات من سورة آل عمران.

يقرر الله تعالى: أنه لا معبود سواه. وأنه الحى الذى لا يموت..

وإذا تصوره بعض الفلاسفة واحدا يملك ولا يحكم. تاركا للسنن الكونية إدارة الكون.. فإن الآية الكريمة تقرر أنه القيوم الذى يدبر شئون الكون دون سواه.

وقد نزل عليك الكتاب تعبيرا عن هذه القيومية الآخذة بناصية الكون.. نزله عليك منجما.. يلاحق علل البشر بالتشخيص والعلاج.. على المدى الطويل.. يحمل فى ذاته دلائل حقيقته.. وهيمنته على الكتب الهادية من قبله: يصدق ما جاءت به من الحق.. ويصحح ما حرفته أهواء البشر..

فكان القرآن بهذا المعنى فرقانا حسم الخلاف.. ووضع النقاط على الحروف.. فوضح الحق. وزهق الباطل.. وهدى الله الذين آمنوا إلى الصراط المستقيم.. بينما الكافرون فى ثورة الشك يترددون.. فيتعذبون فى الدنيا.. مع ما ينتظرهم من نقمة الله تعالى فى الآخرة. على ما قدموه من تمرد وعصيان لا يخفى على من يعلم ما فى الأرض والسماء.. الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

ومن فيض هذه الوحدانية والعزة والحكمة أنزل عليك الكتاب... منه آيات محكمات: ظاهرات المعانى.. وأخر متشابهات: لا تظهر معانيها إلا بالفحص والتأمل.. وقد اختلفت نوعية تلقى ذلك الهدى:

فأما الذين فى قلوبهم مرض فيتعلقون بذلك المتشابه إثارة للفتنة النائمة.. أما المؤمنون فيقولون:

﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ. رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ. رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ

رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾

وتأمل كيف أحسن المؤمنون استقبال القرآن. فكان هذا التسليم. وكان ذلك الفقه. . . ثم كانت تلك النهضة العلمية حين صار ذلك المتشابه فرصة للعلماء الذين زاد حرصهم كما يقول البيضاوى .

على أن يجتهدوا فى تدبرها. وتحصيل العلوم المتوقف عليها استنباط المراد بها. فينال بها. وإتعاب القرائح فى استخراج معانيها. ولوكان كله ظاهراً جليا لاستوى فيه العلماء والجهلاء. ولماتت الخواطر بعدم البحث والاستنباط. . . فإن نار الفكر إنما تقدح بزناد المشكلات. ولهذا قال بعض الحكماء: عيب الغنى أنه يورث البلادة ويميت الخواطر. . وفضيلة الفقر: أنه يبعث على إعمال الفكر. واستنباط الحيل فى الكسب

وهكذا يرى العلماء الزند. فيشع ضياء. ورخاء بينما يتوارى الكافرون فى غيابات من الجهل نسجوه بجهلهم وعنادهم، ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم بعد ما فقدوا رصيد الإيمان. كأخوة لهم فى الضلال من قبل، آل فرعون الذين استكبروا فى الأرض بغير الحق ﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾. وللكافرين اليوم أمثالها.

ولقد حانت فرصة الاعتبار بما حدث لهم فى بدر من هزيمة ساحقة أمام القلة المؤمنة التى هيأ الله تعالى أسباب نصرها. وهو تعالى خير الماكرين. . . ولكن القوم لم يبصروا. حيث بدت لهم الدنيا فى أبهى زينتها، فأعمتهم عن الأبصار، والاعتبار فخسروا يومهم وغدهم:

فما قضى أحد لبانته ولا انتهى أرب إلا إلى أرب

وهكذا تفعل الشهوات بمن يتبعونها:

﴿ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾.

وهنا ندرك جانبا من جوانب المنهج الإسلامى فى التربية :

فالناس معذورون حين يسيل لعابهم حيال هذه الشهوات،وكثير منهم يستسلمون لها، ثم لا ينهضون.

غير أن للمسلمين شأنا آخر: فهم كغيرهم من البشر واقعون فى منطقة نفوذ هذه الدنيا. ولكن ليعلموا: أنها زينة.. طلاء خداع.. ثم هى متاع. يئول غدا إلى الضياع.

ثم هو متاع الحياة الدنيا القريبة السهلة لكن تكاليف الإيمان تفرض عليكم التحليق وراء الأهداف البعيدة؟

﴿ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾. ﴿ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾.

هل لكم رغبة فى النعيم الدائم، رغبة تتحرك ذاتيا فى أنفسكم لتتجهوا إلى أعلى؟

﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾.

وهنا درس للدعاة حتى لا يفرضوا القضية فرضا، وإنما هو الاستئذان فى طرحها. حتى إذا قبلت النفوس عرضها، أقبلت عليها... ولنترك الجمهرة الغفيرة من الدنيا فى جنات وعيون وزروع يختلفون عليها ويموّتون من أجلها،ثم لنتأمل هؤلاء الذين طارت بهم قلوبهم إلى الأفق الأعلى فعاشوا بقيم الإيمان فى جنات عدن يرطبون ألسنتهم بما لذ وطاب من ذكر الله:

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ. الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾.

وما بالإسلام من حاجة إلى إثبات حقيقته، بعد ما شهد بها الحق سبحانه، والملائكة،وأولوا العلم من هؤلاء المستغفرين. بل إن هذه الحقيقة: لثابتة فى وجدان الذين أوتوا الكتاب، ولكنهم اختلفوا وأعرضوا فى اللحظة التى عرفوا فيها الحق بغيا وحسابهم على الله... فإذا أرادوا الجدل الفارغ تعطيلا للمسيرة فجدد عرض القضية عليهم فإن قبلوها فبها.

وإلا فقد انتهت مهمتك بالبلاغ فأمسك عليك لسانك ولا تضيع وقتك مع أناس لطخوا أيامهم بدماء الأنبياء، وإذا كانت لهم اليوم دول، وإعلام، وجيوش، فاعلم أن ذلك غثاء وخواء، وحين تقوم قيامتهم سينفض السامر. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ويكفى دليلا على ظلمهم أنهم يدعون: ﴿إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ زاعمين أنهم الأطفال المدللون، ولن تمسهم النار دون البشر إلا أياما معدودات، صادرين عن غرور لا مسوغ له ولا جدوى منه... وغدا يمثلون جميعاً أمام محكمة العدل الالهية ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

*

سورة آل عمران: من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [٥٢ ـ ٧٤]

يقول سبحانه : ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ..﴾.

بعد ما ساق الحق تعالى من براهين الحق لمن شاء أن يبتغى إليه سبيلا. أصر الجاحدون على ضلالهم واستكبروا استكبارا، ولما أحس عيسى عليه السلام منهم ذلك، اتخذ القرار المناسب بالبحث عن أرض جديدة يستنبت فيها نباتا يعجب الزراع، ويتحمل معه مسئولية الدعوة فقال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى..﴾ .

من يؤازرنى فى دعوتى، متجاوزاً هؤلاء الجاحدين الذين يجب إقصاؤهم عن صدر أمة لا يطلبون ثديها إلا ليمزقوه.

وكان الحواريون عند حسن الظن بهم فقالوا ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ..﴾. نحن خاصتك وخلصاؤك ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾. ثم يزيدون العهد توكيدا بإشهاد العليم بالنوايا سبحانه: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

الذين تشهد أقوالهم وأعمالهم على ما فى قلوبهم من عزائم الخير.

ولقد كان ذلك الموقف ردا إلهيا على كيد الأعداء. الذين مكروا بالدعوة ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ حين توفاك يا عيسى مؤخرا إياك إلى أجلك المعلوم عاصما لك من كيدهم، رافعا قدرك وقدر أتباعك فوق رءوس أعدائك.

ثم ترجعون إلىّ فى الآخرة رجوعاً لا شك فيه، لأحكم بينكم حكما لا ظلم فيه:

فأما الكافرون فصائرون إلى عذاب شديد جروه بالكفر إلى أنفسهم، فى الوقت الذى ينعم المؤمنون فى روضات الجنات.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ ﴾ الكاشفات عن وجه الحق، ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾. الذى أحكم الله به بناءكم النفسى، بما يذكركم به من عناصر الرشد فى

فطرة النفس. وفطرة الكون:

ففى أيديكم من هذا الذكر نوران: من النفس، ومن الكون تحبطون بهما كل شبهة يرمونكم بها، ومنها ما زعموه من أن عيسى ابن الله، أو هو الله..

وصحيح أن ولادة عيسى جاءت على غير المعهود، فى دنيا الناس. ولكنه بالقياس إلى آدم أقل عجبا؟

فلماذا تتشبثون بآرائكم بشأن عيسى، ثم لا تكونون كذلك إزاء آدم؟

يجب أن تعترفوا بأنه، كما لا يلزم من خلق آدم أنه ابن الله... لا يلزم بالضرورة من خلق عيسى ـ وهو أقل غرابة ـ أن يكون ابن الله.

وذلك هو الحق الآتى من ربك، فأثبت عليه، ولا تكن من الممترين. ولا مراء هناك وإنما: إياك أعنى واسمعى يا جارة، فالأشكال فى نفوس القوم، لا فى قلبك أنت. ولو كانت مشكّلتهم الجهل، لزالت بالعلم، وقد جاءهم العلم، فلما لم يؤمنوا دل ذلك على أن عقيدتهم: العصبية التى إن تمكنت فى نفس فلا يجدى معها: ألف برهان، وبرهان.

وإذن فخاطبهم باللغة التى يفهمونها: إن المعاند يخاف على مصلحته أن تفوت... ويخاف على نفسه أن تموت! فادعهم إلى ما يعرض مصالحهم وحياتهم للخطر.... للمباهلة: أن يخرج كل فريق بكل ما هو عزيز عليه من الأنفس والثمرات. ثم يدعو كل منا... مستنزلا اللعن على الكذاب.

فإن تولوا. وقد تولوا فعلا فقد انتهت مهمتك بإفحامهم، ويبقى أن تكللهم إلى الله العليم بما يفسدون فى عالم الضمير بالخرافة، وفى عالم الواقع بالعدوان. فلا يغرنك قولهم ولا فعلهم.

لكن الحق الذى وضحت دلائله، لا ينبغى أن يجعل من لحظة الانتصار مهرجاناً صاخباً يصدر من معين التشفى وحب الانتقام.

ذلك بأن الداعية يصدر عن نبع الرحمة والشفقة فى لقائه مع المعاندين، ومن ثم فليواصل الداعية المنتصر زحفه السلمى عبر القلوب الغافلة بعد انكشاف

الغيوم، لعلها أن تفيق وهذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى:

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

يا أهل الكتاب، يا أبناء عمومتنا: تعالوا على هذه القواعد المتفق عليها، لنجعل منها سفينة ننجو بها من طوفان هذا الفساد. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وبحكم هذا الإسلام لا نكرهكم، وإنما نكره أعمالكم، وأقوالكم المنافية للقواعد التى أقرتها الأديان جميعا.

قلتم إن إبراهيم كان يهوديا. أو كان نصرانيا. وهذا خطأ تاريخى: فما نزلت التوراة والإنجيل إلا من بعد إبراهيم فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا؟

الحق أنه كان حنيفا مسلما وأولى الناس به من سار على دربه، واتبع هداه، والحق أيضاً أن وراء هذا الخطأ التاريخى: خطيئة هى ذلك الهوى الراغب فى تصفية الحق وأهله، وذلك ما تحكيه الآية الكريمة.

﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

إن المبطل حين يحس فى نفسه بالضآلة والهوان، ثم يرى المؤمن فى نفس الوقت عاليا بالإيمان داعيا إليه بسلوكه القويم.. هذا المبطل يتعرض لضغوط من داخل نفسه الصغيرة، وأمام هذا الوقار الذى يصبغ المؤمن. فيود أن لو خلت الديار من المؤمنين بخاصة، لترتاح نفوس الخطائين. ثم يخلو الجو للذئاب البشمة بلحوم الضحايا.

وتشرق عليهم الآية الكريمة بما يشبه العتاب الذى من شأنه بأيديهم إلى الحق لو أرادوا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ؟﴾.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

إن الضلال هنا لم يصدر عن جهل، وأنكم لعالمون بل شاهدون. إنها إذن العصبية والنفس والدنيا والرغبة التى تعلن عن نفسها فى تصفية وجودنا.

وهذا ما تكفلت به طائفة كان دورها إعلان حرب التخذيل حين قالوا:
﴿آمِنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾ لماذا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

ونلفت هنا نظر الدعاة المسلمين إلى أن أعداء الإسلام يحاربونه حربا علمية مدروسة قائمة على معرفة واعية بقوانين النفس الإنسانية: ومنها: أن من عرف الحق لا يرجع عنه أبدا.

فإذا رجع هؤلاء العملاء عن إسلامهم فى مساء نفس اليوم، كان معنى ذلك أن الإسلام لا يقوم على أصول الحق، وبذلك تحقق المؤامرة أغراضها، على الأقل بما تحدثه من تشويش.

نلفت نظر الدعاة ليعلموا أن ضحالة الثقافة، والجهل بأصول الدعوة لا يغنى عنه موجات الحماس ولو كانت كالجبال هديراً وصخباً.. ذلك بأن الإسلام ليس نظرية تناطح نظرية، وإنما هو شرعه الحق إلى الخلق... فلتكن لنا من جديته قبس يعيننا فى معركة لا ينتصر فيها إلا الفاقهون القادرون على كشف الغيوم وتجلية وجه الحق.

وذلك أجدى على الحق الذى لا ينتصر أبدا بطوائف من بنيه يفرقهم الحماس، وواجبهم أن يتحدوا على أصوله الجامعة ولتكن لنا عبرة فيما يتنادى به الأعداء من ضرورة التجمع، والحذر من المخالفين الماكرين وذلك ما عبرت عنه الآية الكريمة مما كان يتواصى به المناوئون: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

مع أن الهدى هدى الله، بيده سبحانه لا بأيديهم. ولكنهم من فرط العصبية يريدون الهدى حكرا عليهم، ليظلوا فى المقدمة، وليجردوا خصومهم من كل سلاح يشهرونه فى وجوههم.

بيد أن الحق تعالى لم يكل إليهم أمر الهداية، ولا يتنزل فضله تعالى إلا على من كان له أهلا:

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم. يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

سورة آل عمران: من قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاء ..﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١١٣ ـ ١٤٠].

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ . . .﴾ الآيات.

ترسى الآيات الكريمة قاعدة العدل، حين تنصف المؤمنين من أهل الكتاب إنصافا يعترف بالفضل لأهله. . . إنها لا تأخذ المجرم بجيرانه، حين تنفى استواء الفريقين: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ لماذا؟.

لقد وصل الحاقدون منهم إلى حد أنهم: ﴿**كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق**﴾ بينما صار المؤمنون منهم خلقا آخر:

فهم أمة قائمة على أصولها من الحق الذى اعتنقوه وتحملوا تبعاته وهاهم أولاء يغذون شجرة الإيمان بالتلاوة والتهجد بدافع من عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والتى جعلت منهم رسل هداية وتوجيه: ﴿**يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾. وفى نفس الوقت كانوا طلائع عمل ونتاج: ﴿ **يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾. لا يتعاملون مع خصال البر من منطقة شبه الظل ولكنهم فى الخيرات، فى صميمها يضربون الأرض فتنبت الخضر، ويساقط الثمر فكان جزاؤهم شهادة حق تتوج هاماتهم: ﴿ **أُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾ ووعدا موثقا بالأجر الجزيل: ﴿ **وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ** ﴾.

وما أجدرهم بهذه الشهادة العظيمة، وهذا الوعد الجميل، جزاء عمق إحساسهم بمسئوليتهم تجاه أمتهم التى تنافسوا فى خدمتها: عملا ونتاجا والتى لم يدخروا وسعا فى إسعادها.

وإذا كان المؤمنون يدأبون فى صمت بل أعلام يتاجر بالشعارات.

وإذا حظى الكافرون بمن يغالى بأعمالهم من الهتافين المنافقين، فإن ذلك لا ينجى المبطلين من البوار اللاحق بهم لا محالة:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

لن تغنى عنهم شيئا من الغناء ولو كثرت فحجبت الشمس. وهبهم تمتعوا

والهاهم الأمل، فلا قيمة لنعيم يسلمك فى النهاية إلى نار.. أنت صاحبها.. ملازمها.. وقد خلقت من أجلك أنت.. بالذات؟

أفلا يكون الفلاح البسيط فى الحقل.. والعامل الكادح أمام الآلة الدوارة.. أسعد منهم حالا ومآلا؟

ألا إن درهما يشترى به لقمة حلالا يضعها فى فم زوجته.. ليسبق مائة ألف درهم.. تذهب سدى فى دعاية كاذبة.. وتهنئة تجرى بها أنهار الصحف جبنا وتزلفا!

لقد انفض سامر الكافرين.. حين صار ما يملكون هباء.. أمام هجمة ريح باردة لا تدع من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم.. جزاء عادلا.. على ظلمهم لأنفسهم.. يوم حجبتهم النعم فعموا عن الدلائل.. أو عاينوها.. ثم جحدوها.

وهكذا يطلع الفجر الصادق.. وينشر الصبح ضياءه كاشفا عن اختلاف الطبائع.. وتناقض الأهداف.. بين المؤمنين والكافرين:

ذهبت مشرقة وصرت مغربا   شتان بين مشرق ومغرب

وإذن فلا ينبغى أن نتخذ الكافرين مستودع أسرارنا.. حتى لا نقع فى الخبل والخلل إذا فرطنا فى كلمة نملكها اليوم.. ثم نملكها عدونا.. ليجهز بها علينا:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾

وكيف تتخذونهم مستقر أسراركم وهذه آثار فأسهم:

إنهم يبالغون فى التربص بكم ﴿لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾... لا يقصرون فى استجلاب ما يضركم.. من مثل السموم البيضاء والحمراء... يحدثون بها فى قلوبكم وهنا وفى عقولكم خللا لا تصلحون معه لجهاد. فإذا لم يفلحوا.. فقد بقيت الرغبة فى تدميركم مشتعلة: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾

وهذه فلتات ألسنتهم تؤكد حقدهم المقيم.. وليست هذه الفلتات سوى الجزء البادى من جبل الجليد المختفى تحت الأمواج: ﴿ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا

تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

وكما قيل: إن لدى أعداء المسلمين ثوابت لا يغيرونها تجاه المسلمين.. تتفلت بها ألسنتهم.. مهما لحنوا دونها من عذب المقال... وتعتصرها أيديهم.. وإن أثملوا الغافلين منا ظاهرا بطيب المنال.. وتتربع على مفارق جبالهم.. وتتواقع بها أفكارهم. وإن شذبوها بما يسمونه الموضوعية. أو حق تقرير المصير. وما أشبه.. تلكم الثوابت هى: الحقد وتبييت نية السوء. والتعصب المذموم... إذن.. فافتحوا عقولكم أيها المؤمنون.. وافهموا الدرس جيدا.. **﴿ هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ ﴾**.

إن قلب المؤمن مفتوح على الحياة.. والأحياء.. ولأنه قائم على السماحة والسهولة واليسر.. فإنه يحب حتى مناوئيه.. بل إنه ليحب أشد أعدائه.. بينما الأعداء كالعهد بهم يبذلّون دائما فطرة الحقد فيهم! تصوروا: إنكم تحبونهم.. بالإضافة إلى أنكم تؤمنون بكتبهم.. ومع ذلك لا يبادلونكم ولاء بولاء..

بل إنه كلما ربت عاطفة الحب فى صدوركم.. كلما زادتهم سعيرا.. وصار الأمر على ما يقول الشاعر:

إذا محاسنى اللاتى أدل بها كانت عيوبى فقل لى كيف أعتذر؟!

ولأن الموقف هكذا يحرجهم إحراجا.. فهم يحاولون إخفاء حقدهم بإلقاء السلام من طرف اللسان.. بينما القلوب تغلى.. بالغيظ المكتوم:

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ مجرد المس.. يشعل قلوبهم نارا تأكل عافيتهم.. أما فرحهم بالمصيبة.. فلا بقاء له. ولا جدوى منه.. لأنكم بصبركم وتقواكم تحبطون أثره.. فعليكم بالصبر والتقوى.

إن سياسة الصبر أى ضبط النفس فى مواجهة تحرشات أعدائنا. ينهى المعركة لحسابنا.. فلنتعلم.. ألا نثور.. وأن القلب الودود المحب.. حتى لأشد أعدائنا يرد إدعاء قوم يزعمون أن إسلامنا يأمرنا ببغض مخالفينا.

فلنتعلم صناعة الحب.. وليكن ذلك هو الدرس الأول حين يتصدى للتربية

من يحسنها:

[إن المؤمن ليحب المنافق. ويأويه إليه ويرحمه. ولو أن المنافق يقدر من المؤمن على ما يقدر عليه المؤمن منه. لأباد خضراءه].

فلنحب أعدائنا. . فإذا لم نستطع بهذا الود أن نجعلهم أصدقاءنا. . فإننا على الأقل سننجح فى تحييدهم فنتقى شرهم.

أما حبنا للمسلم العاصى. . فذلك أمر مفروغ منه سلفا! فإذا رفضوا حبنا. . فلنحاول أن نغيظهم. . لا بالثوب الأبيض ولكن بالقلب الأبيض. . ثم باليد التى يحبها الله تعالى ورسوله. . تلك اليد التى تخيط لك ثوبك. . وتصنع لك آلتك. . وذلك ما يغيظ الكفار.

وتذكروا واحدا من المواقف التى أغاظ الله بها الكفار يوم أن وقف الرسول ﷺ يهيئ منازل المقاتلين فى أحد. . وكيف حبط كيد الكافرين. بصبركم وتقواكم. . فنصركم فى النهاية. . كما نصركم فى بدر لما استجمعتم أسباب النصر. . فنزلت الملائكة مؤيدين. . ليردوا المعتدين خائبين. . أو تائبين أو معذبين. .

وذلك كله إلى الله تعالى وحده. . فله ملك السموات والأرض. . فأطيعوه. . وانتهُوا عما نهى عنه. . وبخاصة الربا الذىّ أودى بالكفار. .

فهيا إلى استنفار ملكات الخير فيكم مسارعين إلى الجنة. .بالإنفاق. . والتوازن الانفعالى بالعفو. .والعودة إلى الحصن الآمن بالتوبة.

﴿**أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار**﴾.

بما قدمت أيديهم. . وبما وعت قلوبهم من دروس النكسة. . فتعلموا من الفشل الذى صار من بعد طريقا إلى النصر.

﴿هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين. ولا تهنوا ولا تحزنوا﴾.

سورة آل عمران: من قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا ﴾

في الوقت الذي يبدد العابثون طاقاتهم فيما لا يجدى.. يستنهض الحق تعالى همم المؤمنين ليتجهوا بهذه الطاقات المهدرة إلى مجالات الإصلاح الاجتماعي وذلك قوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الذين استحقوا ذلك التكريم بانتصارهم على النفس في معارك ثلاث:

أولا: انتصروا على غريزة التملك بالإنفاق.. إنفاق الكلمة الطيبة.. والخبرة المفيدة.. والمال الأثير.. على ألا يكون ذلك غرفة ماء تطفئ الظمأ ثم تمسك.. بل ليكون ذلك البذل بمعناه الواسع عاطفة سائدة.. كأنما هى العين الحلوة تسرى بالرى دائما.. في السراء والضراء.. وحيثما يدعو إلى البذل داع.. أى داع.

ثانيا: انتصروا على غريزة الغضب بكظم الغيظ حتى لا تنطلق طاقة الانتقام مدمرة.. بل إنهم ليطفئون غليان النفس المكبوت في قلوبهم بقطرات من العفو باردة تعود بالنفس إلى صفائها الأول.. كأن عدوانا لم يكن.

ثالثا: انتصروا على الشيطان الذى ورطهم في المعصية يوما.. فتابوا... وعاد العبد الآبق إلى سيده فغفر له.. بل وأدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار.

وانظر إلى آثار رحمة الله كيف يستقبل التائبين بهذه الحفاوة.. وليتعلم المربون القساة حتى لا يجعلوا من العقاب سوط عذاب يدمر في قلوب المتعلمين بقايا أمل في استئناف الحياة من جديد.

وإذ يُبين الحق تعالى ملامح المتقين فإنه سبحانه يهيب بهم أن يضيفوا إلى هذا الحس البصير علما تجريبيا تصير به التقوى ملكة راسخة. وذلك بالاهتمام بدراسة علم الاجتماع.. وتأمل أحوال الأمم الخالية وعلى الطبيعة استنباطا للعبرة والخبرة..

ووصولا إلى أن لله في النصر والهزيمة سننا لا تتخلف.. فليعلم الناس جميعا ذلك.. وليكن المتقون أعلم الناس بهذه السنن.. لتكون لهم معالم

هدى.. تكشف لهم ما لا ينكشف لأصحاب البصائر المظلمة.. وذلك قوله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

ومن شأن الذين يمارسون التقوى علما.. وعملا ألا يستسلموا للآلام تمتص عافيتهم.. فى الوقت الذى يملكون فيه عدة الانتصار وهى التوحيد..

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

وأى مسوغ للحزن إذا كانوا قد أصابوا منكم فى أحد.. فقد أصبتم منهم فى بدر أضعافا. والأيام دول.. وإذا صابروا الآلام وهم المبطلون.. فأنتم المحقون.. أجدر بمصابرتها بل ومكابرتها بالثبات والحكمة..

ثم إن آلامكم تسلم فى النهاية إلى النصر أو الشهادة.. فأنتم دائما فى الموقف الأفضل.. بينما أعداؤكم يساقون إلى الهوان وإن حققوا النصر الخاطف يوما..

ألا تصبرون على حرب يمحق الله بها الكافرين ويمحص المؤمنين ليخرجوا من تحت السيوف أنصع جوهرا وأقدر على استئناف القتال..

ومما يناقض الإيمان أن تتمنوا دخول الجنة بلا ثمن تدفعونه.. على أن ذلك القتال جاء استجابة لرغبتكم فيه ابتداء.. فكونوا عند حسن الظن بكم حين تلاقونه.

وإذا كان لابد للملاقاة العسكرية من وعى هذهٓ الدروس.. فإن النصر لا يكتمل إلا بالانتصار فى معركة الشائعات التى هى سلاح فى يد أعداء الإسلام..

وقصتها هنا: أن أشاع المغرضون أن محمدا قد مات.. وانتهزها المنافقون فرصة لترويع المؤمنين فقالوا لهم: لو كان محمدا نبيا ما قتل.. ارجعوا إلى إخوانكم ودينكم.

وتصدى للحملة الإعلامية المغرضة أنس بن النضر فقال لإخوانه: إن كان قد قتل محمد. فإن رب محمد حى لا يموت. وما تصنعون بالحياة بعده؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه.. ثم قاتل.. حتى قتل.. ونزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾

وهكذا كان الجندى المسلم ممثلا فى أنس بن النضر: إنه لا يملك الحماس فقط.. وإنما يملك الوعى البصير بنتائج الأمور الكاشفة عن الحرب الإعلامية الخفية.. وبهذا الوعى أنقذ أمته.

إن محمدا بشر يموت.. كما مات الرسل من قبله.. فلم البكاء المستنزف طاقة الأمة؟ والقيادات العظمى تؤدى دورها.. ثم تسلم الراية لمن بعدها لتكمل المسيرة.. والجنود العظام لا يبكون.. ولكنهم يتعلمون من الإنكسار كما يتعلمون من الانتصار.. وتلك مهمتهم الكبرى.. التى تأخذون فيها سمتكم فى طابور المجاهدين عبر الزمان.. فاعتبروا يا أولى الأبصار.

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾

إذا كان العدو قد أصاب منهم شهداء.. فما ينبغى أن يحتل منهم الإرادة فلتبق من بعد صالحة للنزال.. ولم يكن دورهم أن يملأوا الدنيا صياحا وعويلا.. وبحثا عن أسباب النكسة خارج الذات.. وإنما عرفوا الخطأ.. ثم صححوا الوجهة.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

شغلوا أنفسهم بما يفيد ليجددوا اللقاء غدا.. وهم على مستواه عسكريا.. ونفسيا..

على أن واجب المسلمين الأكبر أن يعرفوا مصدر متاعبهم ومشكلاتهم.. إنهم الطابور الخامس الراغب فى خلخلة الصف الإيمانى..

إن الشائعات بضاعة مستوردة.. يروج لها الانهزاميون الطامعون فى ضربكم من الخلف.. فلا تطيعوهم.. **﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾**

ومن قوانين هذا النصر أنه لا يكون من نصيب القاعدين.. وإنما هو أجدر بمن كان أهلا له.. فإذا كنتم على أهبة الاستعداد.. تنزلت عليكم جند الله.. وفى

مقدمتها ما يغرسه الله تعالى فى قلوب الأعداء من الخوف منكم: ﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾

بسبب شركهم. والتجربة شاهدة بصحة هذه الحقيقة: فقد كنتم فى بدر على المستوى المطلوب: توحيدا.. ووحدة.. فانتصرتم عليهم.. وأبطلتم فيهم الإحساس.. ووقفتم فوق جماجم المعتدين ترفعون راية العدل والسلام.. فلما دب إليكم داء الأمم قبلكم.. واختلفتم.. ونسيتم سنن الله تعالى فى المعارك.. رسبتم فى الامتحان.. فلما تداركتم ما فات نجحتم فى دور ثان.. ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أجل.. ذو فضل على المؤمنين.. أمس.. واليوم.. وغدا.. على المؤمنين الذين يمارسون الإيمان علما.. وتجربة.. الذين لا يكتفون بالجهاد عقائر يجأرون بها وهم فى الغرفات آمنون.. لكنهم بالإيمان: يحققون النصر على مطامع أنفسهم أولا.. فإذا حسموا هذه المعركة أصبحوا مؤهلين لخوض المعمعة الكبرى على أرض المعركة.. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

***

سورة آل عمران: من قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [١٥٣ ـ ١٧٥]

فى غزوة أحد.. حين صَدَق المجاهدون ما عاهدوا الله عليه من الثبات.. صدقهم الله وعده بالتأييد.. فأمكنهم من عدوهم الذى أوسعوه قتلا وتشريدا.. فلما فترت منهم العزائم وأقبلوا على الغنائم. وكلهم تعالى إلى أنفسهم فانهزموا ثم ولوا مدبرين.. وذلك قوله تعالى:

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ ﴾ ح فها أنتم أولاء تبعدون فى الأرض هاربين بعد أن كف الله أيديكم عنهم.. بينما الرسول يناديكم أن تعودوا.. وكان ولابد من جزاء: ﴿فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ﴾ كفاء ما سقتم إليه ﷺ من غم بمخالفتكم أمره.

وهنا ندرك فلسفة العقوبة فى الإسلام: فهى من جنس العمل.. عدلا.. ثم هى فورية.. وقبل أن يبرد الإحساس بالمعصية.

كما وأنها ليست تشفيا يدمر العاصى ويلغى فرص عودته إلى الصف الإسلامى تائبا.. وإنما هو تدريب.. ومحنة تتحول إلى منحة يعود العاصى بعدها أحسن مما كان: ﴿لِّكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ ﴾

ثم يجىء الفضل السابغ: أمنا.. فنعاسا.. يستروح المؤمنون به برد السلوى.. أما ضعاف الإيمان.. فلم يبق لهم الهلع فرصة للأمان:

لقد غرقوا فى الهموم إلى آذانهم.. وظنوا بالله سبحانه ظن السوء..

وترجموا هذا الظن بقولهم: أين النصر الموعود؟ وهل لنا منه نصيب؟

وإنما الأمر كله لله.. فألزمهم هذه الحقيقة.. مدركا ما يخفونه من وسواس يزين لهم أنهم لو قعدوا.. ما قتلوا.. مع أنهم لو تخلفوا فى بيوتهم لبرز من كتب عليه القتل فإذا هو جثة فى مضجعه حيث قدر له أن يموت.. وكان ذلك منه تعالى امتحانا.. وتمحيصا تقوى به الإرادة.. وتنكشف الرغوة العائمة.. ليعلم

الله الذين صدقوا ويعلم الكاذبين.

ومن بنود هذا الامتحان تنبيه المؤمنين إلى مصادر الهزيمة ليتلافوها حتى لا تتكرر المأساة: فما حدث من فرار.. فإنما هو من الشيطان الذى طلب زلتهم فأطاعوه.. فى لحظة ضعف ينتهزها الشيطان ليضرب ضربته والحديد ساخن..

ولقد فوت الله تعالى على الشيطان كيده بالعفو.. فكونوا أهلا لذلك العفو بالاستمرار فى ردع هذا العدو ورد كيده.. ثم بالوعى بما يزحف به جنود الشيطان من ظنهم: أن إخوانهم لو أطاعوهم وقعدوا فلم يسافروا.. ونكصوا فلم يغزوا.. ما قتلوا... فلا ترفعوا مثلهم هذا الشعار ثباتا وتوكلا على الله.. ليكون ذلك التوكل حسرة فى قلوبهم إن لم تكونوا مثلهم جزعين..

إن أعداء الإسلام يحاولون تصدير شعارات الهزيمة إلى قلب أمتنا. فإذا صابرناهم.. بل وكابرناهم صامدين.. كان ذلك أقسى فى مشاعرهم من كل مصائب الدنيا. واعلموا أن الموت والحياة بيده سبحانه.. وقد يميت من غير سفر ولا غزو..

ورب صحيح مات من غير علة ورب مريض عاش حينا من الدهر

وعلى فرض أنكم قتلتم.. فما تنالونه من رحمة الله خير من الدنيا وما فيها بالإضافة إلى أن سقوط الشهيد على أرض المعركة خيرٌ من موت على الفراش كما يموت البعير!.. والموعد الجنة غدا.

وحين يطوى السياق هذه الصفحة يطالعنا بما يعين على ردع الشيطان بما من به من رحمة مهداة: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾

فكان ما كان من تماسك الجيش.. وعودة الروح إليه.. وإلا فلو كنت فظا.. جافيا.. قاسيا لانفضوا من حولك.. فاستمر فى تربيتك الإيمانية. عفوا منك.. وطلبا للمغفرة.. جاعلا منهم شركاء فى صنع القرار بالشورى.. فإذا عزمت فامض بلا تردد... ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ المؤمنين بأن الله إذا نصرهم فلا غالب لهم.. وإذا تخلى عنهم فلا ناصر لهم.. وما دامت ثمرة التوكل هكذا

حلوة المذاق فعلى الله ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾. . . وإذا تفتحت منكم الأبصار على أسلحة العدو ترصدكم. . لتحصدكم فافتحوا أبصاركم على معركته النفسية التى يشنها خاصة على القيادة العليا فى شخص نبيكم. .

لقد تحدثت الشائعات عن خيانة فى الغنيمة. . ثم حامت حول الرسول ومنطق العقل البسيط البليغ يهتف: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ﴾.

نبوة. . وخيانة؟ مستحيل!! مستحيل استواء من اتبع رضوان الله فسلم. . ومن اتبع هواه فباء بسخط من الله. . ومأواه جهنم. وكل إناء ينضح بما فيه.

إن شائعات العدو مهما عبأت الجو بسحابات قاتمة. . فسوف تنحسر الغشاوة عن الفجر الصادق. . عن مصدر الخير والبر. . والنعمة الكبرى. . محمد ﷺ:

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾.

والذين عاشوا فى الضلال. . وهاموا فى شعابه هم أشد الناس إدراكا لعظم هذه النعمة. . نعمة الرسالة. . وأشد الناس إحساسا بالضوء من كان فى حجرة دامسة الظلام.

لقد كنتم بالأمس فى ضلال مبين. . وربما كان لكم عذر لو لم تحسنوا إدراك الأسباب والنتائج. . أما والنور طالع. . أما فى الصحوة الكبرى. . فلا عذر لكم. . فأحسنوا قراءة الواقع بمقدماته ونتائجه: ﴿ أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هذا﴾

لا تبحثوا عن الأسباب خارج الذات. . فأنتم السبب. . ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُم ﴾

نعيب زماننا والعيب فينا ... وما لزماننا عيب سوانا

على أن ما حدث كان درسا ينبغى استثماره لحساب الحق ﴿وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ هؤلاء الانهزاميون الذين دعوا إلى القتال فاعتذروا بأنهم لو كانت هناك معركة حقيقية ما تخلفوا عنها. . شاهدين على أنفسهم بالكفر. . ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ ما لا يقتنعون به. .

ومن جملة ما قالوه عن الذين قتلوا من إخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾

يقولون ذلك بينما أسباب الموت تطل عليهم من كل أفق ولا يستطيعون لها دفعا.. إنهم أموات.. ولو كان لهم دبيب على الأرض.. وجثث تزحم الفضاء.. نراهم.. ونحس بهم..

أما المؤمنون فهم أحياء.. وإن ذهبوا خلف أسوار الحياة شهداء.. فرحين بما آتاهم ربهم.. وبما أعد للمقاتلين الأحياء على خط النار من مثل ما هم فيه من نعيم مقيم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾

ذلك بما قدمت أيديهم: من استجابة لله والرسول. فى أصعب الظروف بينما جراحهم تنزف دما.. وفوق هذا.. بهذا الثبات الذى تميزوا به: فقد خوفهم الناس بقوة العدو.. فلم يضعفوا.. بل لم يكتفوا بمجرد الثبات.. لكنهم ازدادوا إيمانا فى دوامة الخطر.. فكانوا جديرين بهذه النعمة الكبرى: ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾.. ومن سار على الدرب وصل.

سورة النساء
من الآية [٨٣: ١٠٠]

ضمن حملة القرآن الرامية إلى كشف ألاعيب المنافقين وَمَنْ احتطب فى حبلهم من ضعاف الإيمان. . تشير الآية الكريمة إلى ما كان منهم من تَسَرُّع فى إذاعة أنباء السرايا. . . فربما بَالَغُوا فى تصوير الانتصار مبالغة قد تزيّن للمسلمين الاسترخاء والقعودَ عن الاستعداد. . وربما ضَخَّموا من آثار الهزيمة فيكونُ الفزع. . أو الانهيار. . ولاحظ من تسرعهم أنهم لم يذيعوه فقط. . وإنما جعلوه إذاعة: ﴿أذاعو به﴾ هذا هو الكائن. . فماذا عَمَّا ينبغى أن يكون؟ أمس وغداً؟

أن يردوا الأمر إلى القيادة المؤمنة. . ممثلة فى العلماء. . ففى ضوء تجاربهم تمضون. . ثم فى الأمراء. . الذين ينفذون ما انتهت إليه التجاريب. . ولقد كان من فضل الله تعالى أنْ أَحْبَط كيدَ شياطين الإنس والجن. . الذين ما فتئوا يمكرون بكم. .

وإذْ تُسفر الأحداث عن خبيئة القوم هكذا. . فلا تغفلُ يا محمد عن سلاحك. . وكن أبدا مستعدا. . وقاتِل فى سبيل الله. . غَيْرَ مسئول إلا عن نفسك. . مع بقاء حق المؤمنين فى تحريضك لهم. . كن مستعدا للقتال. . ولو لم يكن فى الساحة إلا أنت وحدك. . مستشعرا والمؤمنون معك ـ أن الله معك. . فالعاقبة لك. . لأنه تعالى أشد بأسا وأشد تنكيلا. . وإذْ يتنادى الأعداء بالويل والثبور. . فى تعاون على الإثم والعدوان. . فاستمروا راشدين متعاونين على البر والتقوى. . والمستقبل لكم. .

فمن يشفع شفاعة حسنة مُعِينًا غيْرَه على طاعته تعالى. . فسوف يلقى جزاء تلك الشفاعة الحسنة. . فى الوقت الذى يسقط المعتدون فى الحفرة التى حفروها. . لقد مكروا. . ومكر الله. . والله خير الماكرين. .

وهذه المعركة الدائرة بين المُحقِّين والمبطلين. . وإن فَرَضَتْ علينا المواجهة الساخنة. فعليكم أن تظلوا من الإنسانية فى مكانها العالى. . فلا تتخَلّوا عنها. .

حتى فى معمعان المعركة الطحون. فَمَنْ حياكم بتحية فَحيُّوه بأحسنَ منها.. أو على الأقل: ردوها.. وهى فى رصيدكم عملا صالحا.. عند من لا تضيع عنده الودائع سبحانه: ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾

أجل.. لا أحدَ أصدقُ منه سبحانه وتعالى... وقد حدَّثكم عن بناء الرِّيبة.. بناء المنافقين.. هذا البناء الذى ترنَّح.. بل تهاوى..بالقوة.. وغدا بالفعل..

لقد شهد الماكرون على أنفسهم بالفشل.. وتَفَرَّقَ سدنة النفاق.. بعد أن هُدِمَ المعبد على رءوسهم.. بل إنه ليسقط اليوم.. سقوطا من شأنه إنشاءُ اليقين بقدرة الله تعالى.. وزيف الدعاية التى خُدِعْنَا بها طويلا.. ثم صارت اليوم جزاء وبيلا.

وإذن.. فمن الغفلة أن نختلف فريقين.. فئتين. إزاء قضية حُسمت.. وبَانَ بالفعل عَوارها ارتكاسا.. وهوانا.. شاهدا باستحالة هدايتهم بعد ما شاء تعالى إضلالهم.. فاحتَفِظوا بطاقاتكم.. لا تبددوها فى قضية انتهى أمرها.. واشغلوا أنفسكم بأهمَّ من ذلك وهو: ماذا يريد الأعداء بنا.. لنقطع عليهم الطريق؟ وتلك هى القضية: ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ﴾..

إنهم لا يودون.. بالمضارع.. بل إنهم.. ودوا..لقد اتخذوا القرار فعلا ورصدُوا لتحقيقه كل إمكاناتهم.. إنهم بذلوا فطرة العدوان فيهم.. فما هو واجبكم؟

واجبكم: لا تتخذوا منهم أولياء:

أ ـ لا تأمنوهم على مصالحكم ليديروها نيابة عنكم.

ب ـ ولا تلجأوا إليهم طالبين نصرتهم فى الْمُلِمَّات.. إلا إذا نجحوا فى امتحان الكفاح فهاجروا فى سبيل الله..

فإن لم يفعلوا.. فخذوهم.. كونوا من القوة والمنعة بحيث لا تقاتلونهم

فقط.. وإنما كونوا ذلك الإعصار الذى يكنُسُهم كنسا فلا يَبْقَى لهم أثر.. ولا تتخذوا منهم وليًا.. ولو واحدا.. فكُلهم أروغ من ثعلب!

وهكذا يظل الإسلام فاتحا باب العودة إلى الله بشروطه من الإيمان والعمل الصالح.. إنه دين سلام: لا يريد أن يُخضِّب وجه الحياة بالدماء..

كما وأنه فى نفس الوقت يقظ.. يَرفُضُ أن يخدعه أحد! وإذْ يعلن الغارةَ الشعواء على المعاندين المرَدَة.. فإنه يستثنى من ذلك المصير طوائف.. تقديرا لظروفها على نحو يؤكد واقعية الإسلام.. وإنسانيته أيضا:

١ ـ يستثنى مَنْ عاهَد قومًا عاهدتموهم..

٢ ـ والذين حَصِرت صدورُهم.. احتاروا بين عقولهم وقلوبهم...

فهم بحكم إسلامهم.. يمنعهم التعقل من قتالكم.. وهم بحكم الدم المشترك بينهم وبين أقاربهم المشركين،تمنعهم قلوبهم من محاربتهم..

٣ ـ وفريق مذبذب: يؤمن.. إذا كان معكم.. ثم يعود كافرا إذا انتهى إلى قومه.. هذا حكم الله.. شريطة أن يعتزلوكم. ولا يقاتلوكم.. وإلا.. فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم..

وهكذا يوسع الإسلام دائرة العفو.. ولا يأخذ المجرم بجيرانه.. وإنما هى الموضوعية.. والواقعية.. وعدمُ التسوية بين معاند مشاكس.. ومن يُرجى منه الإسلام.. أو يرجى تحييده.. على الأقل.

وهذا هو شأن المسلم يحمل سلاحه مستعدا.. فى مواجهة عدوٍّ كافر يتربص به الدوائر.. عدوٌّ هو أوْلى بالقتل.. دفاعا عن النفس..

أمَّا أن يكون هذا السلاح.. أما أن تكون الرصاصة فى صدرِ مؤمن.. فهو ما لا يُتَصورَّ بحال: لا يُتصور أن يتعمد عبدُ الله قتل أخيه عبدِ الرحمن لأنه لا يُتَصوَّر أن يقتل المؤمن نفسه.. والمُتَصَوَّر إن كان قتل أن يكون على سبيل الخطأ.. فإنْ حدث ووقع فما هو الحكم:

١ ـ إن كان المقتول خطأ.. مؤمنا.. فالواجب: تحرير رقبة مؤمنة.. تُولَدُ

بالحرية من جديد.. بديلاً عن هذا الفقيد.. وذلك حق المجتمع.

ثم.. ديةٌ مسلمة إلى أهله جبْراً لخاطرهم.. وتعويضا عن كسبه الذى توقف بموته.. إلاّ إذا تصدق أهل القتيل.. بمحض اختيارهم.. فذلك شأنُهم إحسانٌ منهم يحرِّضهم السياق عليه حين جعله صدقة.. يُثابون عليها. وقَدَّمَ التحرير هنا ارتفاعا بهمة المؤمنين ليَبْدأوا بما يحقق مصلحة عامة تتجاوز فى آثارها مجرد الدِّية...

أما إذا كان القتيل من قوم عدوّ.. وهو مؤمن: فتحرير رقبة مؤمنة.. تتسع بها دائرة الحرية فى المجتمع المسلم ولا دية هنا يتقوّى بها الخصْم علينا.

أما إذا كان من قوم بيننا وبينهم ميثاق: فدية مسلمة إلى أهله.. احترامًا للميثاق..

ويجىء تحرير الرقبة هذه المرة متأخِّرًا عن الدية.. لأنه لا يُهم الكافرين إلا الديةُ يأخذونها.. أما التحرير فلا يعنيهم.. ومن ثم يأخذ التحريرُ المرتبة التالية.. لأنه فى رصيدنا نحن المؤمنين. فمن لم يجد فصيام شهرين.. ومتتابعين.. عنوانا لتوْبة نصوح.. هذا هو جزاء القتل الخطأ.

أما من قَتَل مؤمنا متعمِّدا.. فكُلُّ جزاء دنيوى فهُو أقل منه..

إنّ حجم الجريمة هنا يفرض إحالتها برمتها إلى القادر سبحانه ليعاقب مرتكبها بأهوال لا تخطر على البال..

وإذا كان ذلك التهديد الرعيب.. حفاظا على النفس أن تذهب بَدَدًا.. فإن السياق يلاحق المسلم بالترشيد حتى لا يزل فى ظروف قد تورطه فى العدوان على هذه النفس.. وفى بلاد قد لا يتبين فيها الحقّ جَليًا وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾..

يحملكم على التثبت.. أنكم كنتم من قبلُ كذلك.. ضالين.. فمَنَّ الله عليكم بالإيمان.. فأعطُوا الفرصة للآخرين حتى يصيروا إلى ما صرتم إليه.

وحتى تظل روح الجهاد هذه متوهجةً فى ضمير الأمة تَنفِى الآية التاليةُ استواء القاعدين والمجاهدين.. باستثناء أصحاب الأعذار الذين يحتفظون بحقهم فى الفضل مع تفوق المجاهدين: ﴿ **درجات منه ومغفرة ورحمة**﴾

إلا الذين ظلموا أنفسهم بالقعود مع الخوالف مستضعفين.. وجزاؤهم: هذا العتاب المرُّ من الملائكة.. ثم جهنمُ وساءت مصيرا..

لماذا؟ لأنهم بإيمانهم أقوياء.. لكنهم مُستَضعفون يطلبون ضعفا.. ليس من طبعهم.. إلا المستضعفين.. من الرجال.. والنساء.. ولعل تقديم الرجال لأن تكاليف الرجولة تجعل الإحساس بالحرج شديدا. ومن ثم فهم أحرى بعفونا..

ويبقى باب الهجرة مفتوحا.. أمام هؤلاء المستضعفين.. فإن عاشوا بعدها.. عاشوا كرماء .. وإن ماتوا.. فمَنْ يَمُت ﴿ **فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّه**﴾.

حين يتقلب المسلم فى فجاج الأرض.. فإن تقلبه ليس سَفَراً قاصدا.. ليس نزهة.. ولا سياحة ترفيهية.. وإنما هو يضرب فى الأرض.. مع إخوة له فى العقيدة. إنهم يضربون فى الأرض بكل ما فى الضرب من: حيوية.. وحركة.. وتدفق.

وإذا كانت طهارة الطاهرين حربا عليهم من قِبَل أنجاسٍ من الناس الذين يكرهونهم لأنهم يتطهرون.. فإن مشهد المؤمنين ذلك العظيم.. سوف يُحنِقُ الكفارَ عليهم فيُدبِّرون لهم المؤامرات إزاحةً لمشهدِ القوة التى لا يطيقون.. وواجبُ المؤمنين هو الحذر.. الذى أعانهم الرحمن تعالى عليه بما مَنَّ عليهم من قَصْر الصلاة تفويتا لأغراض أعداءِ الداء:

وهكذا المؤمن دائما: ينام بإحدى مقلتيه ويتقى بأخرى المنايا.. فهو يقظان نائم... هذا فى حال الخوف.. فإذا برز العدو.. فعلى القائد الأعلى أن يرفع درجة الاستعداد إلى أقصاها.. لينقسم الجيش إلى قسمين:

قسم تجاه العدو.. وقسم يصلى ركعةً مع القائد. ويقف الإمام مكانه. فيُتمون ركعة ويسلمون.. ثم يقفون تجاه العدو.. ثم يأتى القسم الثانى ليفعل مثلما فعلوا.

ولاحظ أن السياق يقول عن القسم الأول: ﴿**وليأخذوا أسلحتهم**﴾.. وعن الفرقة الثانية يزيد فيقول: ﴿**وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم**﴾..

ولعل ضرورة الحذر هنا.. لحساسية اللحظة التى يتبادل فيها المجاهدون المواقع.. وما قد ينشأ عن ذلك من ربكة لحظة التسليم والتسلم.. قد ينتهزها العدو فيضرب ضربته.. وهكذا يفعلون فى الحروب الحديثة.. وليكن ذلك الحذر من عزم الأمور تحديًا لأعداء تغلى أفئدتهم بالغيظ الذى لن يطفئه إلا أن يَنْقَضُّوا عليكم بكل ثقلهم.. فيميلوا عليكم ميلة واحدة.. فخذوا حذركم.. مستمدين قوتكم من ذكر الله: من صلاتكم.. من صِلَتِكم بالقوىِّ سبحانه.. متقبِّلين هديةَ

التيسير بالتنازل عن بعض شروط الصلاة.. من أجل الهدف الأكبر.. وليت الدعاة من قومى يعلمون.. فيتجاوزون - مرحليا على الأقل - عن بعض الهنات.. وصولا إلى وَحْدَة تجمع الشتات.

واعلموا أن الاستعداد قَدَرُكم.. يوم أن تحمَّلتم مسئولية الإيمان.. فلْتَبْقَ الأيدى مشدودة على الزناد آخذة وضع الاستعداد.. يُحرضكم على ذلك:

أن أعداءكم لا يفتأون.. يفتِلونِ لكم الحبلِ.. ليشُلُّوا حركتكم.. فلا تُمكِّنوهم من أنفسكم.. بل تعقَّبوهم.. وأرُوهم دائما من أنفسكم قوةً تُرهبون بها عدو الله وعدوكم.. وقد تطول غمرات القتال.. فليكن.. لكن الذى لا يكون أن يَدِبَّ إليكم الوَهَن فى طلبهم..

هكذا يقرر الواقع.. والعقيدة معا: **﴿إنْ يمسسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله﴾**. ولابد من الدماء والضحايا فى معارك المصير.. وعلى الجبهتين على سواء..

وحتى لو تَحمَّلتُّم أضعافهم من مغارم الكفاح.. فقد بَقِيَتْ كفَّتهم الراجحة بالعقيدة التى تجعل وجودكم ممتدا فى المستقبل - دون الماديين المحصورين بالدنيا - وغدا يجيء العِوَض سخيا.. ثوابا من عند الله..

هذا عن المعركة الساخنة على جبهة القتال؟ فماذا عن الجبهة الداخلية وما يحيكُ فيها الحاقدون من مؤامرات يستهدفون بها التضليل.. وإلصاق التهم بالأبرياء؟.. إن الانتصار هنا.. لا يقل عن الانتصار هناك.. فحاكمهم إلى كتاب الله.. احكم بما أراك الله.. لا بما رأيت.. ولا تُطع كل حلاَّف متآمر.. لا تدافع عنه.. والحقُّ أحق أن يتبع.. حتى ولو كان طرفا القضية: أنصاريا.. ويهوديا..

فليتحمل الأنصارىّ.. المتسربُ إلى الجبهة المؤمنة القَوِية.. ليتحملْ مسئوليةَ تهمةٍ أُدين بها..

ويا لهذا الدين العظيم الذى يطبِّق شريعة العدل.. العدلِ المطلق حين أُريدَ إلصاقُ تهمة سرقةٍ بيهودى لحساب أنْصَارى.. فَيَخرجُ اليهودىَ بريئا.. مكفولَ الحق.. فى أمَّة تعرُف الحق فيعز عليها أن تراه مهضوما..

فلتُعلِنْ عظمة الإسلام بهذا الاتِّباع الصارم له.. وَدَعْك من الذين يُدَلِّلُون الخُوَّان.. مدافعين عنهم.. غافلين عن لحظة رهيبة.. غداً بين يدى الله تعالى.. يوم تخرَس الألسنة.. فلا كلام.. ولا ملام.. وإنما تكون العظمة حينئذ للعليم.. الحكيم.. الذى يَجزِى كلَّ نفس بما كسبت.

وإذ ينال المجرم جزاءه العادل يومئذ.. فإن أشد الجزاء واقع بمن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به برئياً.

وما أكثر الذين يُضيفُون من حساباتهم الآثمة إلى الأصفياء الأبرياء.. إرادة هزِّ صورتهم.. وتعكير سيرتهم.. فيبدأون بذلك حربًا: يعرفون بدايتها.. لكنهم لا يعرفون نهايتها.. تلك النهاية التى يُعَلِّمُنا الله تعالى إياها وهى: أن المظلومين فى ظلالٍ من فضل الله تعالى.. والذى يكتبُ النهاية للتقوى.. فالعاقبة للتقوى.. ومتى؟ فى اللحظة التى يُحس فيها الحاقدون خطأً أن الزمن معهم..

﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ ﴾.

ومع سطوع حقيقة أنهم ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ لكن الأوهام قد تُزيِّن لهم أنهم على شىء.. بما يُؤلِّفُون.. وما ينشرون ويحاضرون.. مع أن الأمر بالعكس:

فلا حيز فى كثير من نجواهم.. وإذا كان لديهم النزرُ اليسيرُ من الأعمال النافعة.. فإنما هى الرشوة يقدمونها تمريرا لما يريدون من كيد مبيَّت.. والخير كلُّ الخير فيما تقدِّمونه أنتم: من خير مادى.. هو الصَّدقة.. وخيرٍ معنوى هو المعروف.. ثم إزالة الأشواك من الطريق وهو الإصلاح بين الناس..

﴿ ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾

ومن ساء اختياره.. فانتكس من بَعْدِ ما تبين له الهدى.. فهو وما اختار لنفسه.. ومصيرُه إلى النار..

ومع ذلك فالعودة إلى الله تعالى ممكنةُ متى خَلَصت النوايا.. وكانت التوبة

نصوحا.. ومهما كانت الذنوب فالله غفور رحيم.. إلا أن يكون الذنب مشركا فالله تعالى لا يغفره.. لأن الشرك ظلم عظيم..

وكيف لا يكون ظلما عظيما والمشرك يمتهنُ رجولتَه حين يَعبُدُ أنثى.. ثم يمسخ فطرته حين يتّبع شيطانا مريدا؟!! ملعونا؟! أخذَ على نفسه عهدا موثقا بأغلظ الأيمان أن يدمّر حياة الإنسان:

يُضلهم.. بالأمانى: بضاعةِ الحمقى.. آمرا لهم بالانحراف عن جادة الصواب.. إزاء ما يدعوهم إليه الحق من الهدى والرشاد.. والنتيجةُ معروفة سلفا: ﴿ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا﴾

وكيف.. لا.. وبضاعته: الغرورُ.. فى الدنيا.. والحَرُورُ.. فى الآخرة.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً﴾

لا أحد أصدق منّ الله سبحانه وتعالى وقد قال عز وجل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً﴾.

إن لله تعالى سننا فى الاجتماع ماضيةً على رقاب العباد لا تتخلف ومنها أنه: ليس للإنسان إلا ما سعى.. والأمانى العِذابُ لن تكون طريقا إلى الجنة أبدا.. وسُنَّتُه تعالى لن تحابىَ أمة لزرقة عيونها.. أو لضخامة أرصدتها.. وليس هناك: ﴿أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾.

ذلك الذى يستدبرُ شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرُورا.. يستدبرهم ليُسْلمَ وجهه لله تعالى إسلاما له ما يسوغه. فـ ﴿لله مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً﴾ وذلك دأب المسلم دائما:

وأسلمت وجهى لمن أسلَمَتْ   له المزن.. تحمل عذبا زلالا

واسلمت وجهى لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرا ثقـالا

ومن حق الله سبحانه.. المتفرد بالملك. المحيط بكل شىء من حقه تعالى علينا أن نُطيعه فيما أمر: تقديرا لتفرده فى مُلكه.. وحذرَ الوقوع فيما يُسجِّله علينا.. وفى طليعة ما يجب الالتزام به: الإحسانُ إلى اليتامى.. ويتامى النساء بخاصة: جبراً لخاطرهن..

أما بعدُ: فنعود على بدء متأملين لنخرج بالتأمل من مجموع الآيات المتلوة بأسلوب فريد من أساليب الدعوة حيث جمعت الآيات بين: الوعد والوعيد. والأحكام. إلى الآيات الدالة على كبرياء الله تعالى وجلاله فى مزيج هو درس للدعاة اليوم ليُنَوِّعوا فى أساليب العرض.. فالناس لا يصبرون على طعام واحد.. إن الأحكام تكاليف.. فهى شاقة.. ولن تهون المشاق إلا بالوعد والوعيد.. ولن يؤثر الوعد والوعيد إلا فيمن اعتقد كمال من صدر عنه الوعد والوعيد وسبحان من هذا كلامه.

سورة الأنعام: من قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَضَلَّ عَنكُم﴾ [٧٤ ـ ٩٤]

تحكى سورة الأنعام جانبا من قصة إبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ الآيات.

لقد كان إبراهيم عليه السلام يحب أباه ويحب الحق.. لكن الحق كان أعز عليه منه.. فلما تعارضت العواطف كان ولاؤه للحق وحده..

وها هو ذا عليه السلام ينحى العواطف جانبا ناعيا على أبيه ضلاله قائلا: ﴿أَتَتَّخِذ﴾... أتفتعل أمرا يعاكس فطرتك المتجهة إلى الحق أساسا.. ثم يكون هذا الأمر حجرا تمنحه ولاءك.. ولو كان هذا الحجر زاوية فى جدار بيتك لكان الموقف مفهوما.. أما أن تتّخذه إلها.. فهذا هو الضلال.. الذى أنت منه فى القاع.

وكما تبين لإبراهيم ضلال أبيه توفيقا منه سبحانه.. فقد ظل التوفيق حليفه حين تأمل مشاهد الكون حوله آخذا بيد قومه إلى اليقين... فانتقل من الكون إلى المكون سبحانه وتعالى..

ولقد كان موقفه فى استدلاله مرتكزا على قواعد منها:

١ ـ التعامل معه على سنة التدرج تقديرا لعادة مستحكمة.. لا تنزع بالقوة.

٢ ـ مجاراة الخصم فى دعواه الباطلة.. استدراجا.

٣ ـ عدم الدخول معه فى صدام مباشر يفسد الخطة المقررة.

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ افتراضا... فلما غاب النجم أعلن أنه لا يحب الغائبين.. فالإله الحق حاضر لا يغيب..

وانظر كيف قال: لا أحب.. ولم يقل لا أعبد..وكيف ذكر الآفلين ولم يذكر له هذا الكوكب بالذات.. سياسة منه عليه السلام حتى لا يكون صدام..

وإنما هو الحديث الذى يدور حوله القضية ولا يحسمها.. قبل أن يجىء ميقات الحسم.

فلما انتقل من الكوكب إلى القمر ورآه قد أفل.. كان منطقه أكثر.. صراحة ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾.

إن نسبة الحيرة هنا تزداد.. والشوق إلى الحق المنشود يؤرق فؤاده... وطيف الضلال يدف من حوله فى ضباب تصعب معه الرؤية الكاشفة.. ونلاحظ أن الداعية هنا يجعل القضية شخصية.. فهو يتحدث عن هدايته هو.. وعن خوف الضلال.. ضلال نفسه بالذات.. دون تعرض لقومه.. لكن الكلام فيه رائحة السخرية من قومه الغارقين فى الضلال.. وهى سخرية.. لم يعلنها.. وإنما يدسها فى الحديث دسا يحمل كل ضال على أن يتحسس فى رأسه جرحه بنفسه.

ونلاحظ أيضا أن الداعية لم يتحدث عن الضلال بادئ الأمر وعند رؤيته للكوكب الآفل.. بل أرجأ الحديث عنه إلى مرحلة تالية.. عند رؤية القمر.. وبعد أن تكون نفوس المدعوين قد استعدت لمناقشة الضلال الذى بدت نذره فى الأفق البعيد.

ويضرب الداعية ضربته الأخيرة حين افترض ألوهية الشمس.. وهى أكبر حجما.. وأشد حرارة.. فلما أفلت.. كان إعلان" براءته من شركهم قرارا مسبوقا بمقدماته.. ولئن أخرس العناد ألسنة القوم فلم يعلنوه.. فقد تكفل عليه السلام بإعلانه على الملأ: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

وكان طبيعيا أن يفرد شراعه ويمضى فى الاتجاه الصحيح: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾.

ومن عادة الباطل أن يشغب على الحق بعد ظهوره.. وها هم أولاء قومه يهرعون إليه يجادلونه فى الحق بعد ما تبين.. ثم يخوفونه بما لا يخاف من أصنامهم.. ولكن المنطق البسيط البليغ يرد عليهم ظنونهم لتخرج حجة الحق واضحة من خلال الغبار الذى أثاره الفارغون:

لقد هدانى الله.. ووقفت بى الأقدار على شاطئ اليقين.. وأنا من اليقين

فى قرار مكين. . ثم كيف أخاف أصناما لا تنفع ولا تضر. . ولا تخافون أنتم الله تعالى وهو النافع الضار؟

أى الفريقين أولى بالأمن؟ لا شك أنهم المؤمنون. . وعندئذ. . تبخترت حجة إبراهيم إيضاحا. . بقدر ما تضاءلت شبهة الباطل افتضاحا.

وكان من تكريم الله له أن بارك فى ذريته الذين عمروا الحياة من بعده. . عمروها بالإيمان الذى استقر بهم فوق القمم العالية. . ولو أشركوا ـ على جلالة أقدارهم ـ لما أغنى عنهم من الله شىء. . لكنهم ظلوا منارات هدى. . بما منحهم الله تعالى من عناصر الخلود. . وإذا لم يفهم المعاندون الدرس وأصروا واستكبروا استكبارا. . فسوف يذهب الله تعالى بهم ويأتى بقوم آخرين. . ويبقى هؤلاء الأنبياء أعلام هدى بترسيم الأجيال خطاهم نحو الكمال.

لكن المشركين المناوئين لم يكونوا وحدهم على الساحة. . فهؤلاء هم اليهود يتنادون معهم بالشغب وإثارة الغبار. . بمثل قولهم: **﴿ما أنزل الله على بشر من شىء﴾**

ولو غير اليهود قالها. . لكان لهم بعض العذر. . لكن اليهود يعلمون أن الله تعالى أنزل على موسى ـ وهو بشر ـ كتابا فماذا يقولون؟

لا يهمنا الجواب فهو معروف. . ولكن يهمنا أنهم يخفون بهذا الهراء علتهم الحقيقية والتى سولت لهم إخفاء بعض الحقائق من كتابهم. .

فدع هؤلاء المعاندين يلعبون مع الصبيان. . وأعلن الجواب الذى لا جواب سواه: أنزله الله. .

وامنح طاقتك لهذا القرآن المبارك المهيمن على كل كتاب. . كما أنك به مهيمن على كل دين. . ولا ينتفع بهذا الكتاب إلا المؤمنون.

ولا ينتهى الحديث حتى يسجل السياق أكبر الظلم على هؤلاء الذين وقفوا من القرآن. . ومن الرسول هذا الموقف العجيب بعدما تبين لهم أنه الحق:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾

كمسيلمة الذى ادعى النبوة.. ﴿أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾: كعبد الله ابن سعد.. لقد فقدوا بهذا الجدل الفارغ أهلية الخطاب.. ولا يناسبهم إلا العذاب.. الذى سوف يحتويهم وهم فى سكرات الموت يطالبون بإخراج أرواحهم بأنفسهم فى حضرة الملائكة الذين يستحثونهم ليخرجوها..

وما فى هذا الموقف من هوان جزاء افترائهم واستكبارهم. وما أشدها من لحظة تلك التى يساقون منها إلى الله تعالى فرادى.. بعد أن خلفوا من ورائهم دنياهم.. وبلا نَصير يدفع عنهم كما كانوا يزعمون.. لقد تقطعت الأسباب الواهية.. وضاع الأمل الكذوب.

سورة الأنعام: من قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [١١١ ـ ١٣٢]

تفتتح الآيات بالحديث عن قوم بلغوا فى العناد درجة التشبع.. إلى حد أنه تعالى لو أنزل عليهم الملائكة ـ كما اقترحوا ـ وبعث الموتى من آبائهم فشهدوا جميعا بصدق الرسالة.. وزادهم على ذلك فجاءهم سبحانه بكل شىء يحدثهم شخصيا بحقيقة ما يُدْعون إليه ما آمنوا.. إلا أن يشاء الله إيمانهم.. ولكن أكثر الناس محجوبون عن هذا الحقيقة... وعلى المؤمنين أن يعوها.. وأن يعوا كذلك حقيقة أخرى وهى: أن سنة الله تعالى جرت بجعل عدو لكل نبى ابتلاء تظهر به معادن الرجال:

وهؤلاء الأعداء حلقة فى هذه السلسلة ولا يزالون يمكرون بالدعوة ـ فى إطار من مشيئته سبحانه ـ فيشجع بعضهم بعضا على العدوان بالقول المعسول الخداع.. فى جبهة واحدة تتنادى بالإثم.. ﴿ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ فبأنفسهم يمكرون.

ولكن لا تسقطهم من حسابك بالمرة.. فإن لهم مدرسة وللمدرسة خطة يفرض عليك احتواؤها:

وإذا فرض على الدعاة المخلصين أن يكونوا قافلة تمضى ولا يضيرها عواء الذئاب.. فإن الحذر قاض بالتصدى لخطتهم الماكرة بالحكمة:

إنهم يمكرون.. لتصغى.. لتميل إليهم قلوب الفارغين من الإيمان.. ثم هم يزينون لهم الإثم حتى ترضى هذه القلوب رضا تجىء بعده الاستجابة ﴿ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ .

وتبدو القدرة الإلهية مهيمنة لا يفلت منها شىء.. وإذن فهى مصدر التشريع والحكم. وكل محاولة تتجاهل هذه الحقيقة باطلة..

وهنا تطالب الآيات رسول الله أن يثبتها.. منكرا أن يكون لغير الله دخل فى تدبير شئون الكون:

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا﴾.. مستحيل!

وكيف.. وهو الذى نزل الكتاب مُفَصَّلا كل شىء.. وأهل الكتاب يشهدون بذلك.. وهاهن ذى كلمات الله تعالى تمت صدقا فى الإخبار.. وعدلا فى الأحكام.. ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال﴾

وحرى بمن يملك اليقين أن يخالف أهل الظن والتخمين.. فرارا من الضلال بعد الهدى. حتى ولو كان المضلون كثرة.. وكانت لهم شوكة ودولة. وإذا كنت لا تعرف مكنون الضمائر.. فإن الحق تعالى يعرفها ويعرف المهتدى والضال.. فقف عند حدود بشريتك.. ماضيا في سبيلك ومعك المؤمنون آكلين مما ذكر اسم الله عليه بحكم إيمانكم مخالفين هؤلاء المارقين.. ولا شىء هناك يمنعكم من ذلك.. فالله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فلا لبس ولا غموض.. إلا ما جاء اضطرارا واستثناء من هذه القاعدة..

واذكروا جيدا أن هناك جبهة معادية تحاول أن تخبط مسعاكم بأمزجتها المتقلبة.. ودعاياتها الكاذبة. فلا تخافوهم.. فالله أعلم بهم وكافيكم أمرهم..

لكن الانتصار على دعاة للهزيمة لا يتم بالأمانى العذاب.. وإذا كان أعداء الحق يرمون بكل ثقلهم.. فى محاولات مكرورة لإطفاء نور الله.. فإن الانتصار عليهم يتم أولا بالتسلح بالخلق الكريم.. وتطهير الظاهر والباطن من كل إثم..

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾

وثانيا: بحماية الأمة من دعايات مغرضة يتولى كبرها فريق المجادلين الذين يفتحون جبهات جانبية حول قضايا غير مطروحة يريدون بها أن تضيع قوانا فى غير ميدان.

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

إن رجلا ولد فى بيئة الضلال يظل معذورا حتى يجد النور.. فإذا وجد النور وما فيه من كشف.. وأنس.. وسعة.. ثم نكص على عقبيه راجعا إلى الظلام.

لهو أفدح ظلما.. فإذا أطعمتموهم بعد الهدى.. إنكم إذا مثلهم..

ويستحيل أن تكونوا مثلهم أيها المؤمنون: لأنه يستحيل استواء من أحياه الله بالإيمان.. ومن بقى يمرغ جبهته للأوثان. ويستحيل كذلك أن يترككم المتمرغون فى الوحل حتى تكونوا مثلهم.. فاحذروا.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾

لكن مكرهم فى النهاية راجع إليهم.. إلا أن حسهم الغليظ البليد مانع من اكتشاف هذه الحقيقة.. وزمامهم أبدا في يد الكبر المعشش فى قلوبهم والذى سول لهم أن قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ﴾

ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض.. ألا وإن أمر الرسالة موكول إلى الحق تعالى يجعله حيث علم سبحانه.. والرسالة كالمطر.. الذى يستقر على الأرض السهلة المستعدة للإنبات.. ولا يستقر أبدا على قمم الجبال المتأبية على الإمساك به. وإذ يحملهم الكبر على هذا الانحراف فسوف يكون جزاؤهم من جنس عملهم: ذلا وهوانا:

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾

والحقيقة التى تفرض نفسها دائما: أن الهدى والضلال بيد الله تعالى: فمن يرد أن يهديه يهيئ قلبه لاستقبال واردات الإيمان..

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾

ولا عذر لضال بعد هذا البيان.. وبعد أن فصل الله كل شيء تفصيلا.. أما الذين اهتدوا.. فلهم دار السلام عند ربهم.. ينعمون فيها جزاءً أيضا من جنس أعمالهم.. وتبدو عظمة النعيم عندما يطالعون ما يواجهه المعاندون يوم الحساب حين يذكرهم الحق سبحانه بما فعله الجن من إغواء.. وما فعله الإنس من استجابة حقق به الطرفان متعة عابرة.. وهاهم أولاء يعترفون.. حين لا يجدى الاعتراف..

لقد كانت النار مثواهم جزاء وفاقا.. وعدلا من الله تعالى.. الذى أرسل

رسله.. وأنزل كتبه هداية وأمنا.. فكانوا عن الصراط المستقيم ناكبين مصرين على ضلالهم.. وإذا كان الظالمون فى دركات يوم القيامة.. فإن للمؤمنين درجات.. لكن الدركات والدرجات ناشئة أساسا من نوعية العمل.. فمن عمل صالحا فلنفسه. ومن أساء فعليها..

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

سورة الأعراف: من قوله تعالى ﴿ ﴿قَالَ الْمَلأُ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [٨٨ ـ ١٢٥]

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى التوحيد وما يثمره من عدل فى المكيال والميزان والتزام جادة الإصلاح... بدل أن يصدوا عن سبيل الله. فتصدى له كبراؤهم من الملأ.. وهم أصحاب المصلحة فى الإبقاء على مظاهر الفساد.. فهددوه بالإخراج أو الدخول فى ملتهم..

﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾

وكان رده حاسما قاطعا أملهم فى فرض عقيدتهم بالقوة: ﴿أَوَ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا﴾.

وأى كذب أشنع من عودة إلى باطل بان فساده، وبعد وضوح دلائل الحق الذى شرفنا الله به.

ولو فرض وعدنا فإن ذلك إلى مشيئته سبحانه التى لن تردنا خائبين أبدا، وهو سبحانه المرجو أن يحسم الخلاف بيننا وبينكم.

وكان الظن أن يستجيب الكافرون لهذا المنطق القوى،لكنهم أداروا ظهروهم له ليلعبوا بالورقة الأخيرة وهى تحريض الشعب على شغب لا مسوغ له.

﴿لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴾.

وكان من حكمته ﷺ تنحية هذا الجيل المعاند ليفسح طريق للدعوة أن تأخذ سبيلها إلى غايتها: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

جثثا هامدة بلا حركة ولا حياة: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾.

وطويت صفحة أعمارهم،وكأن لم يعيشوا ساعة من نهار، وسكتت مظاهرات التضليل، فلا تسمع إلا شعيبا عليه السلام يعلن أنه بلغ رسالة ربه إلى قوم ساقهم

سوء اختيارهم إلى قبورهم التى حفروها بأيديهم، فلا مكان للأسى، ولا وقت للحزن على قوم لا مسوغ إطلاقا للحزن عليهم، لقد جاءهم الحق، ثم طرق عليهم أبوابهم وبدل أن يأخذوا منه بأسباب الحياة إذا هم يشغبون عليه، وعلى نفسها جنت براقش ولندع أشلاء القوم تتخطفها الطير أو تهوى بها الريح فى مكان سحيق لنعى سنة الله فى الأمم المكذبة والتى تمر بمراحل ثلاث: يبتلى الله الأمة بالمصائب، ليؤمنوا فإذا لم يؤمنوا فتح عليهم أبواب النعيم مكرا بهم واستدراجاً.

حتى إذا تبلد فيهم الإحساس، وحسبوا أن الأمر ما هو إلا دورة للدهر الذى تقلب بآبائهم فأخذوا حظهم من البأساء والنعماء، وهم من بعدهم على دربهم سائرون حتى إذا حدث ذلك. ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

هكذا يأخذهم الحق تعالى، فلا ترى لهم وجودا على ساحة كانوا فيها ملء السمع والبصر ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ. ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ كثروا ﴿وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ وما ظلمهم الله. ولكن ظلموا أنفسهم ولو أنهم آمنوا واتقوا لعاشوا فى بركات من السماء والأرض: ﴿وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وللمصيبة شؤمها، ولها دورها فى ضنك الحياة... ألا وإن الإيمان سبيل الأمم إلى الرخاء: إنه يصون الطاقة لتأخذ سبيلها مدفوعة بالنوايا الطيبة إلى أهداف نبيلة... والذين يتقون، تتوهج حقيقة الذكر فى وجدانهم شمساً لا تغيب، ومن ثم لا ينغمسون فى الشهوات ولا يتبعون خطوات الشيطان.

وإن قيم التعاون والإيثار والمودة لتزكوا فإذا الأمة كيان واحد، فى السراء والضراء. وقد يمتحنها الحق بالبلاء، ولكن قيم الخير المستكنة فيها عاصمة من اليأس، داعية إلى الأمل فى اقتحام العقبة، واستئناف الرحلة من جديد مع رفقة الخير.

وهذه حقيقة تفرض نفسها، فهلا وعاها المعاندون؟ إنهم لا يأمنون أن ينزل بهم

بأس الله ليلا أو نهاراً، ألا وإن التجربة اليومية شاهدة بين أيديهم بما أصاب المذنبين قبلهم، من عذاب يُمكن أن يصيبهم مثله.

ولكنها النفوس العصية المعاندة، يقص الله تعالى من أنبائها تبصرة للمؤمنين وكشفا عن لون من الناس تأتيهم البينات فلا يؤمنون بل يستمرون على عنادهم مع توفر عناصر الإيمان... وما أتعس الحياة حين يغيب منها الوفاء ويخرج المعاندون عن الخط المستقيم هائمين حيارى بينما علامات الهدى ترفرف على جانبى الطريق.

وإذا أردت أيها المخاطب مثلا حيا: فهذا جانب من قصة موسى عليه السلام مع فرعون: لقد ظلم فرعون وقومه أنفسهم حين كفروا وصدوا عن سبيل الله، فقضى العدل الإلهى بتدمير ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون، آية معروضة للمعتبرين. لقد واجهه موسى عليه السلام بالحق المبين، ومثله لا يقول إلا الحق... فلما طالبه بالإفراج عن بنى إسرائيل طالبه بآية فكانت العصا واليد آيتين، وفزع الملأ المتفعون بالإبقاء على أوضاع تمكنهم من رقاب المطحونين فلجأوا إلى حيلة خبيثة حكتها الآيات الكريمة: ﴿ **قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ** ﴾.

إنها محاولة استعداء الجماهير على رجل يريد إجلاءهم من أرضهم كما زعموا وفرقة الأوطان مأساة... جمع السحرة الذين تحدوا موسى عليه السلام، إلا أنه كان واثقا بنصر الله وتأييده.

هذا النصر الذى جاء مفاجأة حين أعلن السحرة إيمانهم، فراح فرعون يهددهم بالقتل زاعما أن ما حدث مؤامرة بينهم وبين موسى، لكن عنف التهديد كان بإزائه عمق الإيمان، الذى فتح العيون على طبيعة الرحلة الجديدة إلى مرضاة الله، وما تثمره من استعلاء على كل آلام الطريق. ﴿**قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ**﴾.

سورة الأنفال: من أول السورة

إلى قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [١ ـ ٢٥]

إذا كان للنصر ثمراته، فله كذلك عثراته... وإذا حرص الغالبون على استبقاء النصر، فعليهم أن يتجنبوا واحدة من أشق عثراته وهى: الاختلاف الذاهب بكل ما يحققه الانتصار من آثار.

من أجل ذلك افتتح الحق سبحانه وتعالى سورة الأنفال بما يسد ذرائع التفرق، بالتقوى. وإصلاح ذات البين طاعة لله ورسوله، وكان الظن أن يفتتحها بالحديث عن الانتصار.

والقصة: أن الشبان قالوا بعد معركة بدر: لأننا قاتلنا وهزمناهم، فلنا الغنائم... وقال الأشياخ: بل كنا لكم ردءا وخط دفاع تفيئون إليه لو هزمتم: فهى لنا... فنزلت الآيات الكريمة تخاطب الذين انتصروا بالحفاظ على النصر الذى هو أشق من تحصيله ابتداء، بالوحدة التى تكون منطلقا لانتصارات أخرى حاسمة.

ولم الخلاف.. ولا مسوغ له هنا؟ إن الأنفال فضل من الله تعالى اختصكم الله به دون الأمم رزقا حلالا، فهل تجعلون شكر رزقكم أنكم تختلفون؟إن حركة الاختلاف الظاهرة تنعكس على القلوب، فلا تصلحون بعد ذلك للحروب. والحفاظ على اللياقة العسكرية يفرض عليكم إدارة ظهوركم لعرض الدنيا. لتشغلوا أنفسكم بالتسلح بالعتاد الذى حققتم به النصر فى غزوة بدر، بهذه الخصائص الإيمانية التى فصلتها الآيات بعد ذلك: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ خوفا من الله، فقرّت من خشيته خلف الضلوع.

ثم هم الذين يترجمون الوجل إلى صلاة تربطهم بالملأ الأعلى، وإنفاق ينعشون به مرافق الأمة وحسابهم على الله الذى رصد لهم مغفرة ورزقا كريما.. وهكذا طبيعة البشر. ولو تبؤوا قمة الإيمان:

لقد كان توزيع الغنائم على غير هواهم، تماما كما كان الخروج إلى المعركة أيضا على غير هواهم.. ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾.

لقد وُعدوا إما بالعير، أو بمعركة يخوضونها ثم ينتصرون فيها، فلما اتجهت رغباتهم إلى الشيء المريح وهو: العير التى لا يكلفهم تعقبها عناء، بيّن لهم الله سبحانه بأن الحق ليس على مزاجهم وأن الدعاة لا يبحثون عن الشيء المريح وإنما عن الشيء الحق.. لتبقى راية الدين خفاقة على جماجم قوم عرض عليهم السلام فأبوا إلا الحرب... وأين حفنة من العير تأكلونها أو تركبونها، من معركة تحررون بها إرادة الإنسان حيثما كان... ألا ما أبعد المسافة بين لقمة تسد الجوعة، جوعتكم أنتم وبين قضية تتحملون أنتم مسئوليتها،قضية ينبغى أن تكون همكم الأكبرمن حيث صلتها بالحياة الممتدة من بعدكم.

وإذ تستكين نفوس المؤمنين لقرار الحرب، ويأخذون سمتهم إلى ساحتها فإن الحق تعالى معهم بنصره حين اتجهوا إليه سبحانه مستغيثين، فاستجاب لهم بست من النعم العظام وهى:

١- الإمداد بالملائكة: بعد أن استحقوا ذلك الإمداد بالطاعة. على أن مواكب الملائكة المتابعة مجرد بشارة تنبسط بها النفوس، والنصر من الله وحده.

٢- بالنعاس: أمنا واستعادة للنشاط بعد الإرهاق.

٣- ثم بالماء المطهر: المنشط للنفوس بعد خمولها، والمانع من غوص الأقدام فى الرمال، الذاهب بوسوسة الشيطان التى لا مجال لها فى هذا الجو الطهور.

٤- ويتم ذلك كله فى ظلال ندية من تثبيت الملائكة وحدائها القدسى، وما يثمره من رفع الروح المعنوية إلى أعلى مستوياتها.

٥- وأنت خبير بجندى يدخل المعركة هكذا بكيانه كله، إنه جدير بنصر قد استجمع أسبابه... وجدير أيضا بأن يكون سلاحا من أسلحة القدر يرعب الله به أعداءه الذين سيقطع دابرهم بسبب شقاقهم الذى استحقوا به ذلك العذاب فى

الدنيا إلى جانب العذاب المرصود فى الآخرة.

وفى ضوء ما تقرر من نصرة الله لأوليائه حتما فلا مجال للخوف أو التردد بعد اليوم:

فليتقدم المؤمنون ليواجهوا قوى العدوان ولو كانوا فى أقوى أوضاعهم جيشا يملأ الأفق كأنه يزحف من كثرته.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ﴾.

تقدموا، والنتيجة على الله، وهى معروفة سلفا... ومن أدار لهم ظهره هاربا فقد عاد إلى بيته مصحوبا بغضب من الله ينغص عليه حياة كان الأفضل أن يقدمها لله تعالى مجاهدة، بدل أن تظل بقية العمرممزقة شاردة!

اللهم إلا إذا كان التولى طبق حيلة عسكرية يخادع بها العدو. أو إرادة الانحياز إلى فئة مؤمنة يقوى بها الصف المؤمن.

إن الفرار من الزحف يناقض ما هو مقرر فى النفوس من أن الله تعالى هو الذى يقتلهم وهو الذى يرمى.

وهوالذى يحقق النصر أخيراً تتويجاً لمعركة هى فى الحقيقة نعمة عظمى عليكم، فلا مسوغ للهروب لا سيما والقوى العدوانية هناك يضمر عودها، ويوهن الله تعالى قواها. فالجهد المطلوب يسير ولكن العائد خطير.

وقد يستخدم الأعداء إلى جانب السلاح المادى سلاح السخرية توهينا لقوى المؤمنين.

وقد جربه المشركون حين قالوا فى بدر: اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين... فلما استفتحوا ساخرين جاءهم الفتح ولكن على غير هواهم.

﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾. جاءكم على خلاف ما توقعتم هزيمة نكراء.

ومع ذلك فباب التوبة مفتوح لكم لو أردتم إن تلجوه. وإلا فلن تغنى عنكم قوى الأرض جميعا.

وإذا كان الأمر كذلك فلابد أن يدفع المؤمنون الثمن: طاعة وبعداً عن التشبه بمن سمع ولم يقبل فكانوا شرا من الدواب، ذاكرين قدرة الله على إسكات القلب فى لحظة، ثم تنتهى الحياة.

ومن تمام مسئوليتكم استشعار واجبكم عن المجتمع وما يفرضه من محاربة الظلم الذى يعم عقابه: الظالمين.. بما ظلموا. والمظلومين الذين مهدوا بالسكوت لهذا الظلم.

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

سورة الأنفال: من قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم﴾
إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [٤١ ـ ٦٦]

يقول الحق سبحانه:

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ..﴾ الآيات

بعد انتصار المسلمين الحاسم فى بدر، نزلت الآى تترى موضحة كيف تقسم الغنيمة كاشفة عن تدبير الحق تعالى. والذى أحق به الحق، وأبطل به الباطل.

أما عن الغنيمة: فإن لله خمسها: وللرسول ما ينفقه فى مصالح المسلمين.. ثم لذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.

ويحملكم على الالتزام بهذه القسمة أمور منها: إيمانكم بالله تعالى.. ثم ما رأيتموه من الآيات فى بدر:

إنكم آمنتم بالله [والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له وآمنتم بما أنزل الله على عبده يوم بدر. حين فرق الله بين الحق والباطل... فرأيتم ذلك رأى العين، وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين، إلى مرتبة عين اليقين، فعلمتم أن الله أعلم بنفعكم من أنفسكم إذ يعدكم إحدى الطائفتين أنها لكم، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، فكان ما دفعكم الله إليه أحفظ لمصلحتكم. وأشد تثبيتاً لقوة دينكم.. فمن رأوا ذلك وتحققوه. فهم أحرياء بأن يعلموا أن ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة. ولم يعبأوا بما يدخل عليهم من نقص فى حظوظهم العاجلة] اهـ.

واذكروا من تدبير الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾.

لقد كنتم فى مكان رخو تسوخ فيه الأقدام.. فى عدد قليل، وعدة أقل. أمام عدو: كثير العدد. قوى العدد. وفى موقع استراتيجى. يطوقكم جيش قريش. والعير التى نجت فكانت سندا له.

وفى العدوة البعدى من الماء، وحرية الحركة ما فيها. وقد رغبتم فى العدوة هذه لصلابتها، فلما سبقكم المشركون إليها أنزل الله المطر فلبد الأرض فصارت ممهودة للسير... فى الوقت الذى حرم المشركون الماء، الذى اتخذتم منه ما يكفيكم، دونهم وكان ذلك تدبيراً حكيما منه تعالى ليقضى الله أمراً كان مفعولا... ولتذكروا نعمة التوفيق، وصولا إلى دوام حسن الظن به سبحانه، والاعتماد عليه وحده... ومن هذه النعم أن أراك الله المشركين فى منامك قليلا.

﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وهو درس فى أهمية الروح المعنوية للجندى، إلى جانب السلاح المادى، فقد كان المسلمون يظنون المشركين كثيرا فهابوهم... والله عليم بذات الصدور، وما فيها من تأثر بالمشاهد المحسوس، فكانت هذه الرؤيا رمزاً لوهن المشركين وضعفهم والتى ارتكزت على أمر محسوس أخبرهم به النبى ﷺ ليستبشروا ويوقنوا بالنصر المبين.

وقد تساءل بعض الباحثين قائلا: لماذا لم يخبر الله تعالى رسوله ليقول للمؤمنين: سوف تهزمون أعداءكم؟ وأجاب: لو تم ذلك لأمن المسلمون بالنصر قطعا... ولكنه الإيمان العقلى الذى لا ينشئ الشجاعة والإقدام... أما الرؤيا فهى موقف محسوس، تميل إليه النفس، ويحملها على الإقدام... وربما جاز لنا أن نقول:

إن الوعظ المجرد الذى يخاطب العقل ضعيف الأثر فى أخذ الناس بالفضيلة لا سيما ووسائل الدعاية المضادة تعتمد على الصورة المحسوسة. والمشهد المرئى.

ومن تمام هذه النعمة ما كان عند لقاء الفريقين: إذ رأيتموهم أيها المسلمون. قليلاً. ورأوكم أيضا قلة: ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾.

لقد تخيل كل فريق غريمه على غير حقيقته. فكان تخيل المسلمين دافعا إلى الهجوم الواثق بالنصر. وكان تخيل الكافرين حاملا على الغرور والاستهانة بالقلة المؤمنة فكانت المفاجأة وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا!

وحيث سطعت فى القلوب دلائل التأييد الإلهى فى بدر. لما ارتفعتم إلى مستراها إيمانا واستعدادا. إذن فلتواصلوا الحرص بهذا الزاد على بلوغ المراد فى كل معركة آتية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ..﴾.

اثبتوا، ولا تترددوا. واذكروا الله بالقلب، واللسان لعلكم تفلحون.

فإذا استقام بناؤكم النفسى بهذا الثبات، وهذا الذكر. فلتكن جسور الطاعة لله ورسوله قوية، منتهين عن التنازع وما يجر إليه من: إثارة الغضب. وإحباط التعاون. واليأس من النصر.

وبذلك تذهب قوتكم حين تفرغون طاقاتكم فى إرادة العدوان، بينما العدو الحقيقى بنجوة منكم، يضحك عليكم، ثم يأخذكم على غرة، بل انكم لتُسْلمون أنفسكم إليه بهذا التنازع... وإذا بدأ التكليف هنا صعبا، ففى الصبر ما يعينكم على الالتزام: ﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

اصبروا ، واخشعوا ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم، بطرين مرائين حتى لا يصيبكم مثل ما أصابهم.

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ ﴾.

وإذا وجب على المؤمنين البراءة مما يفعل الكفار، فإن لهم عدوا ماكرا آخر هو المنافقون الذين يرمونكم بما أنتم منه براء... بالغرور. ولكن الحقيقة أنكم متوكلون على الله... ومن يتوكل على الله فهو حسبه... يعيش عزيزاً... ويموت كريماً.

أما هؤلاء الماكرون فإلى جانب ما يذوقونه فى حياتهم من فنون التمزق فإن نهايتهم لا تقل مرارة: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ . ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

وبداية الكافرين ونهايتهم تلك الأليمة وما فعلوه بين هذه وتلك تؤكد

حقيقة: أن الكفر ملة واحدة... وما يفعله المشركون اليوم يضاهئون به فعل الذين كفروا من قبل وهم قوم فرعون ومن قبلهم:

كفروا بآيات الله. وجحدوا نعمه سبحانه: فأخذهم الله بذنوبهم: طبق سنته تعالى فى المكذبين والتى تعلن أن عناية الله تعالى تتخلى عن الجاحدين الذين ازدروا النعم وكفروا بالمنعم، فلما بدل هؤلاء ما بهم من حال إلى أسوأ حال استنزلوا بالجحود غضبه سبحانه والذى صبه على أناس هم فى الظاهر أناس ولكنهم فى الواقع دواب، بل شر الدواب، ذلك بأنهم رسخوا فى الكفر، واستمرأوا الخيانة، وكلما عاهدوا عهداً نبذوه... فاضربهم بقوة تخيف بها من وراءهم مستمسكا بقيم الإسلام دائما، فإذا خفت خيانة قوم فاطرح إليهم عهدهم علانية، ولا تأخذهم على غرة... ولا تنتظر حتى يخونوا بالفعل، فإن ذلك أضر بالأمة بما يحدثه من آثار لا يمكن تلافيها، ومن تمام نعمته سبحانه على المؤمنين أن يوجه إلى الكافرين المغرورين خطابا شديد اللهجة، نافيا أن يكونوا أقوياء ممنوعين بقوتهم منه.

﴿إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ﴾ لا يفلتون... لكن وقوعهم فى الشباك المنصوبة لا يتم صدفة، وإنما بأيديكم أيها المؤمنون فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، لإرهابهم وإرهاب من يسولون لهمم العدوان، حتى لا يكون قتال بالمرة فإذا مالوا إلى السلام، فبها... وإلا فان ﴿ وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وجعل المسلمين على هذا المستوى العالى بما منَّ عليهم من وحدة جامعة لو حاولت شراءها بملء الأرض ذهبا، ما تمت لك، ولكن الله تعالى حققها فضلا منه وكرما فاعتمد عليه سبحانه واستعن بمن معك من المؤمنين ولتكن دائم التحريض لهم على القتال ليكونوا دائما على أهبة الاستعداد، ذاكرا رحمة الله تعالى بكم عندما خفف عنكم العبء... فحكم بمقاومة المؤمن الواحد للاثنين، بعد ما كانت مسئوليته أن يواجه العشرة، فاستشعروا نعمة التخفيف، واشكروا، ثم اصبروا. ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

سورة التوبة: من أول براءة...
إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [١ ـ ٢٢]

إذا كان الشاعر يقول:

جزى الله الشدائد كل خير   عرفت بها عدوى من صديقى

فقد كانت غزوة تبوك واحدة من هذه الشدائد، عرف بها المسلمون عدوهم من المشركين الذين نكثوا عهدهم بين يديها ظنا منهم أن هزيمة المسلمين وشيكة الوقوع... وردا على هذا الغدر يعلن الحق سبحانه براءته من عهدهم براءة تقف بهم فى موقف لا يحسدون عليه:

فالحق سبحانه وتعالى يأمرهم ـ استهانة بهم ـ أن يسيحوا فى الأرض أربعة أشهر كما يشاءون، وفى أى قطر من أقطارها، وكأنما يقول لهم: استعدوا.. حصنوا أموالكم، وحصلوا العدد والأسباب واستجلبوا الأسلحة من كل باب فلن تفوتوه طلبا ولن تعجزوه هربا.

وهنا تبدو قوة الإسلام فى ذروتها: فهو لم يأخذهم على غرة فما كان لدين عظيم أن تكون له خائنة الأعين. ثم هو لا يتخذ قرار البراءة أو الحرب إرادة الإبادة، وتحت رحمة الانفعالات المتقلبة وإنما يستهدف صيانة الدماء أن تراق على الرمال العفراء سدى، ومن هنا يفتح باب التوبة، مهددا بسوء العقبى لو استمروا فى ضلالهم.

وفى تقديم احتمال توبتهم حسن ظن بهم ينبغى أن يقدروه قدره مستشعرين غاية الإسلام الحقيقية.. إنه لا يريد أن ينتصر بالسيف. وإنما يريد: الانتصار على السيف.

ولا يسوى الإسلام بين الوافين والغادرين: إنه يستثنى من البراءة من استقام فيما مضى استقامة تنبئ عن وفائه فيما يأتى.

فإذا انسلخت الأشهر التى كانت واقية لهم كجلد الشاة فخذوهم وحاصروهم

وامنعوهم من التقلب فى البلاد. فإن تابوا توبة مترجمة إلى عمل إيجابى فخلوا سبيلهم.

وهكذا وفى لحظة إعلان حالة الطوارئ القصوى يظل الإسلام وفيا للسلام وهو مستعد أن يضع السلاح استجابة لكل بادرة سلام تصون الدماء أن تراق هباء.

وحتى لو كانت هذه البادرة رغبة فرد واحد. تتحرك نحو الهداية، متطلعة إليها فافتحوا لها الباب. إذا رغب جاهل منهم أن يسمع كلام الله فاستقبلوه وانتهوا به إلى حيث يسمعه آمنا، فإن اهتدى فبها. وإلا فأعيدوه آمنا إلى حيث أتى قبل أن تعاجله ضربة سيف من متحمس تطعن الدين قبل أن تطعنه!

إن الإسلام العظيم لا يقبل الإيمان الجبرى تحت تهديد السلاح. ولكن يوفر الأمن ليصحح الفهم ثم تجئ الموازنة ثم الاختيار الحر. أما إيمان الخائفين فلا يدوم. لكن استجابة المسلمين لمبادرة التوبة لا تخفى هذه الحقيقة وهى: كيف يكون للمشركين عهد؟! وبأى مقياس؟ إنكم لم تروا منهم يوما تبكون عليه، وهذه صحيفة سوابقهم وآثار فأسهم: إن ظفروا بكم قهروكم غير مراعين عهدا ولا ذمة، وما تسمعون منهم اليوم إنما هو اللفظ المعسول الخداع. ثم هم الذين آثروا اليسير من حطام الدنيا على الوفاء بالعهد، بل وصدوا عن سبيل الله، فلا مروءة رادعة ولا عقيدة وازعة.

وإذن فحسن الظن بهم غفلة يجب أن تزول: والأمر على ما يقول الشاعر:

علام تقبل منهم فدية وهمو   لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

ومع هذا فبإمكانهم أن يغسلوا هذا العار بالتوبة النصوح، وإلا فلوا استمروا غادرين، وعبروا عن خبيئة نفوسهم بالطعن فى الدين فليس إلا السلاح الذى يقطف هذه الرؤوس لتصلح فى غيابها النفوس!

وليكن ذلك الموقف عزيمة عصية على التردد، بلا خوف منهم. يعينكم على هذه الغضبة المضربة ما يلى: أن الخوف من الله وحده، لا منهم.

إذن صفوا حساباتكم معهم وسوف يصوغ القدر الأعلى منكم أسلحة له يؤدب بها هؤلاء الطغاة... وإذا خلت منهم الساحة العسكرية فمن تمام الجهاد

عزلهم عن التأثير فى مسار الحركة الداخلية وبخاصة عمارة المساجد رفعا للتناقض فى حياة فئة تزعم أنها تعمر بيوت الله وهى فى نفس الوقت تسعى فى خرابها بالطعن فى دينه.

والحقيق بالعمارة: من كان دينه التوحيد والعمل على مقتضاه وهؤلاء المؤمنون يدور أمرهم بين لعل وعسى، مع أنهم بلغوا حد الكمال، فكيف يطمع المشركون فى الوصول وأعمالهم فى الحضيض.

وعلى فرض أن عامر المسجد له فضل عمل فهل يستوى من يزخرف الجدران بمن يغرس فى الضمائر قيم الإيمان.

إن قيم المسجد أولى بالرعاية من بساط وأخلاط لا دخل لها فى طبيعة الإيمان، ولعل الآيات الكريمة تنبه بعض المسلمين ممن يتنافسون اليوم فى بناء المساجد على نحو غير مدروس إلا مجرد التعبير عن الحماس الدفين. ومع تقديرنا لهذا التنافس غاية التقدير إلا أننى أكرر ما قلته لواحد منهم: بدل أن تبنى مسجدا على بعد أشبار من مسجد آخر وفرارا من هذا الضجيج الحادث من مكبرات صوت لا تمكن المستمعين من الفهم والتمييز، بل ولا تمكنهم من كمال الصلاة... بدل هذا ابن سكنا لعروسين على أن يكون الإيجار الشهرى راتبا لمجموعة من الأسر الفقيرة. تعف به نفسها، وتشترى الدواء لمريضها، وتعلم جاهلها وتلك هى قيم المسجد الجديرة بالاهتمام لا مجرد الرغبة المراد تحقيقها ولو لم يكن للمسجد إلا إمام بلا مأموم!؟

ولو أن هذا وأمثاله فعلوا ما يوعظون به حين يقررون بناء مسجد: فاقتصدوا لكان خيرا لهم لكنهم ربما بنوا مئذنة تكفى تكاليفها لإنقاذ أسر شريفة توشك أن تنهار. إن إنقاذها هو الجهاد، وجزاؤه عند الله عظيم.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ . يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

سورة التوبة: من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [٣٤ـ ٤٥]

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . .﴾ الآيات.

تكشف الآية الكريمة النقاب عن كثير من القيادات الدينية. . . من علماء اليهود وعباد النصارى، والذين فتن بهم العامة فاتخذوهم أربابا من دون الله، مع انهم لا يستأهلون ذلك.

أولا: لأنهم واقعون أسرى شهوة عارمة، لم تجعلهم يحبون الدنيا فقط، ولكنَّ حرصهم عليها جاوز المدى فأكلوها أكلا وبالباطل لا يبقى ولا يذر.

ثانيا: ومع الشهوات يطلقون الشبهات فى أدمغة المفتونين بهم ليصدوهم عن سبيل الله خداعا وتدليساً.

فليحذر المؤمنون أن يسلكوا نفس الطريق، راغبين فى المال الذى يصبح رصيداً ضخما يحجبهم عن رؤية الحق، بل ويضنون به عن نصرة الحق. . . وإلا ذاقوا العذاب الأليم، يوم تصير الثروة التى بخل بها أناس فقعدت بهم فلم يشتركوا فى غزوة تبوك، يوم تصير نارا حامية تُكوى بها:

الجباه: التى قطبت في وجه السائل والمحروم.

والجنوب: التى نأت عنهم نفورا منهم.

والظهور: التى استدارت كأنما هى حمر مستنفرة فرت من قسورة.

ولأن هذه الأعضاء مختلفة الأحاسيس فسوف يلقى صاحبها من العذاب ألوانا جزاء ما أحدث من هوان لأخيه الإنسان وما أصاب المجتمع من خلل حين لم يوظف طاقته لخدمة الناس ولا سخر عقله لترقية الفكر ولا ثروته لبناء المدارس وتعبيد الطرق.

ولقد أمعنوا في البهتان حين عتوا فانتقلوا من الإخلال بواجبات الإنسان، إلى محاولة الإخلال بنظام الأكوان!

وكيف؟ الشهور القمرية وهى المقصودة من الآية الكريمة هى أضبط أشهر التوقيت. لأن اختلاف أحوال القمر مساعد على اتخاذ تلك الأحوال مواقيت للمواعيد والآجال. وتاريخ الحوادث الماضية، وذلك بمجرد المشاهدة.

ولأن الاستناد إلى الأحوال السماوية أضبط. وأبعد عن الخطأ. ليقوم نظام التوقيت للأمة على الوجه الحق... الصالح لجميع البشر. فى ضوء الحكمة الإلهية. بعيدا عن تحكمات الناس.

والمقصود من ذلك: ضبط الأشهر الحرم. وإبطال ما أدخل المشركون فيها من النسيء. الذى أفسد نظامها.. وأزال منها حرمة ما له حرمة..وأكسب حرمة.. لما لا حرمة له..وكانت العرب تعظم البيت.. وتعظم الأشهر الحرم.. حتى أن الرجل كان يلقى قاتل أبيه فلا يتعرض له..

وكانت السَّنة عندهم: اثنى عشر شهرا قمريا.. وعند غيرهم: المدة التى تدور فيها الشمس دورة تامة... والسنة القمرية: أقل من السنة الشمسية بمقدار معلوم. ويسبب هذا النقصان تنتقل القمرية من فصل إلى فصل. فيكون الحج مرة شتاء. ومرة صيفا.

وكان هذا الانتقال يشق عليهم... وقد يريدون التجارة. فلا توافقهم الشهور... وقد تثور الدماء فى عروقهم فلا يصبرون..

فاخترعوا النسيء.. وهو: تأخير حرمة الشهر الحرام.. إلى شهر آخر لا حرمة له.. فالتزموا بالعدد.. لكنهم تجاهلوا الأشهر الحرم التى حددها الله تعالى وجعل المعصية فيها أشد عقابا. والطاعة فيها أكثر ثوابا.

وتحققت بذلك حاجاتهم التجارية والحربية.. على حساب فريضة الحج الذى انتقل بفعلهم من شهر إلى شهر.. وعلى حساب طاعتهم لربهم حين خالفوا عن أمره.. واستبدوا بآرائهم.. وفى ذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ الآية.

وإذا فعل المشركون ما ينسجم مع طبيعتهم المتأبية على الحق.. فليتقدم المؤمنون ليتحملوا مسئولية إصلاح ما أفسدوا..وذلك قوله تعالى: ﴿ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾..

إنها أشهر للعبادة فإن لم تكن عبادة.. فلا أقل من ترك المعاصى فيها.. ولا يعنى كونها حُرُما أن تمتنعوا عن قتال المشركين. إذا بدأوكم بالقتال..

وإذا حاول الإعلام المعادى التشويش عليكم إذا رددتم عدوانهم.. فاعلموا أنكم بهذا القتال الدفاعى.. ومهما سالت الدماء.. اعلموا أنكم ما زلتم متقين.. والله معكم... فكونوا دائما على استعداد لخوض المعركة.. وأى شىء يمنعكم من خوضها؟ وقد فرضت عليكم فى تبوك؟

﴿ما لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾.. اثاقلتم.. مخلدين إلى الأرض.. لا تريدون النهوض.. فضلا عن السير.. كما يفعل التلميذ البليد يساق إلى المدرسة؟

أرضيتم بنعيم الدنيا.. وهو إلى جانب نعيم الآخرة صفر على الشمال.. رضيتم.. واستمتعتم بالقعود؟!

إذا لم تنفروا فسيحدث الآتى:

١ ـ يذيقكم الله تعالى عذاب الهوان.

٢ ـ يسلط عليكم غيركم فيستأصلكم.. ويأتى بغيركم. وإذا لم تنصروه فهو غنى عنكم..

واسألوا التاريخ: لقد نصره الله ليلة الهجرة وهو أضعف حالا.. وأقل رجالا. أفلا ينصره اليوم بعد أن تغير الموقف لصالحه؟!

من الخير لكم أن تنفروا مهما كانت أوضاعكم.. ودعكم من الكسالى

العاجزين الذين لا ينشطون للخروج إلا فى المهمات السهلة والغايات العارضة القريبة..

وأنت يا محمد: عفا الله عنك فيما فعلت من إذنك لهم بينما مقياس الرجولة واضح بين يديك: **﴿لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾**.

نعم لا يستأذنونك.. فهم يجاهدون بلا استئذان.. **﴿إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾**

سورة التوبة: من قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [٤٦ ـ ٥٩]

لا يمتحن البحار فى النهر الهادئ.. ولكنه يختبر فى المحيط الهادى.. فمن غالب الموج.. وكابر الأنواء.. فقد فاز.

وقد كانت غزوة تبوك ذلك الامتحان الذى يكرم المرء فيه أو يهان:

صابر المؤمنون الأحداث بل وكابروها.. فكانوا عند حسن الظن بهم.. أوفياء.. بينما انكشف الغطاء عن نوايا المنافقين المتخاذلين:

إنهم لم يريدوا الخروج بالمرة.. بسبب الريب المانع من انبعاث الإرادة. ولو أرادوه لتهيأوا له.. وإذا كان الصبر تفضحه عيونه.. فقد فضحت المنافقين أحوالهم.. حين قعدوا.. ولم يستعدوا.. وإذن.. فهم كذابون.. حين يعتذرون.. وكان اعتذارهم تدبيرا من الحق تعالى.. الذى كره اشتراكهم فى الحرب فثبطهم.. فكانوا مع القاعدين من أصحاب الأعذار.. فى وضع لا يحسدون عليه.. من حيث كان للضعفاء عذرهم.. أما المنافقون الأصحاء فلا عذر لهم.

ولقد كان تبثيط هممهم بسبب أنهم: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خبالا﴾:

اختلالا فى نظام الجيش.. وخللا فى صفوفه.. بما يبثون من شائعات وما يثيرون من فتن يفسد بها الرأى.. وعثرة الرأى تردى.

من أجل ذلك كان تخلفهم نعمة كبرى لا سيما إذا علمتم أن فيكم مندوبين عنهم:

فيكم مسلمون سذج. ينطلى عليهم ما يهرفون به.. غير مكتفين بمجرد سماعه.. بل هم سماعون.. معجبون.. واثقون به عاملون بمقتضاه!

إلى جانب صنائعهم من الجواسيس الذين ينوبون عنهم فى حرب التخذيل من داخل الجيش: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾.. المخذولين.. ومن يثق بهم. من الفريقين.

الا وأن تجاربكم معهم لشاهدة برسوخ أقدامهم في التربص بكم: فقد عقدوا المؤتمرات السرية.. وقلبوا لك الأمور.. فدققوا فى البحث والتنقيب.. باذلين أقصى الجهد وصولا إلى أقصى ما يستطيعون من حيلة.. للنيل منكم.. فلما لم يفلحوا.. رباءت مؤامراتهم بالفشل. حين رأوا تصميمكم على النضال.. وأنكم لا محالة خائضون معركتكم الفاصلة.. لما رأوا ذلك. عادوا فاعتذروا.. وهم كارهون.

وها هى ذى تصرفاتهم تحكى نفاقهم الدفين: ﴿ **وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي** ﴾

يريد أن له مع النساء ماضيا ذليلا.. ويخشى إن رأى نساء الروم أن يفتن بهن؟!

ولك أن تتعجب من هذا المفتون: إنه يطلب الفرار من فتنة.. بينما هو.. وفى نفس اللحظة ساقط فيما هو أشد منها!... هى فتنة لا يدخل فيها.. ولكنه.. يسقط فيها.. فجأة.. غير مأسوف عليه.. وهى فتنة الكفر والنفاق.. وافتضاح أمره على الملأ.. ثم كراهية الناس له.. بسبب سوء اختياره... ﴿ **وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ** ﴾ فى نهاية المطاف.. ويا له من سعير.. يتقلب فيه الذين قلبوا لك الأمور.. سعير فى الدنيا.. والآخرة.

وعلى المؤمنين أن يثقوا بحكمة الله التى تدبر لهم.. حين تنحى من طريقهم أعدى أعدائهم حتى لا يحبطوا سعيهم... إنهم أعدى أعدائكم فعلا:

وقد دل على بلوغهم تلك الغاية النكراء أنهم: ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ** ﴾.

فهم يحزنون إذا حالفكم التوفيق.. فرحون إذا أصابكم غم وكان فرحهم بمرتبتين: يفرحون أولا لما أصابكم من ضر.. ويفرحون ثانيا لظنهم أنهم دبروا فأحسنوا التدبير.. الذى نجوا منه من هلاك محقق.

ولكن الآية الكريمة تلاحقهم بتلقين المسلمين الجواب الذى يحبط ذلك الفرح

الزائف.. والذى يقلب عليهم المائدة أخيراً:

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

إذا كنتم تتوقعون أن نحزن على ما أصابنا.. فلا تفرحوا.. لأننا لن نحزن أبدا: فمصابنا بقدر الله.. كتبه علينا.. وهو مولانا.. لا أنتم.. ويفرض علينا إيماننا أن نتوكل عليه وحده.. ليكفينا همومنا.. التى تصير فى حسابنا يوم نلقاه..

ومن تمام الجواب قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

قل لهؤلاء الشامتين: هونوا من مشاعر الشماتة بنا.. فلن يكون لهذه الشماتة ما يسوغها:

فإذا كانت مصائبنا المتوقعة.. تزين فى صدوركم الأمل فى هزيمتنا.. فأنتم تمارسون ضربا من الوهم على ما يقول بعض المفسرين:

إن جسر التربص بيننا وبينكم يمتد إلى ناحيتين:

فأما ما كان من ناحيتنا فإنا نتربص بكم وقوع أمرين كلاهما شر لكم:

أن يصيبكم الله بعذاب من عنده: من نحو قحط أو خسف.. أو نزول موت عام. أو أن يعذبكم الله بأيدينا: إذ ينكشف شرككم وكفركم. فتستوجبوا بسط أيدينا إليكم بالقتل. جزاء كفركم. وارتدادكم عن الإيمان.

وأما ما كان من ناحيتكم: فأنتم تتربصون بنا أحد أمرين كلاهما خيرلنا: إما أن ننتصر فى الجهاد على عدونا. فيكون لنا الدولة والعزة. والمال. والمجد العريض.. فهذه إحدى الحسنين.. .أو يختار الله لنا موقف التمحيص.. فنقتل فى سبيل الله لنظفر بحياة الشهداء فى الجنة الآن.. فرحين بما أعده الله للشهداء من الرزق المعجل. والفضل العظيم. وهذه هى الحسنة الثانية: ﴿ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾

انتظروا مواعيد الشيطان.. فإنا منتظرون مواعيد رب العالمين أ. هـ

ولاحظ اسمية الجملة فى جانب المؤمنين ﴿**إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ**﴾ ودلالتها على قوة الرجاء لدى المؤمنين فى حصول ما يتربصون به للكافرين.. وهو ما أشار إليه الشاعر:

فَتَوَسَّمونى: إننى أنا ذلكم ... شاكى سلاحى فى الحوادث مُعْلَم

وإلى هنا تسقط الدعاوى الكاذبة.. وتكشف القلوب عن خوائها.. فكيف يقبل من أصحابها أموال يدعمون بها معركة هم فى الحقيقة لا يريدون خوضها.. بل يرغبون أن يخذل الحق فيها.. إن المطلوب هو بذل الدماء.. لا بذل الأموال:

﴿ **قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ** ﴾...

وكيف تقبل منهم بينما هم من الإيمان بالمكان البعيد.. وهذه بعض سماتهم إلى جانب كفرهم: إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى. ولا ينفقون إلا وهم كارهون؟ وأين هم من رجال مؤمنين: ﴿ **تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون**﴾

إن أيديهم كانت صفرا من المال.. بينما قلوبهم كانت عامرة بالإيمان تتحرق شوقا إلى المعركة.. إن الفرق لهائل بين الفريقين.

ثم إن هؤلاء المنافقين الأثرياء.. لا يستحقون إعجابك بهم: فأموالهم وأولادهم ـ والمفروض أنها نعمة ـ تحولت فى أيديهم نقمة وعذابا.. يكدون فى جمعها.. وعدها. ويشتد خوفهم عليها. ويتألمون لو فرض عليهم بذلها. وقد تؤخذ منهم بالقوة.. إلى جانب عذابهم الموصول من أجل أولاد صاروا لهم سوط عذاب.

وكيف تعجبك منحة صارت فى حس أصحابها محنة.. يحسون بمرارتها.. ويشعرون بأنهم لا شىء.. وها هم أولا غير مقتنعين بما هم فيه.. فيتمسحون بكم أنتم الأعزاء.

﴿ **وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ**﴾

خائفون جدا.. ودائما.. منكم أنتم لدرجة أنهم كما قال الشاعر:

زعمتم أن إخوتكم قريش لهم إلف وليس لكم إلاف

أولئك أُومِنوا جوعا وخوفا وقد جاعت بنو أسد وخافوا

وقد بلغ من خوفهم أنهم: لو يجدون ملجأ.. فى أى مكان.. أو مغارة فى أعلى جبل.. أو سردابا فى أسفل مكان.. لولوا إليه كالفرس الجامح.. لا يرده لجام..

ومع هذا الخوف الآخذ على النفس أقطارها.. يتوقحون أحيانا فيعيبون قسمة الرسول العادلة.. والتى يواجهونها بالموقف الغريب: إن أعطوا منها.. رضوا.. وهذا أمر منطقى مع طبعهم.. وإن لم يعطوا منها..إذا هم أى وقعت المفاجأة المدلول عليها بإذاهم.. أنهم يسخطون.. فعلى أى شىء يسخطون وهم لا يستحقون؟!!

ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله لكان خيرا لهم.. لكنهم ما يزالون يعيبون.. ولكن: إن الحشرة التى تلسع الجواد الأصيل.. تظل حشرة.. ويبقى الجواد الأصيل أصيلا.

وقد يحقق التافه نصرا مؤقتا.. ولكنه لن يحقق غرضه فى هزيمة الشرفاء.. ذلك أن الفأر الفائز بالجائزة فى سباقه مع رفاقه من جنسه.. سيظل مع الجائزة فأرا!!

سورة التوبة: من قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ﴾

إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ﴾ [٦٠ ـ ٧٤]

إذا كان للفرد سعيُه المقدور لتحصيل المال.. فإن ذلك لا يخفى حقيقة أن الله تعالى هو الذى منحه القدرة على كسبه.. فهو سبحانه المالك الحقيقى.. ومن حق الله تعالى عليه. أن يضع هذا المال حيث أمره واهبه سبحانه:

وذلك قوله تعالى: **﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** الآيات..

وتلك هى مصارف الزكاة: للفقراء والمساكين.. وقاية لهم من السؤال الذى يذل الرجال.. وللذين يحصلونها.. فرارا بهم من الرشوة.. أو التحايل.. وحماية لهم من الوقوع فى المحظور. وقليل من الحلال.. خير من كثير الحرام. ثم لهؤلاء الذين دخلوا فى الإسلام حديثا.. لكن العزيمة فى قلوبهم ما زالت ذبالة تتراقص فى مهب الأطماع.. فلنمدها بقليل من الزيت.. لتقوى.. ولتصبح سراجا وهاجا..

وهؤلاء المقيدون بسلاسل العبودية وأغلالها.. لهم فى هذا المال نصيب ينقلهم إلى دنيا الأحرار.. ليكونوا جندا وسندا لدين جاء أساسا من أجل حرية الإنسان.. أما الذين حملتهم هممهم العالية فبذلوا المال للإصلاح بين الناس.. وباتوا على الطوى.. فلهم أيضا نصيبهم.. تشجيعا للهمم العالية.. لتواصل سعيها المبرور فى النجدة.. وغوث اللهيف.. وتبقى للمرافق المعطوبة ميزانيتها.. لتأخذ الدولة مكانها تحت الشمس.. فاتحة ذراعيها لابن السبيل.. الغريب.. ليحس أنه فى وطنه الثانى..

وأنت تلاحظ صعوبة التكليف هنا: فالمال شقيق الروح.. وأنت مكلف ببذله طائعا.. وتبذله بلا عوض.. وهذا دليل صدقك.. ومن هنا ذكر الزكاة بلفظ الصدقة إعلانا عن هذا الصدق.. وإذا كان للمال حركته الإصلاحية الآنفة.. فإن

للبذل آثاره الكبرى فى تزكية النفس: إنه يطرد الشح.. والطمع.. ويعمق الإحساس بهوان متاع الدنيا.. ويترتب على ذلك: هدوء البال.. وتوسيع مجرى السعادة فى مسارب النفس.. بهذا البذل المتجدد على ما يقول المتنبى:

فيوما بخيل تطرد الروم عنهمو ويوما بجود تطرد الفقر والجدبا

هذا هو الإسلام.. وذلكم هو رسوله.. وتلك هى المبادئ التى تسعد بها الدنيا.. وقد استجاب لها أصحاب القلوب الطاهرة.. والألسنة العفيفة.. أما المنافقون.. فقد قابلوا النور بإغماض عيونهم.. ثم أطلقوا لألسنتهم المغرضة لتتهم الأبرياء بما ليس فيهم.. وكان للرسول من هذه التهم نصيبه:

قالوا: هو أذن.. مجرد أذن.. نصبُّ فيها ما نريد.. فيصدقنا غفلة وذهولا.. وإنه أكذلك أذن.. ولكن ليس على الوجه الذى قلتم.. بل هو أذن خير لكم.. وهذه دلائل خيريته: يؤمن بالله.. ويصدق المؤمنين.. ثم هو رحمة للذين آمنوا منكم.. من حيث قبل منهم الشهادة.. ولم يكشف لهم سترا. ومع ذلك يؤذونه: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

مع هذا العذاب المعجل ما يشعرون به من صراع نفسى.. يغطونه بالحلف ليرضوكم أيها المؤمنون.. ولو كانوا صادقين لأرضوا الله ورسوله.. أوّلا.. لكنهم لم يفعلوا.. ذاهلين عن المصير المرعب الذى ينتظر من حاد الله ورسوله..

ومن لطف الله تعالى بالأمة أن يزيدهم بصرا بملامح عدوهم ليعرفوه.. ثم ليحذروه:

إن المنافقين فى ثورة الشك يخافون أن يفضحهم القرآن.. بين لحظة وأخرى.. فيتحفظون.. ولكنهم يشبعون رغبتهم فى النيل من رسوله حين يستهزئون بقدرته على مواجهة الروم فى تبوك.. فإذا عوتبوا فى ذلك اعتذروا. وكان عذرهم أقبح من الذنب: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾

وليس بعد الكفر ذنب.. وهكذا النفاق والمنافقون دائما: ﴿بعضهم من بعض﴾

كلهـم أروغ من ثعلـب ما أشبه الليلة بالبارحة

فليس فيهم من فتى مطيع فلعنة الله على الجميع

لعنة تلازمهم دائما.. كما حاقت بإخوة لهم فى الضلال من قبل.. هؤلاء الذين سرتم على طريقهم فى الإضلال.. وخضتم فى مثل ما خاضوا فيه.. واسمتعتم كما استمتعوا فى الدنيا بما قدر لكم ولهم من نعيم.. لا قيمة له.. ولا ثمرة إلا الخسران المبين.

ولقد يكون القوم معذورين لو أنهم فقدوا دلائل الهدى.. ولم يأتهم نبأ الظالمين من قبلهم منذرا لهم.. ولكن النذر جاءتهم من (قوم نوح...) ومن بعدهم.. وكيف دمر الله عليهم.. وللكافرين اليوم أمثالها.

ويبقى المؤمنون دون سواهم صناع الحضارة: بالإيمان.. وبالتناصر والتعاون.. ثم بالنقد الهادف تقويما للمعوج.. وإقام الصلاة.. إقبالا على الخالق.. والزكاة شفقة على الخلق.. طاعة لله ورسوله.. أولئك سيرحمهم الله تعالى رحمة تسعدهم فى الدنيا.. وفى الآخرة.

أما الكافرون والمنافقون فلهم حساب آخر: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾

وإذا صنع المضلون من أوهامهم حائط المبكى فذرفوا دموع التماسيح متخذين من هذه الآية دليلا على تعطش الإسلام إلى الدماء.. فإنا ندعو المنصفين إلى وقفة متأملة تكشف معالم الحق المبين بقدر ما تنسف دعاوى المبطلين:

١ ـ فالأمر هنا بالجهاد.. فلم يقل له قاتل.. أو اقتل.. وإنما هو الجهاد. الذى يكون باللسان. كما يكون بالسنان.

٢ ـ ومَنْ هؤلاء الذين أمر بالشدة فى معاملتهم: إنهم ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾.. فهم كذابون.. ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ فهم من الكذب فى ذروته حين ستروا الحق حتى لا يشع سنى من ضيائه.. ﴿وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾ فى مؤامرة أريد بها هز قواعد الإيمان فى قلوب البسطاء... ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾

فى محاولة يائسة لاغتيال الرسول.. ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

لقد كانوا قبل مقدمه محاويج فى ضنك من العيش.. فلما جاءهم الرسول سال الوادى بين أيديهم خضرة.. فهل يجعلون شكر الله أن يقطعوا اليد التى امتدت إليهم بالإحسان؟ ومع ذلك فباب التوبة مفتوح لمن شاء منهم أن يستقيم:

﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾.

سورة التوبة: من قوله تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾

إلى قوله تعالى ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [٧٥ ـ ١٠٠]

يقول الحق سبحانه ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآيات.

هذه قصة واحد من المنافقين.. يرغب عن حياة البساطة. والقناعة والرضا.. إلى حياة الغنى الباذخ.. فلما استجيب إليه.. تبين أن الغنى بالنسبة إليه كان شلالا هادرا لم يسعه قلبه الضيق.. فكان حتفه فى غناه..

لقد أكد عهده مع الله سبحانه: ﴿لئن آتانا من فضله.. لنصدقن﴾.. وليس هذا فقط: بل لنكونن طول العمر مع الصالحين..

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

وهى نتيجة متوقعة سلفا من رجل يكشف عن خبيئة نفسه بصور من التوكيد يخفى بها تمرده الدفين.. فلما جاء وقت التنفيذ سقط فى الامتحان.. وبقى موقفه درسا يحذر كل من يحتطب فى حبله.. ممن تخاصم أقوالهم أفعالهم..

هؤلاء الذين: حين يقولون.. يعربون.. ولا يلحنون. وحين يعملون.. يلحنون.. فلا يعربون.. على حد قول الشاعر:

لم نؤت عن جهل ولكننا	نستر وجه العلم بالجهل
نكره أن نلحن فى قولنا	ولا نبالى اللحن فى الفعل

ولكن لماذا أعطاه الحق سبحانه وهو العليم بمآله؟

إنه الدرس الذى يهز ضمائر المؤمنين.. ليتعلموا.. وعلى الطبيعة.. أن الغنى ليس هو غاية المراد من رب العباد.. وهذا هو ذا مصير ثعلبة.. شاهد بذلك..

فنحن إذن نتعلم على هذا النموذج الردىء كيف نعتصم بالرضا. كهذا الذى قيل له: لم لا تعتق عبدك سيئ الخلق هذا فقال: أستبقيه.. لأتعلم عليه الحلم!!

ونتساءل هنا: هل حقق هذا المنافق لنفسه كسبا؟

إذا كان رصيده فى البنك قد زاد.. فقد نقص فى قلبه معين الإيمان.. بل انحسر الإيمان بالكلية.. وحل محله النفاق.. وما يستتبعه من تمزق.. وحيرة لا تبقى للثروة فى نفسه مذاقا: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾.

هو ومن على شاكلته وكان هذا النفاق المغروس فى قلوبهم ﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

وهكذا تسقط الممارسة العملية للانحراف.. على باطن الإنسان فإذا هو.. خواء... ولكن.. من أى معين آسن تسيل هذه الممارسات الكاذبة الخاطئة؟

من الجهل بأن الله تعالى.. علام الغيوب.. فكانت هذه الخيانة.. وكانت أيضا.. تلك الجرأة على قسمة رسول الله.. وعلى ما يقوم به صحابته من عمل صالح. ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وحين يرمون المؤمنين بدائهم وينسلون.. فقد حرموا أنفسهم من بركة استغفارك.. فلا تستغفر لهم.. فلن يغفر الله لهم.. لأنهم كفروا.. فأقاموا بالكفر حجابا مانعا من الهدى.. واكتفوا بلعاعة من الدنيا.. فرحوا بها.. نافرين من الجهاد.. محذرين سواهم منه.. فرارا من وقدة الحر.. وهذا الحر نفسه.. ليستعيذ من حر نار جهنم يوم القيامة ﴿ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.. ولأنهم لا يفقهون.. فإنهم مع وضوح نفاقهم.. قد يستأذنونك فى الخروج مرة أخرى.. ناسين أو متناسين تلك القاعدة: إذا كنت كذوبا.. فكن ذكورا!!

فإذا استأذنونك ﴿لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾.. مكانكم فى الدور مع النساء والصبيان:

كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

إن المقاتل الشريف على ما قيل:

أنا الزائد الحامى الذمار وإنما ... يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلى

وهؤلاء ليسوا أمثالكم: فقد حرموا أنفسهم من شرف الجهاد.. فلا تشرفهم

بالصلاة على ميتهم أو الوقوف على قبره ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾..

ولا يعجبك ما يملكون من زخرف الدنيا.. لأنه وسيلة عذاب.. نجاك الله تعالى من الطموح إليها. والفتنة بها.. وإذا كان ولابد من إعجاب.. فليعجبوا بك.. هم.. ذلك بأنهم ببصائرهم المطموسة يستقبلون واردات الوحى بالتهرب من مسئوليات النضال راضين بالقعود مع ذوات الحجال!.. بينما محمد والذين آمنوا معه: ﴿جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

فأين الذين يتقلبون فى حضيض الذلة والمسكنة. من المؤمنين الذين كانت الخيرات شعارهم.. فكانوا أصحاب الجنة خالصة لهم.. إنه الإيمان الذى يُزوِّد المؤمن بسليقة التضحية والإيثار.. فإذا هو عميق.. ضارب الجذور.. بلا قاع.. وقمة بلا نهاية لا تقاس بالذراع.

وبينما الأرذلون يبذلون طاقاتهم فى التدلى.. إذا بالإطهار يستثمرونها فى الترقى.. إنهم لا يفعلون ما يريدون.. لكنهم يفعلون.. ما يؤمرون. من أجل ذلك: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

وأين ذلك الفوز العظيم من ذلك الموقف الذميم" حين جاء المعذرون من الأعراب.. يعلنون أسفهم لتخلفهم المقصود.. ليست هناك نسبة على الإطلاق.. وتبقى أنت ومن معك من المؤمنين على القمة أبدا.. حتى من حبسه العذر من الضعفاء والمرضى والذين لم يجدوا ما ينفقون.. فلا حرج عليهم..

﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

كلكم محسنون.. وما دامت النية خالصة.. وما دام الضعفاء قد بذلوا ما فى وسعهم من القول الطيب.. السديد.. فهم معكم على القمة.. بلا تفريق.. إنما الحرج..

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

وتأمل الفارق البعيد.. البعيد.. بين شباب يستدبرون ملاعب الصبا.. وآمال الزوجة والعش الظليل.. رغبة فى الجهاد الذى يقدمون على ساحته دماءهم ليظل الحق مرفوع اللواء.. ثم لمَّا لم تسمح موارد الدولة بنقلهم إلى أرض المعركة.. لم يكن ذلك عذرا فى أيديهم يتمسحون به.. ولكنهم سكبوا الدموع الغزار التى لم يكونوا يملكون سواها.. وشرفهم الحق تعالى بأن سجل ذلك الموقف الخالد فى كتابه المجيد.

وهؤلاء هم أتباعك يا محمد حقا.. أما هؤلاء الذين يعتذرون نفاقا ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لماذا؟ ﴿إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ غير قابلين للطهر.. أذلاء.. لا يصبرون على مغارم العزة.. قد تكفَّلت النار بعقابهم.. فلا داعى لعتابهم.. ولا لتصديقهم مهما أكدوا اعتذارهم بأوكد الإيمان. ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.

فاعرفوا عدوكم بأماراته.. ولا يخدعنكم القول المعسول.. وخاصة هؤلاء الأعراب. الذين هم أدخل الناس فى الكفر والعصيان..ومع ذلك: فمنهم من يحسب الزكاة ضريبة.. ويزعمونكم أعداءهم.. فيتربصون بكم.. ومنهم كذلك مؤمنون ليتقربون إلى الله بما يبذلون..

وليفهم الدرس أولئك الذين يعزلون أنفسهم عن المجتمع.. متخذين موقفا صارما من كل ما لا يدين باتجاههم.. زاعمين أنه من ليس معهم فهو عليهم.. ذلك بأن الله تعالى لم يحرم حزبا.. ولا تجمعا من عنصر الخير.. مهما كانت أخلاق مجموعته.. فلا تحرموهم من سماحتكم لأن الله تعالى الذى قال: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾

هو الذى طهر بالإيمان بعضهم من المنفقين الصادقين وقال عنهم: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ مع السابقين من المهاجرين والأنصار.. أرأيت.. كيف يعفو الخالق.. القادر.. الرازق.. ثم يغلق الباب فى وجهك بشر ضعيف.. مخلوق.. مقدور عليه.. مرزوق؟!

سورة يونس: من قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنبِئُونَكَ﴾
إلى قوله تعالى ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [٥٣ ـ ٧٧]

أحس المشركون بالزهو بما يملكون من قوة وحيلة.. فأملى لهم غرورهم أن يتساءلوا عن حقيقة الإسلام ساخرين: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾

وجاءهم الجواب: أولا: يثبت أنه الحق قطعا: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾

وثانيا: السخرية مما يملكون من قوة وتناصر لن يعصمهم من عقبى هذا الغرور إذا جاءت: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾

ما أنتم بغائبين من عذاب لو رأيتموه لفزعتم وتمنيتم أن لو كان لأحدكم ملء الأرض ذهبا. إذن لجعله فدية له من هذا العذاب الأليم.. وهيهات أن يكون له ذلك.. ولو كان.. لما قبل منه.. ولم يبق إلا الندم يحتويهم.. فى وقت لا ينفع فيه الندم.. وإنما ينفع العدل المطلق يقضى به القادر على العقاب.. سبحانه ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ولقد يكون موقف المعاندين مفهوما لو جاءهم الرسول بألغاز عصية على الفهم.. أو أحاديث خرافة لا تغنى عن الحق شيئا.. ولكن ما عذرهم والذى جاءهم: موعظة تلمس القلب.. فيبعد على سناها.. ما هو الحق وما هو الباطل.. فتبرأ القلوب من هواجس الشيطان وشكوكه بعد أن حسم اليقين الموقف.. ونُصبت على جانبى الطريق الطويل أعلام الهدى.. وتنزلت شآبيب الرحمة على قلوب استعدت لتلقيها.. وما يلقاها إلا المؤمنون. وذلك هو الكنز الذى يجب أن يفرح به الإنسان لا ما يزهو به من حطام:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

إن فلاحا بسيطا يغيب وسط الحقول.. يملك قلبا صافيا.. راضيا.. موقنا.. يتوسد عند المساء يدا عاملة يحبها الله ورسوله.. ثم يبيت مغفورا له من طول ما عانى.. هذا الفلاح أسعد بأيامه التى صارت بالمغفرة أعيادا.. أسعد من هؤلاء

الذين أفسد الكبر فى قلوبهم طعم النعمة التى بها يزهون. . وما أكثر النعم التى يملكون. . لكنهم من فرط الجهل. . لا يفرحون!

ويا ليت الكبر ينتبذ بالمستكبرين مكانا قصيا حيث لا شأن لهم بمجرى الحياة. . غير أنهم يحاولون أن يفرضوا إرادتهم على المجتمع حين يجعلون من أنفسهم سلطة تشريعية تتحكم بالهوى فى مصائر الشعوب بلا إذن من الله.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾.

ثم ما هو تصوركم لموقفكم يوم القيامة حين يناقشكم ربكم الحساب على هذا العدوان: ﴿ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

أيحسبون أن الأمر حينئذ فوضى فلا يجازيهم على ما قدمت أيديهم؟

ذلك ما لا يكون. . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾. كل الناس ـ ولكن أكثرهم لا يشكرون. . أما القلة منهم وهم المؤمنون فإنهم يعرفون نعمة الله ثم يشكرونها. . ومن هذه النعم أنهم فى حماية الله تعالى. . العليم بكل شيء. . المجازى كلا بما عمل. .

وللأولياء من المؤمنين امتياز خاص. . . إنهم لا يخافون لأنهم بالإيمان مطمئنون. . ثم هم لا يذرفون الدموع على ماض أخذوا منه العبرة. . وتزودوا به لمستقبل واعد كريم. . وفى الوقت الذى يأكل الخوف والحزن أعمار المنحرفين. . تحملهم البهجة السارية فى أنفسهم على الانطلاق. . والعمل. . وزيادة النتاج. .

وإذن. . يا أيها المسلم ﴿لا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾.

إن المستقبل لكم. . وهو أبدا يناديكم فامضوا حيث تؤمرون. ودعكم من الذين ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ فإنهم يستندون إلى جدار مائل. . ويبنون وجودهم على كومة من الرمال. . ومما يحملكم على الانطلاق ما سخره لكم من قوى الطبيعة التى تعطيكم بإذن الله أسرارها. . فلتمض قافلة الإيمان. . ولن يضيرها عواء ذئاب تجيد صناعة الافتراء. . وعلى خالقهم سبحانه. . وإن لهم مع

العذاب موعدا لن يخلفوه..

فاشغل نفسك بعرض حقائق التاريخ الموثق.. تطرد بها أوهامهم:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ إذ تحدى قومه أن يجمعوا كل ما يملكون.. ثم لتكن المعركة على أرض مكشوفة بلا لف أو دوران:

﴿ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾.. وافعلوا ما شئتم جميعا.. بلا إمهال.. فإن أدركتكم من الله رحمة فبها.. وإن توليتم فما لهذا التولى من سبب حيث إنى لا أطلب منكم أجرا..

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾.

ومضى المعاندون من قوم نوح طعمة للحيتان.. ولم يتوقف لمماتهم سير الحياة.. فقد أرسل الله ﴿مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾.. جاءوهم بالبينات.. فأعادوا سيرة الغابرين من المكذبين الذين طبع الله على قلوبهم بما قدمت أيديهم من سوء.. وما تقولته ألسنتهم من كذب توارثوه..

وكان فى طليعة هؤلاء المكذبين: فرعون: الذى أرسل الله تعالى إليه موسى وهارون.. فاستكبر ومعه الملأ من قومه ثم ترجموا الاستكبار إلى حملة إجرامية أرادوا بها إطفاء نور الله تعالى.. بالإضافة إلى ما افتروه من حملة أريد بها التشويش على دعوة الحق بالتهم الباطلة من مثل ما أشار إليه تعالى: ﴿ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾

إن تهمة السحر الموجهة إلىَّ.. ما كان ينبغى أن تأتينى منكم بالذات.. وقد شاهدتم بأعينكم أن ما جئت به ليس سحرا.. ولو كان.. ما أبطل سحر السحرة.. ولكنه العناد يلوى الألسنة فلا تنطق بالحق..

وذلك أيضا قدر الدعاة الذين تقف بهم أقدارهم فى ظروف صعبة.. غير أنهم بالصبر الجميل يشقون الطريق إلى المستقبل المأمول.

سورة هود: من قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَحنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢٤ ـ ٥٣]

إذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها.. فقد ضرب الحق تعالى للكافرين والمؤمنين مثلا يحدد ملامح الحزبين.. ليصير البعد بينهما كما بين المشرقين:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَىٰ وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾

فلا يستويان حالا: فإن الكفر بلادة فى الحس.. وغباء فى الفكر العاجز عن رؤية البراهين المنبثة فى الكون.. فلا استطاع الحس الهامد أن يتذوق ما فى الكون من جمال.. ولا قدر الفكر على تجاوز المشاهد ليقف على أسرار الغيب. أفلا تذكرون؟

إن الحق سبحانه ينشط ذاكرتكم الخاملة بقصة نوح عليه السلام.. لعل فيها تبصرة وذكرى.. لقد أنذرهم بالعذاب إن لم يؤمنوا.. وتَحَمَّل أعيانهم مسئولية التصدى لدعوة الحق متذرعين. بحجج كمثلهم واهية: أنت بشر مثلنا.. فبأى شىء فضلت علينا؟

وما نرى أتباعك إلا الفقراء المنبوذين الذين آمنوا بلا روية ولا تبصر.. وما معك من ذوى المركز المرموق أحد يكون على دعواك شاهدا. وبناء على ذلك فلا فضل لكم علينا إطلاقا.. ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ فيما تزعمون.

وهكذا يعلمنا القرآن أن نعرض وجهة نظر الخصم بأمانة..وهكذا يفعل الأقوياء..ثم نكر عليها بالدليل..لتتوارى خجلا. وهكذا يرد القرآن هذه المزاعم:

أولا: أخبرونى: إن كنت على حجة شاهدة بنبوتى.. فعميت بصائركم عن رؤيتها.. أفنكرهكم عليها؟ وما قيمة البذرة تدفن فى أرض جامدة غير مستعدة للإنبات؟!

وهأنذا بشر.. كما أنكم بشر.. لكننى فضلت برحمة الله.. وحرمتم أنتم من نعمة الهداية.. فكيف تنكرون فضلا هذه شواهده؟

ثانيا: لو كنت أطلب على التبليغ أجرا لكان لهذه الظنون سندها.. لكنى أطلب الثواب عند من أرسلنى سبحانه.. وكان الظن أن يقنعكم ذلك بحقيقة ما أدعوكم إليه.. وعجيب أن ترفضوا الإيمان.. ثم تطلبوا طرد الذين آمنوا لتخلو الحياة من عنصر الخير. ثم تعبث الذئاب فى حقل غاب حارسه!

وإذن فلست محققا رجاءكم بطرد هؤلاء الذين تحملوا معى مسئولية الدعوة.. وحسابهم على الله الذى سيوفيهم أجورهم.. أما أنتم ففى غمرة الجهل ساهون فتطلبون المحال.. وإلا.. فلو أننى طردتهم فمن يعصمنى من عقاب ربى؟

أفلا تذكرون فتعلموا أننى لا أدعى الغيب.. ولا الغنى.. ولا أقول لكم أنى ملك.. ومن كان كذلك فهو من جنس هؤلاء الفقراء الذين أخبتوا لله وأسلموا وجوههم إليه.. فهو لا يطردهم.. وإنما على مرآتهم يرى مستقبل دعوته مثمرا مزهرا. ومن ثم فالمستقبل لهم.. فكيف أجردهم من خير استحقوه بإيمانهم.. إننى أكون ظالما لو فعلت.

ولقد جاء الكفار بما عندهم من هراء! وكيف تنتظر من الطبل الأجوف إلا الضجيج أمام الحجة الدامغة؟. ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ هات ما عندك نجم الفلك.. فنحن مستعدون!

ويظل الداعية موصول القلب بربه سبحانه.. والذى يرد إليه كل حول وطول: إن العذاب من الله تعالى.. وحين ينزله فلا نجاة منه.. أما وظيفتى فهى: النصيحة.. وما كان لهذه النصيحة أن تؤثر فيكم إلا بإذن الله..

ولا يسكت الباطل حتى يرمى بورقته الأخيرة زاعما أن الرسول قد افترى على الله الكذب..

ويرد عليهم الحق تعالى على لسان نبيه. بأنه لو حدث وافتراه فهو الذى يحمل وحده مسئولية افترائه.. لا هم..

وانظر كيف يصل الإنصاف بالداعية حدا أضاف إلى نفسه الإجرام فرضا.. ليهيئ بهذا الوصف عقولهم.. لتستشعر المجرم الحقيقى هنا.. وهو الكافرون ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وعندئذ ربما تفهم الدرس قبل فوات الأوان.

وحين يعلن البراءة من إجرامهم.. حين يبلغ الجدل نقطة اللاعودة يجيء الوحى فى وقته المناسب معلنا حسم القضية.. وأنه لا أمل فى إيمان القوم.. وتكفى القلة المؤمنة.. فلا تأس على قوم كافرين..

ولا تحاول استدفاع العذاب عنهم بعد ما ختم الله على قلوبهم.. واصنع الفلك برعايتنا.. ليمخر بك عباب الماء.. تاركا حزب الشيطان طعمة للحيتان!

ومع النذر المطلة من كل أفق.. نرى الجاحدين يسخرون! ولا بأس على الحق أن يقابل السخرية بمثلها: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾.

ولكنها السخرية المحكومة بالإيمان: فلتكن بقدر.. خالية من الإسفاف..

إن الفارغين يحاولون على مدار الزمان جر المؤمنين إلى معارك هازلة قد تورط الأطهار فيما لا يليق من القول.. ثم يحسبون ذلك عليهم. فلنتجاوز هذه الشباك المنصوبة.. تاركين السخرية الكبرى للحق سبحانه وتعالى والتى تمثلت فى: فوران الماء من التنور. تنور الخبز.. على غير المتوقع.. وبينما طفت جثث المكابرين على الموج.. مضى الفلك بالمؤمنين.. مع رسولهم.. ومن كل نوع ذكر وأنثى.. استعدادا لاستئناف الحياة بهذه البذور الطاهرة مرة أخرى.

وتجرى السفينة فى موج كالجبال.. وفجأة تستيقظ غريزة الأبوة فى كيان نوح عليه السلام فينادى ولده: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾.

قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم الله. وحال بينهما الموج.. وأمسكت السماء وغاض الماء ورسا الفلك على الشاطئ الآمن. ولما رجا نوح عليه السلام إنجاء ابنه.. ذكره ربه: إنها بنوة الروح لا بنوة النسب.

فلم يعد ابنا.. لأنه لم يكن صالحا.. وحرى بالنبى أن ينأى بنفسه عن سؤال مالا يعلم أحق هو أم لا؟

وفهم عليه السلام الدرس.. وهبط مع العصبة المؤمنة على الشاطئ مكللا برحمة الله وبركاته.. عليه وعلى الذين آمنوا معه.. ومن جاء بعدهم..

ويلفت الحق تعالى نظر نبيه إلى أن هذه القصة كانت غيبا ما عرفه إلا بالوحى الأعلى.. والذين يريدون الإيمان فعلا كان يكفيهم إخبارك بها.. فإذا لم يؤمنوا.. وعاندوا.. فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل..

ومنهم أخوك هود عليه السلام: الذى دعا إلى مثل ما دعوت إليه من التوحيد.. وحضهم على الاستغفار والتوبة سبيلا إلى العزة والمنعة فأبوا.. ولجوا فى غيهم.. ﴿إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة﴾.

سورة يوسف: من قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا بَنِيَّ ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [٦٧ ـ ٨٣]

تتحدث الآيات الكريمة عن يعقوب عليه السلام وهو يوصى بنيه: وذلك وقاية لهم من العين.. والعين حق.

وأيضا: حتى لا يثير مشهدهم الملفت حفيظة الملك. فلا يحققوا ما يريدون.. ولكن الشفقة البالغة على أولاده لا تنسيه أن كل شيء بيد الله تعالى. فلا يغنى حذر من قدر:

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ. وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ﴾.

فباح بهذه النصيحة مدفوعا بشفقته على بنيه.. وإذن فلنأخذ بالأسباب.. والنتيجة على الله تعالى.

ألا وإن غرائز الأبوة المتشبثة بالولد يجب أن تقف عند حدودها ليكمل القدر الأعلى قصة الإنسان طبق مشيئته سبحانه: **﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ ﴾.**

وبدأ تنفيذ الخطة.. حين أجلسهم.. اثنين.. اثنين... فلما بقى أخوه "بنيامين" منفردا ضمه إليه.. فتلافى بهذه الحيلة ما يمكن أن يثور من شبه قد تحبط الخطة الموضوعة. وحانت الفرصة ليؤنس أخاه الأثير بملاطفته والتودد إليه.

وبدأت المرحلة التالية من الخطة حين جعل المكيال فى رحل أخيه.. ثم أعلن فقده. متهما إخوته بسرقته. راصدا فى نفس الوقت جائزة لمن يجده.

ودافع الأخوة عن أنفسهم دفاعا مستميتا. وأراد يوسف عليه السلام أن يضع ادعاءهم على محك الاختبار فنادى بما تحكيه الآية الكريمة: **﴿ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ. قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾**

وعلى الفور بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل أن يفتش وعاء أخيه. نفيا للشبهة.. وإحكاما للخطة. التى تمت كمالا حين استخرج المكيال من وعاء أخيه.. وهم ينظرون.. ويتحسرون. وكان لابد من ضم أخيه إليه جزاء وفاقا.

ولو حوكم الأخ إلى نظام الملك لكان الجزاء: الضرب والغرامة.. وما أتيح ليوسف أن يضم أخاه إليه. لكن الله تعالى أنطقهم بما يحقق مراده سبحانه.

وهكذا.. ودائما.. ينصر الله أولياءه.. ويخذل أعداءه.. ليعلم الطاغون المعتزون بقوتهم أن مكرهم إلى زوال...وأن الله شديد المحال:

وليستيقن المؤمنون أيضا أن الحق تعالى لا ينصر أولياءه فقط لمجرد أنهم يعرفون الحق.. بل لأنهم يستخدمون ذكاءهم وكل إمكاناتهم فى التدبير للدعوة. حتى يصلوا إلى مراد الله تعالى.. بحسن التعامل مع الظروف.. ثم يكون النجاح خاتمة المطاف بإذنه سبحانه.

وهذا هو إكليل النصر يتوج الله به أولياءه.. فماذا هناك عند الطرف الآخر!

كان رد الفعل لدى الأخوة هو بعينه ما يكون فى قلب المهزوم: إنه التهم الباطلة يرمى بها الأبرياء.. وبلا حساب: ﴿ **قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ** ﴾.

لقد سرق يوسف وهو صغير أصنام جده لأمه التى كان يعبدها مع أن هذا الموقف له.. لا عليه!

ولكنها ظلمات الباطل تسرل لأهله فيهرفون بما لا يعرفون.. وعلى كل.. فهى تهمة الذين لم يجدوا فى الوردة عيبا فاتهموها بالحمرة.. وطيب الرائحة.. وهما سر وجودها..

وصدق الشاعر القائل:

إذا محاسنى اللاتى أدل بها   كانت عيوبى فقل لى كيف أعتذر؟

وكتم يوسف عليه السلام مشاعره وكان على ما يقول القائل: فكن كأنك لم تسمع ولم يقل!

ثم واجههم فى اللحظة المناسبة بأنهم أدخل فى باب الشر والظلم حين سرقوه صغيرا.. وما أبعد المسافة بين من يسرق حجرا.. ومن يسرق بشرا!!

وها هم أولاء يدفعون الحساب اليوم حسرة وضراعة واستسلاما ليوسف كما تشير الآية الكريمة: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

فانظر إلى تدبير الحق سبحانه: الصبى الصغير.. الضعيف.. تتآمر عليه العصبة أولو القوة.. فتلقيه فى البئر.. ثم هو الآن يتربع على العرش وهم بين يديه صاغرون.. يلحون.. ويرجون.. يمسك بزمام الموقف.. فيقطع الطريق على آمالهم بقراره الحاسم أن يلتزم التزاما صارما بما أسفر عنه التحقيق تجنبا للظلم: ﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾

ويا ليت الذين يشعرون بالضعف يوما إزاء خصم قوى غنى.. ليتهم يحيلون قضاياهم على محكمة العدل الإلهية.. وإذن فسوف يكون الحساب عسيرا.. لكن الضعفاء قد يحاولون تصفية الحساب بقدراتهم..

وعندئذ فسوف يكلهم الله تعالى إلى قدراتهم الهزيلة. ولن تفعل شيئا..

ثم يقول أخرهم ما حكته الآيات الكريمة: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ﴾.

ثم صمم على البقاء فى مصر.. إلى أن يعودوا إلى أبيهم ليخبروه... بما حدث ثم ليرجعوا إليه بفصل الخطاب.

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. ارْجِعُوا إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾

ولك أن تتصور تلك اللحظات العصيبة.. والتى يَمْثلون فيها بين يدى يوسف عليه السلام.. تلك اللحظة التى يحس فيها الظالمون أنهم لا شىء على الإطلاق.. وذلك من تدبير القدر الأعلى.. وفى ميقات يوم معلوم والذى

يُحمِّلهم من عذاب الضمير ما يزرى بكل ما حققوه من انتصارات زائفة.. فى الوقت الذى يتراءى المظلومون فى هالة من التقدير والإعزاز.. تؤكد أن النصر فى النهاية للمؤمنين.

وحين رجع الأخوة إلى أبيهم أحسوا بالضعف المستكن فى أنفسهم.. فطلبوا من أبيهم أن يسأل ليتأكد من صدقهم فيما زعموه: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾.

اسأل أهل مصر الطيبين الصادقين.... ثم اسأل القوافل الذاهبة معنا إلى مصر طلبا للطعام، والحبوب.. مصر الغنية الأبية المأمولة تنبئك بالخير... ولم تطل الحيلة على أبيهم فعاد بالموقف إلى سببه الحقيقى:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.

سورة الرعد من أول السورة

يقول الله تعالى: ﴿ الَمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الآيات [١ـ١٨]

مع أشعة الفجر البازغ. قد تسمع أذان الديك. فتستيقظ آخذا سبيلك إلى المسجد.. لصلاة الفجر.. إلى هنا والأمر عادى.. بيد أنك لو سمعت صهيل فرس نافرة فى ذلك الوقت فلسوف تنهض مهر ولا لتقف على حقيقة ما حدث.. تنهض وبكل طاقة النهوض فيك لتتعامل مع أمر غير عادى.. فاجأك بلا إنذار

نذكر ذلك عندما يصافح أسماعنا: ألف.. لام.. ميمْ... ثم نتصور السامع العربى عندئذ يستقبل شيئا لم يألفه.. فيُصيخ بكل طاقة الإدراك فيه.. وذلك بعض ما يفهم من استفتاح السورة بهذا النسق الغريب.. بعثا للانتباه..

وخروجا بالمستمع من حياته الرتيبة الملول ليتحمل مسئوليته الجديدة.. ليصل فى النهاية إلى الإقرار بالعجز أمام هذا الإعجاز: الإعجاز بهذا الإيجاز الذى يتحدى العربى.. وكأنما يقول له: استفت قلبك.. وإن أفتاك قرناء السوء وأفتوك: هل تستطيع أن تخلق ذبابة؟ مع أن عناصر تركيبها مفرقةٌ بين يديك.. فكذلك.. لن تستطيع أن تأتى بمثل هذا القرآن.. مع أنه مؤلف من حروف.. هى أيضا بين يديك.. وإذن..فلم يبق إلا التسليم بحقية تلك الآيات. تلك.. البعيدة.. البعيدة.. الآيات: المضيئات.. الكاشفات كل حجابٍ مانع من رؤية الحق.. وشأنُ مُنزِل هذه الآيات ألاّ يُنزل إلا الحق: فأمره سبحانه.. عدل.. ونهيه.. حكمه.. وأخباره.. صدق ومهما تخرص الكذابون.. فهى فوق.. لا تطولها يد التحريف.

ومع أن للناس عقولا.. لكن أكثرهم عَطَّل هذه العقول: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يؤمنون.. جهلا.. أو عنادا.. أو إهمالا.. إنهم يرون الحق. ولكن من خلف زجاج من اللجاج يفصل عنه

وهب أن الفطرة مطموسة تحت ركام من الخطايا.. أو ليست لهم عيون ترى؟

إذا عميت البصائر.. فلتنظر النواظر.. لترى هذه السموات مرفوعةً.. وبلا عمد.. وإنهم بالنظر المجرد.. لَيَرَوْنها كذلك.. رفعها مَنْ استوى على العرش سبحانه.. وبقوته وحكمته سيّر الكون الهائل على أوفى معانى الانتظام:

﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾ ﴿كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾..لتحسوا فى النهاية ببرد اليقين بخالق هذا الكون المكين. ومن الآية السماوية إلى الآية الأرضية.. وذلك قوله تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾**.

مَدَّها: للاستقرار.. ثم أمدها بعناصر النماء.. لتزكو.. وليكون الاستمرار.. ثم ثبّتها بالجبال الرواسى.. ضمانا للأمان.. وأجرى فيها أنهارا للحيوان والإنسان.. والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس..

ومن شكر هذه النعم.. هذه الآيات.. أن نتفكر فيها.. وإنها لآخذة بأيدينا إلى الحق. وقد أخذت بالفعل قلة مؤمنة.. أبصرت على ضوء الآية الكريمة كيف كان التعبير بمد الأرض إشارة إلى كرويتها.. فى الوقت الذى كانت أوروبا فى عصور الظلام تحرّق من يقول بكروية الأرض!

إن للناس كلهم عقولا.. يكون بها الإدراك.. والتكليف.. لكن عقل التصرف الموصل للرشد.. خاصيةُ المؤمن.. أما الملحدون فقد شردوا حيارى فى تيه من الأوهام..

وكل الناس ـ بعدما غرقت السفينة وقصّروا فى إنقاذها كلهم يعرف كيف يتم الإنقاذ.. كلهم يتحركون.. لكن عما ذا نبحث.. وكيف؟ تلك هى المشكلة!

المشكلة فى أذهان الملحدين هناك أما المؤمنون.. فإنهم يتفكرون.. ويخرجون من التفكير بالنتائج المستقيمة:

فقد خلق الله من كلٍّ زوجين: إنها أصناف متعددة.. حتى الصنفُ نفسه متعدد. إنها إذن: القدرة التى لا تحد.. والعلم الذى لا ينتهى.. ولن تستطيع الطبيعة العمياء الصماء أن تفعل ذلك.. ومثلها عابدوها: الذين لا يفقهون قيلا.. ولا يهتدون سبيلا: قلب مغلق.. ولسان بالكذب مطلق!

وفى الأرض قطع متجاورات وجنات.. لكنها مختلفات الأشكال والألوان والطعوم.. وتلك حقيقة بسيطة.. بليغة.. يدركها كل الناس.. إن فى ذلك لعبرة للدعاة بخاصة.. وللناس بعامة.. الدعاة: الذين يقتبسون من منهج الإسلام فى الدعوة ضرورة تقديم الدليل الأوضح أولا.. رفقا بالمدعو.. وحرصا على تقديم ما يُعينه على الإيمان.. تأسيا بتقديمه تعالى الدلائل السماوية هنا.. لأنها من الوضوح بحيث يدرك عظمتها: العالِمُ.. والأمى. على سواء.

ولقد كان المتوقع أن يعلن المخاطبون إسلامهم بعد هذه الآَيات التى تمسك بخناقهم: من فوقهم.... ومن تحت أرجلهم لكنهم لم يفعلوا فكانوا فى الكائنات عجبا: لأن حقيقة البعث المنبثة فى الكون هكذا تصرخ فيهم.. لكنهم لا يستجيبون.. لأنهم من الكفر فى سجن عالى الأسوار.. مقيدون بالأغلال: أغلالِ أوهامٍ جمدتهم.. وجعلتهم رصيداً مدخرً للنار.. وبئس القرار.

إن الحق تعالى لم يخلق هذه الآيات لسياحة عابثة لاهية.. ولكنه تعالى خلقها للعبرة.. ثم الاعتبار.. ولكن الجاحدين تجاهلوها.. بل استهزءوا بها مستعجلين ذلك العذاب.. مسجلين على أنفسهم ضعف الذاكرة إلى جانب جمود العقل.. ﴿**فقد خلت من قبلهم المثلات**﴾ الجوائح التى دمرت مَنْ قبلهم.. وللكافرين اليوم أمثالها.. ولكن الله تعالى يمهل.. ولا يهمل:

﴿**إن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب**﴾

ولاحظ قوله تعالى: ﴿**إن ربك لذو مغفرة**﴾ كيف كان الأمر هكذا طبعيا. لكن قوله تعالى: ﴿**وإن ربك لشديد العقاب..**﴾ وكان المتوقع أن يقول سبحانه ﴿**وإن الله لشديد العقاب**﴾ وكأنما يقول لهم:

لا يغرركم تقلبكم فى البلاد سالمين غانمين.. ولا تُلْهكم تلك النعم التى أفاضها عليكم ربكم.. إنه حقا المنعمُ المتفضل.. ولكن لا تنسَوْا هذه الحقيقة التى تفرض نفسها.. إن ربك هذا.. المنعم.. هو هو شديد العقاب. فاحذروه على أنفسكم.. إن أخذه أليم شديد!

ومع أن الجاحدين يتقلبون فى نعمه تعالى.. رافلين فى حلل من مغفرته. إلا أن ذلك لم يزِدْهم إلا ضلالا. وفى غمرة الأغلال التى جمدتم.. أغلالِ الشبهات

والشهوات يهرفون بما لا يعرفون... يطلبون آية.. مع أن بين أيديهم آيات.. دلائل الهدى تغمرهم.. لكنهم بدل ما يتفكرون.. يتعجبون.. بل ويهرّجون..

فدعك يا محمد من تهريجهم.. إنما أنت مذكر.. وقد ذكّرت.. لقد انتهى دورك. وحَسْم القضية بأيديهم لو كانوا يريدون الهداية. وحسمها لا يكون بالعناد أو المهاترة.. وإنما بإصاخة السمع والبصر والبصيرة لتدرك عظمة هذا الخالق.. وشدة عقاب من كفر به:

إنه يعلم ما تحمل كل انثى.. حتى الحشرة.. وهو إبهام يتوه فيه الخيال.. وبمقدار: يخلق السبب.. ثم يسخره لنا.. ونحن جميعا فى قبضته.. وإذ يبحث الإنسان عن سعادته فهو مبدأ التغيير.. تغيير المسير: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسم..﴾**..

فليغيِّر الوجهة بالإيمان: مع هذا الكون: المسبِّح.. مع الرعد والملائكة.. فرارا من نقمته سبحانه وتعالى.. وفرارا من هذه الصورة.. صورة الكافر: الذى هو مثل من يجلس على حافة بئر عطشان.. يمد كفيه.. لا كفا واحدة..

ولكن الماء هناك فى قعر البئر.. فلا الماء يصعد إليه.. ولا هو يبلغه.. لا الماء يستجيب.. ولا الكافر يُغيِّر خطته.. وسيظل كذلك حتى يموت عطشانا!

وكذلك الكفار: تخذلهم أوثانهم.. فالعابد عاجز.. والمعبود أعجز.

فأصبحتُ فيما كان بينى وبينها   من الود. مثل القابِضِ الماءَ باليد!!

ولكن خط الرجعة واضح المعالم لمن شاء أن يعود إلى ربه طائعا.. كهذا الكون الطائع الساجد.. لرب الكون بريئًا من شركاء لا يملكون له نفعا ولا ضرا.. مؤثراً الحق الباقى.. على الزبد الذاهب جفاء مدركا لحظة ستأتى يوما.. يندمون.. ولات ساعة مندم:

﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

سورة الرعد: من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ..﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلا.. ﴾ الآيات: [١٩-٤٣]

تحدد الآية الكريمة مفهوم العمى.. على عكس ما يعرف الناس:

فالبصير حقا هو من عرف الحق. وعمل به.. ولو فقد حاسة البصر.. والأعمى هو: من لم يوظف جوارحه لرؤية الحق. والالتزام به:. وإن كان فى عرف الناس بصيرا.. ونذكر هنا قول ذلك الضّرير المعتز بإيمانه وهدايته:

يقولون الضرير فقلت كـلا بلى والله أبصر من بصير

سواد العين زار بياض قلبى ليجتمعا على فهم الأمور

وأين منه ذلك المبصرِ فاقدُ البصيرة.. إنه على ما يقول الشاعر:

يا ناظرا يرنو بعينى راقد ومشاهدا للأمر غير مشاهد

وانتفاء التسوية بين النموذجين حقيقة واضحة يشير إليها ما فى الآية من إنكار **﴿أفمن يعلم﴾**؟

لقد صارت قلوب المهتدين وعاء للإيمان.. وجوارحهم مسخَّرة للعمل بمقتضاه إنهم حقا أولوا الألباب الذين يتذكرون دائما أنَّهم مؤمنون.. ويفرض عليهم الإيمان أن يكونوا جُنْدًا له بما تسلحوا به من ثمرات هذا الإيمان: وفاءً بالعهد.. **﴿يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾** وقد تفرض عليهم المعركة تضحيات.. وإنهم ليصابرون هذه الشدائد. جاعلين من الصلاة نورا.. ومن الصدقة برهانا.. يمشى بين أيديهم.. وفى طريقهم إلى دار النعيم قد يعترهم سفهاء يبذلون فطرة العدوان فيهم.. فلا يجدون إلا أن يطيعوا الله فيهم.. بالحسنات يواجهون بها السيئات.. لا تشغلهم سفاهة السفهاء عن أداء حق الله تعالى: بالصلاة.. وحق المجتمع بالإنفاق.. وحق المسلم بالصفح الجميل.. ليكون الجزاء من بعدُ.. من جنس عملهم: صحبةٌ مباركة مع الأحباء.. فى روضات الجنات.. وفى أنسٍ دائمٍ.. فى ظلال من تسليم الملائكة عليهم **﴿ مِّن كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾**.

هذه خصائص الذين علموا أنما أنزل من الله الحق.. فأين منهم أولئك العُمْىُ الذين لا يبصرون فلا يهتدون؟

إنك لتجد نفسك أمام صورة القبح تزداد قبحا.. إزاء الجمال الأخاذ يُتَوِّج هامة المؤمنين..

فالكفار ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾ فرحين مغرورين بما أنعم الله به عليهم زاعمين أنهم أهل لنعمه سبحانه.. مع أن بسط الرزق وقبضه خاضع لمشيئة الله تعالى.. لا لزُرْقة عيونهم ونباهة مراكزهم..

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ جزاء إنكارهم الحق فى وضح النهار فقالوا: ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾

مع أن الآيات أوضح من أن تؤكَّد.. وأكثر من أن تحصى.. ولكنه التمزق الذى هو نضح الترف.. سوَّل لهم ما يهرفون.. بينما المؤمنون.. بما منحهم الإيمان من وقار واطمئنان.. فى جنة الدنيا قبل أن يدخلوا جنات عرضها السموات: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

وأنت واجد فى صفات الكافرين هنا وجه الكفر الكالح. يطل على الحياة من جحوره.. ولكن وجه الإيمان ممثلاً فى المؤمنين.. المصلين.. المزكين.. الأوفياء.. يقطع عليه الطريق.. فينسخ الله مايُلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته.. ليظل وجه الحياة بالحق جميلاً..

وليت الدعاه يفهمون.... يفهمون أن الباطل.. يتحرك.. يدبر مؤامراته.. فإذا لم يتحرك الإيمان بمثل هذه الخصائص التى تحلى بها المؤمنون هنا. وقف مدة الزاحف.. وخلا الجو للملحدين يعيثون فى الأرض فساداً..

ولقد تحرك المؤمنون فعلاً بقيادته ﷺ.. ولكن النتائج لم تكن دائما كما يشتهى الدعاه.. وكان لابد من عزاء وسلوى يسوقه تعالى إلى قلب رسوله ﷺ.. والذين آمنوا معه.. بأن الكافرين وإن حققوا يوما نصرا وقتيا.. إلا أن العاقبة للتقوى..

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ.. ﴾

وتأمل.. كيف يكون استمرار الكفران.. أمام فيض الرحمن.. لتعلم أنهم لايحملون في صدورهم قلوبا.. فلا تأس على قوم جاحدين..ولا يأس معك المؤمنون فقد كان يكفيهم القرآن هاديا.. لكنهم لا يريدون.. فانتظر قارعة بعد قارعة تحل بهم.. جزاء استهزائهم بالحق كإخوة لهم فى الضلال من قبل ويبقى أن يتأمل الدعاة آداب الحوار من هذا القرآن.. وفى هذه الآية الكريمة ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ﴾

إن الساق هنا يشكل حركة التفاف سريعة ومحيطة بالكفار ليقول لهم إن كنتم تعرفون أن أصنامكم آلهة فعلا.

أولا: فصفوهم لنا لنعرف من صفاتهم صلاحيتهم.

ثانيا: أم أن الأمر فى وهمكم هو : أنكم تخبرون بآلهة لها سلطان فى الأرض والله سبحانه لايعلم بها ؟فما هو دليلكم الحسى؟!

ثالثا: أم أن الأمر مجرد قول باللسان.

وهكذا.. يشل الداعية حركة المدعو فيصيبه بالشلل.. وبلا صدام... فإذا سكت المبطل .. كشف الداعية عن السبب الحقيقى وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾.

فلا تنتظر هدايتهم .. ولكن انتظر عذابا يحل بساحتهم ﴿فى الدنيا والآخره﴾.

ولعذاب الآخرة أشق.. لما يرون حينئذ من تنعم المؤمنين فى جنة ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ .. وظلها دائم كذلك .. ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ ..

ومن عذابهم المعجل فرح أهل الكتاب بما أنزل إليك من القرآن.. ولئن أنكره بعضهم.. فاثبت على ماأنت عليه .. لا يستخفنك الإقرار ولا الإنكار .. داعيا ربك .. منيبا إليه.. معتزا بما معك من القرآن رافضا أهواء قوم ينكرون الشمس فى رائعة النهار:

فـ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ تلك هى الحقيقة التى فيها يحاورون .. فماذا أنت صانع مع الذين لا يجهلون .. بل يتجاهلون ؟

كل ما هو مطلوب منك هنا : أن تترقب نهاية هذا الصراع لمصلحتك .. هذه النهاية التى قد تراها .. أو لا تراها .. ولكنها واقعة ولاريب .. وفى ميقات يوم معلوم .. المهم هو البلاغ .. وعلى أحسن الوجوه وقد فعلت .. ويبقى الحساب: ومن بعد الحساب : العقاب.. العقاب الذى سوف يؤكد للمؤمن الذى يعترف حيئذ وكأنه لم يذق مرارة قط... والذى يستشعر فيه الكافر العابث اللاهى أنه لم يذق نعيما قط... وذلك هو الجزاء العادل .. والذى يحل بأناس رأوا من دلائل الهداية فى السماء والأرض . ما يؤكد قدرة الله تعالى الذى ﴿يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

سورة إبراهيم: من قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ ..﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ..﴾ [١٢ ـ ٤٤]

عندما استنكر المشركون أن يكون الرسل بشراً، ثم طلبوا دليلا على دعواهم الرسالة، بين لهم الرسل أن الإتيان بالدليل مردود إلى مشيئته سبحانه، وأن مهمتهم البلاغ وقد بلغوا ولم يبق أمام هذا العناد إلا التوكل على الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا . . ﴾.

أىّ عذر لنا فى عدم التوكل بعد ما هدانا سبحانه إلى معرفته، ومن فاز بشرف العبودية فحرى به أن يستديمها بالتوكل الذى هو ثمرة الإيمان وبالصبر الذى نكابر به الطغيان. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾.

وأثار الجواب الواثق المطمئن غضب المشركين الذى وضعوا المسلمين أمام خيارين. لا ثالث لهما: إما الإخراج من الأرض. أو العودة إلى الشرك.

وأسقطوا الاحتمال الثالث وهو: دراسة حقائق الرسالة وصولا إلى الإسلام، كاشفين عن نزعة الجبارين الراغبين فى الحياة وحدهم، وعلى من يريد الحياة أن يدور فى فلكهم! وهذا ظلم مُهَدد بالزوال من حيث كان خللا فى بناء الكون ينبغى إصلاحه بالهلاك ليبقى الأصلح الجدير وحده بالحياة:

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ. وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

ومن آذى جاره أورثه الله داره! وحين يصمت المؤمنون انتظارا للفرج فيما يشبه الهدوء الذى يسبق العاصفة، فقد يحسب الطغاة أنهم على شىء، وهاهم أولاء يطلبون الفصل بين الفريقين متعجلين نصرا لا سند له.

ويأتيهم الجواب: خيبة للجبارين ونصرا للمؤمنين. . . ولا يموت الجبار كغيره مرة واحدة، ولكنه يموت ألف مرة، بل إنه لا يموت فى النار ولا يحيا على ما يقول الشاعر:

فأصبحت كالهيماء: لا الماء مبرد صداها ... ولا قاض عليها هيامها

وهو مصير مناسب لأناس صارت أعمالهم هباء كرماد عصفت به رياح عاتية فتناثر بعيدا كضلالهم ذلك البعيد! !

ذهبوا.. وبقيت الحقيقة التي رفضوا وهي البعث: الذي يشهد به خلق السموات والأرض، ذلك الدليل الذي يفهمه الفيلسوف والفلاح البسيط على سواء فمن قدر على الخلق من عدم. كان على جمع الموجود بعد تناثره أقدر.

وها هو ذا السياق يطوي أعمارهم طيا، فإذا هم في عرصات القيامة التي أنكروها بارزين: يتلاوم التابعون والمتبوعون الذين تركز الآية عليهم حين باعوا أنفسهم وتنازلوا عن كرامتهم اغترارا بأناس مثلهم، لا يقدرون على إنقاذهم اليوم من عذاب محيط بالجميع.

ومن جدال البشر إلى جدال الشيطان الذي يعترف بالحق بعد فوات الأوان: **﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾**.

لم أفرض عليكم الكفر وإنما كنت مجرد داع يوسوس إليكم وإذا كان ولا بد من لوم فلوموا أنفسكم ذاكرين الحقيقة التي تفرض نفسها.

لا أستطيع إنقاذكم. ولا أنتم بمنقذي لقد كفرت بما كان بيننا في الدنيا من شرك بان عواره.. إن قرار المعصية قرار إنساني لا شيطاني بمعنى: أن الله تعالى وهبك العين تبصر بها الأشياء.

وفي ضوء الشرع عرفت أن هذا حلال، وهذا حرام... فإذا ملت إلى أحدهما فالقرار قرارك، ولم يكن للشيطان إلا مجرد الوسوسة. يلقيها في خاطرك صورا تشتهى. فإذا خرجت من الحصن الآمن إلى حيث يتفرد بك الشيطان فأنت الملوم.

أما الذين استعلوا على دعوته فرفضوها فأولئك هم المؤمنون الجديرون بجنات: **﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾**.

وكان هذا النعيم المقيم ثمرة الكلمة الطيبة كلمة التوحيد التي تشبه شجرة طيبة... سامقة: بعيدة عن عفونات الأرض باقية متجددة. دائمة العطاء بقدر ما كان الكفر شجرة هزيلة استأصلت. كأن لم تكن، وهكذا الكافرون.

وهكذا: الجزاء من جنس العمل: يَثْبتُ المؤمنون على الحق، فتقوى بالممارسة الصالحة ملكات الخير فى قلوبهم فإذا هم أمام الأحداث كالجبال الرواسى... بينما الكافرون الفارغون من نوايا الخير يسقطون عند الضربة الأولى!

ويكتمل الدرس هنا ليتجه به السياق إلى المعاندين من كفار مكة تعجيبا من إصرارهم على الكفر، ودروس التاريخ تصرخ بهم أن يفيقوا. ولكنهم مستمرون فى العدوان: جعلوا شكر النعمة كفرا بالمنعم سبحانه.

وأحلوا قومهم دار الهلاك، إذ جعلوا لله أنداداً تعالى عما يقولون.

وحين يسكر النعيم هؤلاء فعلى قافلة الإيمان أن تجعل متعتها الدائمة فى ممارسة الفضائل الإنسانية. صلاة، وإنفاقا فى كل حال. من قبل أن يأتى يوم لا يفوز فيه إلا المصلحون المنفقون.

ويفتح السياق باب التأمل فى مشاهد الكون مرة أخرى تجديداً للأمل فى عودة الآبقين إلى خالقهم سبحانه، بعد ما يرون نعمه فى: السماء، والأرض، والبحر هذه النعم التى تفوق العد، ومع ذلك يظلم الإنسان نفسه حين ينساها،وحين يذكرها يملّها!

وها هو ذا إبراهيم عليه السلام أمام الإنسان على الطريق رمزاً للشاكرين فلتكن لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه:لقد هبط بأهله فى أرض جرداء. فاتجه إلى الله بالدعاء أن يصلحها لتكون مستقراً ومقاما بالأمن السابغ، والعقيدة الصحيحة. وإقام الصلاة التى هى مستراد الأمل، وطوق النجاة،والكلمة الباقية التى يرجو أن تظل فى عقبه.

ثم تمتد به الآمال ان يظل نهر الخير جاريا فى البلد الآمن، جاذبا إليه قلوب العشاق من كل الآفاق... راجعا بالأمر كله إليه سبحانه، واثقا أشد الثقة بوعد ربه بعد ما أكرمه بالإنجاب وقد بلغ من الكبر عتيا.

ولا يبقى إلا تهديد الغافلين بهذه الحقائق الدامغة: بيوم يرجعون فيه إلى الله أذلاء صاغرين. مسرعين إلى الداعى رافعى رؤوسهم لا تطرف أعينهم من هول ما ترى. وأفئدتهم هواء خالية من كل خاطر، فلم تُبق فيها الحيرة ما تفكر فيه!.

ويالها من حسرة تلك التى تحتوى الظالمين الراغبين فى عودة يجيبون فيها دعوة الرسل. ولكن هيهات: لقد كنتم تزعمون أنكم باقون فى دنيا لا تزول ولقد زالت على عكس ما كنتم تظنون ولم ينفعكم البناء الشديد ولا الأمل البعيد.

سورة الحجر: من قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي ..﴾ الآية: ٤٩
إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيم﴾ من سورة النحل آية ٧

يقول سبحانه وتعالى فى سورة الحجر:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ الآيات.

يتلطف الحق سبحانه بعباده فيضيفهم إلى نفسه تعالى مغالاة بقيمة الإنسان:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي ..﴾ المتقين منهم، والشاردين، واشهد يا محمد على أنى وبكل تأكيد: أنا الله دون سواه: الغفور الرحيم: أستر ذنوب التائبين، وأمسح على جراحهم برحمتى لتلتئم الجراح. ثم لا يقول تعالى: وأنا المعذب وإنما يقول سبحانه: ﴿ وَأَنَّ عَذَابِي﴾ ترهيبا ومن بعيد، وأحيانا يلوح الحكيم بعصا العز، ثم لا يضرب بها، ولله المثل الأعلى.

ومن مجالى هذه الرحمة وذلك العذاب قصة إبراهيم عليه السلام إذ اقتحم الضيوف داره بلا استئذان، وفى وقت غير مناسب، فخاف منهم فقالوا: لا توجل، إنا نبشرك بغلام ذكر، عليم، يناديه مستقبل واعد.

قال: أبشرتمونى؟ كيف وقد بلغت من الكبر عتيا؟

هل سيعود الشباب؟ وكيف يعود ماض تولى؟ أم أننى سأنجب فى شيخوختى؟

إنها بشارة بما لا يمكن تحقيقه فى العادة. ويجيئه الجواب على أعلى صور التوكيد: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴾. ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾.

الجاهلون بأنه تعالى عليم قادر. أما ما سمعتموه منى فهو انفعال الفرح الطاغى بتحقق أمل عذب حبيب.

وأحس الخليل بأن للقوم مهمة أساسية غير البشارة التى كان يكفى لها واحد،

فسألهم عنها ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾. ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾.

لنهلكهم إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين باستثناء الزوجة، فهى من الباقين المهلكين.

فلما جدد الخليل استفساره منكراً لهم، أكدوا له أنهم جاءوا بالعذاب الذى أنكروه فسر بأهلك فى هدأة الليل، ولا يلتفت منهم أحد حتى لا يفزعه ما حل بالمجرمين... أما أعداء الحق فلن يبقى منهم أحد غدا.. وها هم أولاء يستعجلون نهايتهم حين جاءوا فى مظاهرة صاخبة تطلب الضيوف من أجل الفاحشة.

وبينما إبراهيم عليه السلام محرج بين ضيوفه الداخلين فى حمايته، وقومه الذين لم يحفظوا له عهدا، تبين لهم أن هناك طريقا أطهر على سنة الله تعالى، فى هذا الوقت ينكر عليه قومه أنه لم يمكنهم منهم، فحققوا معنى الإجرام لغة واصطلاحا:

إن من معانى الإجرام: القطع. وقد قطع هؤلاء القوم كل صلة بالمثل العليا.

إن الممارسة الشرعية تكون فى السر. بل إن الحيوانات كما أشار صاحب الظلال تحاول أن تتوارى عن الأنظار. ولكن هؤلاء يريدون المنكر وفى وضح النهار، فهم مجرمون مقطوعو الصلة بالفطرة الصافية ومن ثم فلابد من إهلاكهم.

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴾ وقت الشروق أخذتهم ولم تبق منهم شيئا... وانقلبت بهم المدينة فكان عاليها سافلها وأمطرها الله تعالى بالطين المتحجر وقطع دابر الذين قطعوا كل صلة لهم بالحياة.

وقد بقيت بطريق عامر لم يندثر. بقيت آية، بل آيات للمتوسمين إنه التوسم لا مجرد التأمل، ويعنى التدقيق والتفرس وفى هذه البقعة بالذات. وإن تعجب فعجب أن يختلف بعضنا حول قضية بلاغية أو نحوية فى هذه الآية الكريمة... أو مثلها، بينما تنطوى على إشارة علمية أدركها الأجانب حين اكتشفوا أن لفظ المتوسمين لم يرد إلا هنا، فنصبوا خيامهم هناك، وأفادوا من العناصر التى صعدت من باطن الأرض إلى أعلاها، فغنموها، وصدروها إلينا دواء، وسلاحا ومتاعاً!!

ثم استوردناها بعملة ندخرها للضروريات! إلى هنا وما زال مسلسل الظلم مستمراً:

وإن أصحاب الأيكة الشجر الكثيف لظالمين. فانتقمنا منهم.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ. وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ. وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾.

لقد أسندوا ظهورهم لحضارة مادية مكنتهم من نحت البيوت فى الجبال، وسقطت الحضارة المادية، لأنها فقدت عناصر وجودها واستمرارها وهكذا كل حضارة تنكبت طريق الحق... سقطت فى الوقت الذى اتخذت من الغرور مركبا. وظن أهلها أنهم قادرون عليها. وعند الشروق وعندما يفوز المؤمنون بقبلة الشمس عند الصباح وهم فى الغرفات آمنون عندئذ يسقط الماديون من حيث لا يحتسبون بل إنهم ليخربون بيوتهم بأيديهم.

وهكذا لا تغنى الحصّون إذا جاء ريب المنون، وكان لا بد من أخذهم، لأن الله تعالى خلق الكون بالحق، وقد اقتضت حكمته أن يأخذ من الطريق اللاحب كل نشاز فى لحن الكون المتناسق ليتم التجاوب بين المُحِقين وهذا الكون الكبير.

وعلى فرض أن الطغيان بدا منتصرا يوما، فإن الساعة آتية لا ريب فيها وسيلقون فيها جزاءهم.

وإذن فاصفح عنهم الصفح الجميل والذى يحملك عليه أمران:

أولا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾: خلقك وخلقهم، وسوف يفتح بينك وبينهم بالحق.

وثانيا: ما آتاك الله من نعمة القرآن العظيم، وآياته المجيدة التى تُثْنَى وتكرر مواكبة هذه الحياة بالترشيد.

ومن أوتى القرآن فظن غيره خيراً منه، فقد صغر عظيما وعظم صغيرا. فلا تمدن عينيك اشتياقا إلى ما متعنا به بعضهم، ولا تحزن عليهم، فالمقام هنا لا للحزن، وإنما للتآلف الذى من الله تعالى به عليكم، فانشر على حزب الله تعالى

جناح الرحمة، ليحزَن الأعداء بمرآك ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ أنذركم بهذا الوحى وأنذر الذين قسموا القرآن أجزاء وتفاريق فقالوا: بعضه حق، لأنه وافق الكتب قبله وبعضه باطل لأنه لم يوافقها فى محاولة فاشلة لإنزال القرآن من مكان الصدارة العالى.

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هؤلاء الذين جعلوا القرآن عضين وأيضا بعض المسلمين اليوم الذين يوشكون بسوء تصرفهم أن يكونوا من المقتسمين.

فعلى المستوى الدولى: فإنها تؤمن بقوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾ كما قيل بحق فتصوم وفى نفس السورة: ﴿كتب عليكم القصاص﴾ فلا تلتزم به!

وعلى مستوى الأفراد: يسارعون فى الالتزام بسنة من سنن العادة، ثم ينسون سنة الإسلام فى توقير العلماء. والتماس الأعذار للناس!وإذ يتألق الحق فى يديك دون هؤلاء الذين يعادونك فتقدم ولا تتردد واقذف بقبس النور جدار الظلام ليطلع الفجر الصادق من بين يديك.. تقدم فالجو مهيأ لك... فقد كفاك الله شر المشركين وشر المستهزئين.

وصحيح أنك بشر يجيش صدرك بالحزن النبيل لما يقولون ولكن اعتصم بالله تعالى منزها حامدا ساجدا حتى يأتيك اليقين:

الموت: هذه الحقيقة المنتصبة فى وعى المسلم لا تغيب لقد جاءت فعلا كما ذكرت سورة النحل التالية ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾.

لا تستعجلوه أيها المشركون،فقد جاء فعلا فلا مسوغ للتشكيك وكل ما فى الكون ينافى هذا التشكيك.

فالله تعالى ينزل الملائكة بروح الحياة وريحانها.

وهوالذى خلق الكون بالحق فأطالعه الكون الجامد.

أما الإنسان فهو كما وصفه ربه ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

وكان الظن أن يكون أسبق إلى التسبيح والتحميد لا سيما وعنصر الجمال الأخاذ منبث فى فطرة الكون شاهد بوحدانيته سبحانه.

ومنها: الأنعام بما فيها من دفء ومنفعة وجمال.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾

وقد سألت الفلاح البسيط يوما ذلك السؤال:

فى حديث القرآن عن الجمال يذكر تريحون قبل تسرحون بعكس ما هو واقع فقال: إن بقرتى أجمل منظراً فى عودتى بها عند المغيب. لأنها عندئذ مكتملة الغذاء.

وفهمها الفلاح البسيط وتوقف ابنه طالب العلم، وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

سورة النحل: من قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً ﴾
إلى قوله تعالى ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٧٥ ـ ٩٦]

إذا كانت الأشياء تتميز بأضدادها. فإن الحق سبحانه وتعالى يضرب الأمثال للناس فى معرض الحديث عن فساد ما عليه المشركون إزاء ما يستمسك به الموحدون لعلهم يذكرون فيؤمنوا وذلك قوله سبحانه:

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِراً وَجَهْراً﴾..

ثم.. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

والمعنى كما يقول الرازى: لو فرضنا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء. وفرضنا حرا كريما. غنيا. كثير الإنفاق سرا وجهرا... فصريح العقل يشهد: بأنه لا تجوز التسوية بينهما فى التعظيم والإجلال.

فلما لم تجز التسوية بينهما ـ مع استوائهما فى الخلقة والصورة البشرية ـ فكيف يجوز للعاقل أن يسوى بين الله القادر على الرزق والإفضال. وبين الأصنام التى لا تملك ولا تقدر ألبته.

(وكما تقرر فى أوائل العقول أن الأبكم العاجز لا يكون مساويا فى الفضل والشرف للناطق القادر الكامل ـ مع استوائهما فى البشرية ـ فَلأن يُحكم بأن الجماد لا يكون مساويا لرب العالمين فى المعبودية كان أولى).

وكيف تكون هناك تسوية بين الجماد وبين الحق تعالى وهذه دلائل ألوهية:

فله غيب السموات والأرض وحده سبحانه. وهو القادر على الإتيان بالساعة فى أقل من طرفة عين.. وكيف نذهب بعيدا وهذه دلائل. ربوبيته من واقع حياتنا:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾..

ومن شكره تعالى على هذه النعم. أن تدركوا بها آية الطير فى جو السماء.. والتى تحلق فى الجو ممسوكة بسنته تعالى فى الكون.. ثم هذه النعم التى تتقلبون فيها.. فى الحضر.. وفى السفر.. جعل لكم البيوت سكنا حين تقيمون.. وفى أسفاركم جعل لكم من الوبر والصوف قبابا وخياما سهلة الحمل.. ميسورة التكاليف.

وحتى إذا لم تكن خيام فأنتم مشمولون بظل الغمام.. والجدران.. رافلين فى ثياب تقيكم الحر والبرد.. ودروع تتقون بها سهام عدوكم.

وإذا وضحت الدلائل هكذا.. ثم لم يؤمنوا.. فلا عليك يا محمد. فوظيفتك البلاغ.. وقد بلغت.. وإذا بقيت فى قلبك بقية من أسى.. فاعلم أنك أمام صنف معاند لا ينقصه الذكاء.. وإنما ينقصه الوفاء:

إنهم ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ وإذا أمهلهم الحق سبحانه وتعالى وأرخى لهم فى الدنيا حبال الأمانى.. فإن ذلك لا يخفى حقيقة العذاب المرصود لهم يوم يبعثون.

ولهذا العذاب مستويات: إنه عذاب الحزن حين يطلبون الرضا.. فلا يجابون. ثم عذاب الإحراق الذى يحتويهم.. ثم لا يمهلون..

وفوق ذلك: عذاب الخزى حين يرون الأصنام التى كانوا يعبدونها فيحاولون رجع ضلالهم إليها فيكذبهم الشركاء كافرين بعبادتهم. ويُلقى الشركاء المتشاكسون أسلحتهم مستسلمين للحق تعالى.. بينما تتوارى الأمانى الكذاب كأنها السراب.

ومن العدل أن يحظى رءوس الفتنة بمزيد من العذاب جزاء ضلالهم أولا. وإضلالهم ثانيا:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ وفى حياتنا.. ما أكثر البسطاء الأبرياء.. الذين يحملون فى صدورهم قلوبا متطلعة إلى الهدى..

ولسوء حظهم تقطع عليهم الطريق شياطين من الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا.. فإذا بالقلوب التى كان من الممكن أن تتفتح كالزهر.. إذا بها تقذف بالغباء والجهل.. وتلطخ بالتهم الأطهار الأبرياء.. إنها تمضى معصوبة الأعين فى يد حفنة خَرَّبت ما فى قلوب البسطاء من عناصر الخير.. واستغلت براءتها فسارت بهم فى اتجاه العدوان.. وإذا لم تتسع الحياة لعقابهم.. وإذا سولت لهم أنفسهم أنهم أفلتوا من قبضة الشريعة.. فإن لهم يوما سيُبعثون فيه.. وسوف تشهد عليهم يا محمد. ولن يكون لهم عذر يدرأون به العذاب يومئذ.. بعد ما جئتهم بالكتاب. ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾

وإذا كانوا اليوم أحياء. وفى أعمارهم بقية.. فعليهم أن يراجعوا أنفسهم مقبلين على كتاب الله الذى يأمر بكل ما يصلح الإنسان.. وينهى عن كل ما يفسده. فيضع بمنهجه الراشد حدا لشقاء الإنسان.

إنه يأمر بالعدل الذى به يتكامل البشر.. حين تتآلف مصالحهم.. كتآلف عناصر الكون حولهم.. فلا يطغى أحد على أحد... ثم يفتح باب الإحسان لمن شاء المزيد.. شريطة أن تبدأ أيها المسلم بأقاربك الذين هم أولى بشفقتك.. وإلا.. فإن الذين يتجاوزون بالإحسان أرحامهم ليخصوا به البعداء.. لا شك أنهم على شعبة من النفاق. ولكى تبقى الحياة على صفائها: قائمة على العدل.. مشمولة بالإحسان فإنه تعالى ينهى عن كل ما يعكر صفاءها:

ينهى عن الفحشاء التى هى ثمرة القوة الشهوانية.. وعن المنكر الذى هو ثمرة القوة الغضبية... ثم عن البغى الذى هو ثمرة القوة الوهمية الشيطانية.. يعظكم الله بهذا.. ليبقى وعيكم متفتحا يقظا حتى لا تسقطوا فى مهاوى الضلال.

ويأخذ الوفاء بالعهد مرقعه المتميز بين الفضائل الإنسانية.. من حيث إنه يوفر الثقة اللازمة لتماسك الأمة. هذا الوفاء المطلق الذى تتعاملون به حتى مع الكفار.. فأوفوا بعهد الله.. وإلا فلو أخللتم بواجب الوفاء ونقضتم العهد مع قبيلة ضعيفة منحازين إلى أخرى. أقوى منها فإن شأنكم شأن تلك المرأة المجنونة التى أضاعت عمرها فى غزل يخرج من بين يديها قويا مجدولا.. وفى نفس

اللحظة تنقضه ليصير ضعيفا محلولا. إن الذين يتخذون العهود مزايدة.. والإيمان عذرا قد يحققون نجاحا وقتيا.. ولكن تصور العذاب الأخروى يمنعكم من ذلك.. وإذا تخلى المنحرفون والمزايدون عن المبادئ فحازوا ثروات طفيلية فأولئك هم الخاسرون.. أما الأوفياء الذين يمارسون الوفاء كشعار للإيمان فجزاؤهم عند الله عظيم.

﴿ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ. مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

سورة النحل: من قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلا ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[٦٤ ـ ٩٠]

يقول الحق تعالى:

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الآيات.

إذا كان القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.. فإن المتقين وحدهم.. هم المنتفعون به.. لأنهم الذين طوعوا أنفسهم للعمل به.. وأعدوا قلوبهم لاستقبال واردات هداه.. والتى خرجت بهم من ظلمة الاختلاف.. على يده ﷺ.. بينما أخلد المبطلون إلى الأرض.. واتبعوا أهواءهم.. فكانوا من هواهم واختلافهم.. فى مثل الليل البهيم.

ولكن.. إذا شق على هؤلاء المبطلين أن يروا أشعة الهدى المنبعثة من القرآن فتحيى القلوب.. فإن لهم فى مجالى الطبيعة ما يؤكد حقائق الشريعة:

﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

والفطرة السليمة ناطقة بصحة ما تقرره الآية الكريمة من تفرده سبحانه بالألوهية وهذا (زيد بن نفيل) يقول فى الجاهلية.. أنزل الله تعالى ماء للشاة من السماء.. وأنبت لها من الأرض نباتا.. ثم تذبح ولا يذكر اسم الله عليها؟

وقد قرر ألا يأكل منها.. قبل أن تكون شريعة أو قرآن[1]. وأخرى.. لم يفطنوا إليها.. وهى بين أيديهم.. فى مملكة الحيوان:

﴿ إِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴾..

---

(١) وليس المراد نزول الماء المباشر آليا. وإنما: خلق تعالى النظام الكونى المترابط، المتفاعل والذى يحدث بتفاعله نزول الماء، الذى يتفاعل مع الأرض فتزدهر وتثمر.

يخرج اللبن من بين الفرث.. وهو ما يتبقى فى الكرش بعد الهضم.. والدم.. يخرج خالصا مرئيا.. وبطريق غير مباشر... من خلال عمليات الهضم. والتمثيل الغذائى المتردد بين: الدم فى أعلى المراتب.. والفرث فى أدناها. فهل يبقى بعد ذلك عاقل يشك فى إمكان البعث؟

لقد صار الطين نباتا.. أكله الحيوان فصار دما.. ثم صار الدم لبنا.. ومَنْ فعل ذلك.. قادر سبحانه على أن يحول الميت إلى حى شاعر حساس. ثم يواصل السياق الحديث عن نعمة الخلق والرزق فى مملكة الزرع:

﴿ومن ثَمرَاتِ النَّخيلِ والأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾

من الرطب.. والتمر.. والعنب.. ثم فى مملكة النحل العجيبة.. وما كان من تدبيره تعالى حين أوحى إليها فاتخذت بيوتا من الجبال ومن الشجر.. ثم أكلت من كل الثمرات.. فخرج ﴿مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾..

وقد تفكر علماؤنا فى عجائب هذه المملكة ومن بين ما انتهى إليه التفكير أن عسل ما سكن الجبال من النحل أجود.. ومن أجل ذلك تقدم فى الذكر على غيره.

ثم رأينا نحن كيف تقدم ذكر اختلاف الألوان على كونه شفاء للناس مع أهميته وربما جاز لنا أن نقول: مع أن الشفاء أهم.. من اختلاف الألوان.. لكن الحق تعالى يقدم اختلاف اللون ويؤخر الشفاء فى الذكر.. ففى الاختلاف جمال.. وعنصر الجمال لا سيما فى عرض حقائق الدعوة له دوره فى التأثير.. فرارا من الرتابة والملل. وربما كان إشارة إلى اتساع صدور الدعاة ليتقبلوا وجهة النظر المعارضة.. لتوضع على بساط البحث.. بعيدا عن التعصب الأعمى.. أو العنف القاتل..

ولقد كان ﷺ يدعو لا بالثوب الأبيض، ولا بالسلاح الأبيض.. ولكن.. بالخلق الأبيض! وإذا شهدت التجربة بزوال ممالك من النحل بعد رسوخها وازدهارها.. فكذلك شأن الإنسان الذى سيلقى نفس المصير:

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ حيث يختل الفكر. وتعتل الحواس.. إلا فكر العلماء وحواسهم والتى تظل بالعلم متألقه لا يعتريها ذبول..

وإذا قال عشاق الدنيا وهم يحترقون فى شيخوختهم:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

إذا قالوا ذلك فإن العلماء بالقرآن والعمل الصالح.. باقون.. وإذا طوحت بغيرهم لوائح البشر بعيدا ببلوغ ما يسمى: سن المعاش.. فإن خدم القرآن دونهم.. خالدون!

وقد تغيب هذه الحقائق على نصوعها فلا يستوعبها الإنسان الجاحد الكنود.. ومن ثم يحاكمه الحق تعالى إلى واقعه هو بهذه المعادلة السهلة:

إذا كان السيد منكم لا يرضى أن يشاركه مملوكه فى ماله.. كما يرفض أن يرد الزائد من ماله عليه ليستويا.. فكيف تجعلون الأصنام شركاء فى حقه على خلقه.

كيف ترضون للخالق.. ما لا ترضونه للمخلوق؟ ثم إن هذا مناقض لاعترافكم فى تلبيتكم بوحدانيته تعالى.. وذلك قولكم: لبيك لا شريك لك.. إلا شريكا هو لك.. تملكه.. وما ملك؟!

إنه التناقض المعيب.. وما يترتب عليه من تمزق:

وكثيرون أولئك الذين يتهمونك.. بينما ضمائرهم تصرخ بأنهم كاذبون.. لكنهم يعاندون.. ويمضى بهم العناد فى رحلة التمزق.. وتصورً إنسانا ينقسم على اثنين: نصفه يتهمك.. ونصفه يدافع عنك.. فكان ذلك نوعا من العقاب المعجل يخربون به سمعتهم بأيديهم.. بينما الأبرياء من الصدق فى المكان المكين.

وتبقى الحقيقة الكبرى فى الآية الكريمة وهى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ﴾.. تبقى لتهز وعى الذى غفل عن تقرير القرآن ضرورة التفاضل فى الرزق وكذب الذين أرادوا التسوية بينهم فيه.. ولقد صحا النائم أخيرا على دوى الانهيار الهائل لدولة كانت ملء الأسماع والأبصار.. لكنها لما ناقضت الفطرة..

بادت.. وتلك عقبى التحدى!

ولكن الإنسان ما زال ماضيا فى رحلة الغفلة: يعبد من دون الله ما لا يملك شيئا.. بل ليست له صلاحية التملك أصلا: ﴿وَلا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أن يكونوا ملاكا.

وعلى هذا الجاحد أن يتحسس واقعه ليقرأ من دروسه ما يفحمه:

هل يستوى العبد المملوك المقيد.. بالسيد الحر الطليق؟

هل يستوى العاجز الشؤم.. بالعادل الماضى على الخط المستقيم الواصل إلى نهاية الشوط بينما العاجز هناك يدور حول نفسه يثبت كروية الأرض؟!

وهل يمكن أن يظل المبطلون هكذا سادرين فى غيهم.. دون يوم يحاسبون فيه؟

كلا.. ﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾..

وكان عليكم أن تذكروا قدومكم إلى الحياة عاطلين من حليلة العلم.. فعلمكم ربكم لكنكم لا تشكرون.. ومع ذلك فما زالت رحمة الله تعالى ترشدكم إلى آياته فى الآفاق.. بعد آياته فى الأنفس لعلكم تؤمنون:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ﴾

والطيور: أجسام ثقيلة.. من شأنها أن تسقط.. ولكن القادر سبحانه جعل لها أجنحة وهيأ لها الهواء ليكون مجالا.. تسبح فيه. وهكذا أشعل القرآن الضوء الأخضر للأمة أن تدخل عصر الفضاء!

ومن نعمته سبحانه فى الفضاء.. إلى نعمته تعالى فى الأرض: جعل لكم من بيوتكم سكنا.. ومن جلود الأنعام بيوتا.. وسرابيل تقيكم الحر والبرد وتقيكم بأسكم.. فهل أنتم شاكرون.. فإن تولوا.. فقد أديت رسالتك.. ولا عليك من معاندين يعرفون.. ثم لا يعترفون!

ألا أن مصيرهم إلى يوم يرون فيه العذاب الذى لن يُخفف عنهم.. وأشد من

هذا العذاب تلاومهم المخزى مع من عبدوهم.. ويومئذ سيرفعون الراية البيضاء مستسلمين لقدر الله تعالى.. فى لحظات من خزى لا يساويه نعيم الدنيا..

ولْيتعزَّ المؤمنون الذين يحسون بالغربة يوما.. فسوف يرون فى أعدائهم يوما يكون من أهواله أنهم يريدون الاعتذار.. فلا يقبل منهم أن يعتذروا. ثم يواجهون بشركائهم الذين يرمونهم بالكذب. يكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا. وطوبى يومئذ للغرباء الذين آمنوا بالكتاب.. فكان هدى ورحمة لقوم يؤمنون.

سورة الإسراء: من قوله تعالى ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ [٩ ـ ٤٠]

قال تعالى:

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ الآيات..

فالقرآن الكريم بطبيعته مصدر الهداية إلى أشرف غاية.. ولكن الناس فى تلقيه فريقان:

مؤمنون يعملون الصالحات.. فهو لهم بشارة.. وكافرون لا يؤمنون بالآخرة.. فهو لهم نذارة..

وإذا سعد المؤمنون بهداه فى الدنيا والآخرة.. فقد تخبط الذين أساءوا التعامل معه.. ففقدوا الرؤية الكاشفة. لدرجة أن أحدهم ليدعو على نفسه بالشر.. وبنفس القوة التى يطلب بها الخير.. صادرا فى دعائه الطائش عن طبيعته المتعجلة الغافلة.. ولا عذر للإنسان فى هذا التخبط.. والكون من حوله شاهد بحتمية الإيمان:

فالليل والنهار آيتان من آيت الله تعالى.. الذى يُذهب الليل بإشراق الصباح. والذى يبصرِّ الإنسان بمواقع أقدامه.. فيسعى لتحصيل رزقه المقدر له.. ويضبط حساب أيامه ولياليه.. فما للإنسان يذهب فى الأرض حيران بينما دلائل الهدى تناديه؟! على كل حال: فله ما كسب. وعليه ما اكتسب.

فأعماله ملتصقة بعنقه لا تفارقه.. وسوف يقرأ كتابه المنشور.. وما يناله حينئذ من جزاء راجع أساسا إليه.. فهو الذى يخط لنفسه الطريق إلى الجنة.. أو إلى النار. ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾

وقد جاءه الرسول فعلا بالهدى.. فلم يكن عند حسن الظن به.. وإذن فليتحمل ما يصبه الله عليه من عذاب معجل عن طريق المترفين الذين سكت عن

فسوقهم فاستشرى. ولما اتسعت رقعة الفساد.. خر على الجميع السقف عدلا منه سبحانه.. وطبق سنته الماضية فى الأمم ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾.

إن الطريق واضح لكل ذى عينين: فمن شاء اتخذ لنفسه السبيل إلى الفساد أو إلى الصلاح: مع العلم بأن الله تعالى لن يحرم أحدا من عطائه فى الدنيا.. ولكن العبرة بالخواتيم:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا. وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا. كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾

فليختر كل إنسان لنفسه ما يحلو.. ولتعمل مشاعر الزهو بدرجات الدنيا عملها فى قلوب عليها أقفالها.. والموعد غدا: **﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾**

وعلى المؤمنين أن يتأملوا هذه الأمراض السارية فى قلوب الكافرين.. والناضحة على أبدانهم كبرا وخيلاء.. ليتجنبوا العين النجسة التى نضحت به وهى الشرك: **﴿ لا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً﴾**

وإذا قعد الشرك بأهله كسالى عاجزين.. مذمومين من الخلق.. مخذولين من الخالق سبحانه.. فليتحرك المؤمن بالتوحيد مرضيا عنه.. منصورا مأجورا.. ومن صور التعبد الشفقة على الخلق وفى طليعتهم: الوالدان.. وعند الكبر خاصة: لا تقل لهما أف.. ولا تسمعهما كلمة تضجر.. **﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾** خافضا لهما جناح الرحمة فى تذلل وتلطف.. باذلا أقصى جهدك.. فإن قصرت فاطلب من ربك تعالى أن يجبر نقصك: **﴿ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾**

فإذا بقى من والديك أحدهما.. فبالغ فى تكريمه.. لتعوضه عن رفيقه الذى ولى بعد الصحبة الطويلة وتركه وحيدا.. ولعل هذا سر التقديم فى قوله تعالى: ﴿ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا ﴾.

وفى مجال تكريم الوالدين قد يكثر الادعاء.. وقد يحصى الابن ما قدم لأبيه

من مال.. بينما هو متبرم به.. شاك منه.. فليحذر الأبناء. ﴿ **رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ**﴾

وإذا استطاعت الزوجة المشاكسة أن تقطع صلتك بهم. وفرضت عليك أن ترسل إليهم المعونة بالبريد.. فإن طريق العودة مفتوح.. فبادر بوصل ما انقطع.

﴿ **إن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً**﴾

ومن تمام بر الوالدين أن تبر أقرباءهما.. ﴿ **وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ**﴾

أعطه حقه.. بلا من ولا أذى.. وبلا تبذير يجعلك من حزب الشيطان.. وإذا ضاقت يدك عن إعطاء الأقرباء.. وغلبك الحياء فلم تنظر إليهم.. فلتقل لهم ﴿**قولا ميسورا**﴾ يجبر الخاطر الكسير

فإن تيسر المال بعد الإعسار.. فلا تكن بخيلا مغلول اليد.. ولا تكن مسرفا كل الإسراف. فرارا من اللوم. والندم.

وليكن العدل فى الإنفاق شرعة لك ومنهاجا تستبقى به المال فى جيبك لتصبح دائما أمل الفاقدين.. ولتصبح فى نفس الوقت على سنة ربك سبحانه وتعالى الذى بيده الرزق: يبسطه لمن يشاء.. ويضيقه على من يشاء طبق حكمته البالغة.

واستقرار هذ الحقيقة فى النفس مانعة من قتل الأولاد مخافة الفقر.. لأن رزقهم على خالقهم.. لا عليكم.. فاطمئنوا أيها الآباء الخائفون: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ**﴾

كما لا تقتلوهم قتلا معنويا بالزنا القاطع للأنساب.. الممزق أوصال الجماعة.. وتلك سمة مجتمع الإسلام: السلام.. السلام المانع من الفساد.. ومن قتل النفس إلا بالحق.. وإذا حدث وقُتل إنسان ظلما: فقد جعل الله لوارثه حق القصاص.. فليكتف بما شرع الله. بلا تجاوز إلى قتل من لم يقتل.

ومن تمام مسئولياتكم ألا تجمعوا على اليتيم فقد الوالد.. وضياع ماله فأحسنوا الوكالة عن اليتامى.. فرارا من ظلمهم وما يترتب عليه من فتنة متوقعة

يصبها اليتيم تمردا على مجتمع لم يقدره قدره يوم أن كان صغيرا.

والقرآن الكريم... الحريص على الحياة.. بتحريم القتل.. وعلى الأنساب بتحريم الزنا.. وعلى اليتيم بصيانة ماله ومشاعره.. هو نفسه الحريص على سمعة المؤمن: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾

ويلاحظ إفراد السمع والبصر هنا ليشعر كل مسلم بمسئوليته الفردية أمام ربه سبحانه عن تصديق كل شائعة تلوكها الأفواه المغرضة حول الأبرياء من الناس.. وعن كل حركة استكبار وخيلاء يراد بها إهانة الآخرين:

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾

﴿ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾

كل ما تقدم.. من صور الحكمة التي اختصك الله تعالى بها.. فاعتصم بها.. واجتنب الشرك.. وهو المتسنقع الآسن.. وعنه تصدر كل الموبقات.. ومنها ما يتشدق به الجاعلون مع الله إلها آخر من إضافة البنين إليهم.. بينما يجعلون لله البنات سبحانه.. وتلك واحدة من إفرازات الشرك.. فواجهها بما يكافئها من سخرية:

وقل لهم ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾.

سورة الإسراء: من قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَاراً﴾ [٥٠ ـ ٨٢]

حين زعم الكافرون أن لن يبعثوا بعد أن صاروا عظاما وحطاما رد الحق سبحانه عليهم بقوله عز شأنه:

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً . أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ الآيات

إن قدرة الله المطلقة لقادرة على إعادة العظم حيا كما كان .. بل لو كنتم حجارة أو حديدا وهما عنصران لا يتقبلان الحياة أصلا.. لأعادكم سبحانه كما كنتم.. فكيف بالعظام التى هى مما يتقبل الحياة التى تخللتها يوم أن كانت عنصرا من عناصر الجسم الحى؟

ومع وضوح الحجة هنا إلا أن المعاندين غير صالحين للإيمان.. وسوف تظل موجة النكران مستمرة.. مشفوعة بحركة الرؤوس استهزاء بالرسول.. وإعراضا عن الحق المبين ..

إلا أن الذى فطرهم أول مرة لقادر على إعادتهم.. وفى يوم قريب يدعوهم الله تعالى فيه إلى مصيرهم المحتوم فيستجيبون حامدين.. ذاهلين من هول العذاب.. ومع بلوغ العناد منتهاها.. فإن الدعاة مأمورون أن يحسنوا التعبير عن روح الإسلام: بدعوتهم بالتى هى حسنة؟ .. لا يكفى .. فلا بد أن تكون بالتى هى أحسن. وكلما ازداد المعاندون ضغنا.. ازداد الدعاة حسنا.. وكل إناء بالذى فيه ينضح. وبذلك نفوت على الشيطان غرضه في إثارة الفتنة..

إن الشيطان عدو.. وعدو مبين.. ومن العدل أن نتعامل معه على هذا الأساس.. فلا نشتبك مع الجاهلين اشتباكا يحقق أمانيه.

ومهما بذلتم على طريق الدعوة فأمركم بيد خالقكم سبحانه.. ﴿إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾..

هو وحده العليم القادر الحكيم: يفضل بعضا على بعض حسبما تقتضيه

مشيئته العليا سبحانه.. فاشغلوا أنفسكم بدوركم المحدد.. أما النتيجة النهائية فعلى الله تعالى. هذا هو قدر المؤمنين.. أما أنتم أيها الكافرون ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ﴾ آلهة.. وسوف ترون أنهم لا يملكون ابتداء رد الهلاك عنكم لو تقرر أن يصيبكم.. وإذا اتجه إليكم لا يملكون تحويله إلى غيركم..

وأكثر من هذا: فالملائكة الذين تزعمونهم أربابا عباد مخلصون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.. يرجون رحمته ويخافون عذابه. الحقيق بأن يحذر ويتّقى... واقرأوا التاريخ ينبئكم بما حل بالقرى المعاندة من هلاك. يتهددكم مثله لو استمر عنادكم.. وإذا كنتم تطلبون الخوارق على يد الرسول فلا يستجاب لكم.. فذلك من رحمة الله بكم. والذى اقتضت سنته أن يعذب بالاستئصال من رأى الآية المقترحة فلم يؤمن.. كما حدث بشأن الناقة.. ولما علم سبحانه أنكم لن تؤمنوا ولو جاءتكم كل آية.. حبس عنكم ما تطلبون رحمة منه وفضلا.

وقد يسول لكم الغباء أن عدم نزول الآيات طبق اقتراحاتكم عجز.. ثم سرتم فى مظاهرة تهتف بالشعارات المضللة زاعمين أن ذلك مما يخلخل الصف المؤمن.. إذا سول لكم الغباء ذلك فاعلموا أن قدرة الله محيطة بالناس جميعا.. ولتعلم أيها النبى ذلك وما يترتب عليه من ثقة بنصر الله والفتح!

فقد أراك مصارع كفار قريش.. إلى جانب شجرة الزقوم التى هى طعام الأثيم.. فامض لما أمرك ربك.. متجاوزا هؤلاء الأطفال الكبار.. الذين يخوفهم ربهم فلا يزيدهم إلا طغيانا كبيرا شاهدا عليهم بالخواء من كل عناصر الخير. إنهم قطيع من البلهاء كغثاء السيل.. فلا تأس عليهم.. وخذ نصيبك من المعاناة فأنت من ولد آدم.. وقصته مع إبليس معروضة عليك لتكون لك عبرة:

لقد رفض إبليس أن يسجد لآدم.. مهونا من شأنه.. وتوعد ذريته بالإغواء إلا من رحم ربك..

وقد أرخى له القدر الأعلى من حبال التمنى تاركا له فرصة إزعاجهم بصوته.. وكل صوت على طريقه يوقظ الفتنة النائمة.. وأن يجمع عليهم كل وسائل الإغواء والإغراء... مشاركا إياهم فى المال الحرام.. وقتل الأولاد.. إلا

عباد الله المخلصين فلا سلطان له عليهم

ويعود السياق مرة أخرى بعد هذه الجولة إلى تقرير وحدانية الله تعالى بلفت الأنظار إلى: أنه تعالى هو الذى يُجرى الفلك فى البحر.. وهو الذى ينجى من الضر.. وإذا كان سبحانه مالكا قادرا فمن أين يجىء الأمان للإنسان وهو قبضة القدر الأعلى؟

إن على الإنسان أن يخلع ثوب العناد ليرى كيف أكرمهُ الله تعالى وفضله على كل من خلق تفضيلا.. ليخصه بالعبادة.. قبل أن يأتى يوم تُدعى كل أمة بإمامها لتجزى كل نفس بما كسبت. هذا هو الحق.. فهل اعتبر الظالمون؟

أبدا.. إنهم أعداء أنفسهم يحفرون قبورهم بأظفارهم.. ويُخربون بيوتهم بأيديهم: حين يحاولون صرفك عن الدين الذى هو حياتهم.. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تميل إليهم.. ثم هاهم أولاء يحاولون إجلاءك قسرا وقهرا.. ولو قد فعلوا لكتب الله عليهم الجلاء الفورى سنة منه فى الظالمين.

وعدتك الكبرى فى مواجهة هذا الصنف العدوانى أن تستمسك بالذى أوحى إليك: أقم الصلاة.. متهجدا بعض الليل رافعا شعارك الخالد: **﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا. وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾**.

واعلم. وقبل أن يزحف الأسى نحو قلبك الودود.. اعلم أنه لا ينتفع بالقرآن. إلا المؤمنون الذى يصير لهم شفاء ورحمة.. لأنهم ارض خصبة مباركة.. أما الظالمون فلا يزيدهم إلا خسارا.. إنهم قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ.

إن الماء الذى يصير فى حلوق قوم سلسالا عذبا فراتا.. سائغا للشاربين.. هو الذى تتلقاه نفوس معتمة كالزجاجة المعتمة.. فيأخذ لونها.. هو هو. لم يتغير.. وإنما تغيرت النفوس بعد ما ضلت الرءوس:

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

سورة الإسراء: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾

[من الآية ٧٠ إلى آخر السورة]

كرم الله بنى آدم حين صورهم فأحسن صورهم. وعلى التكريم مزيد من التفضيل على كثير ممن خلق الله تعالى بما آتاهم من صلاحية التعامل مع سنن الله فى الكون الذى يتقلبون فى جنباته محمولين برا وبحرا.. مرزوقين من الطيبات.

ومن هذا التفضيل. وذاك التكريم. تنبع مسئولية الإنسان الذى يجيء يوم القيامة وراء زعيمه. وتحت لواء مذهبه الذى اختاره. ليتحمل نتيجة سعيه فى الدنيا.. من جنس اختياره: فمن اختار الهدى.. كان سعيه مشكورا مأجورا لا يُظلم ولو بمقدار خيط الحرير فى بطن النواة... ومن عميت بصيرته فى الدنيا.. بعث على ما كان عليه.. وليس المراد عمى البصر.. ولكنه: عمى البصيرة..

وما أكثر المحرومين من نعمة البصر لكنهم بالبصيرة المتفتحة كانوا هداة.. على ما يقول ابن عباس رضى الله عنه:

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... ففى لسانى وقلبى منهما نور
قلبى ذكى وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صّارم كالسيف مأثور

وكقول الآخر:

يقولون: الضرير.. فقلت كلا ... بلى والله أبصر من بصير
سواد العين زار بياض قلبى ... ليجتمعا على فهم الأمور

وانظر إلى هؤلاء ممن طمست بصيرتهم.. كيف يتخبطون محاولين زحزحتك يا محمد عن دينك.. مع أنك صخرة النجاة. ولو فعلت لكنت الأثير لديهم.

ولولا تثبيت الله إياك ـ لقاربت أن تميل إليهم.. وإذن لحق عليك العقاب المضاعف على قدر مقامك الأسنى:

فكبائر الرجل الصغير.. صغائر ... وصغائر الرجل الكبير كبائر

ولقد حاولوا تصعيد المعركة بإجلائك قسرا.. ولو قد فعلوا لما بقوا من بعد خروجك إلا زمنا يسيرا سنة منه تعالى فى الظالمين.

وهكذا أراد التحالف الباغى: بين الوثنية واليهودية أن يساوم أو يقاوم.. ولكنك فى عين لا تنام. وحصن لا يرام.. فدع الأمر لله.. واشغل نفسك بوظيفتك.. مقيما صلاتك.. متهجدا بعض ليلك.. داعيا ربك أن ييسر لك أمرك.. رافعا شعارك الخالد: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾

وحين يجىء الحق فيدفع الباطل. فإنما يدمره بعناصر القوة والوحدة والتجرد والصدق.. والتى يسلحك الحق بها عن طريق الصلاة.. والتهجد.. والدعاء.. وفى الوقت الذى يتنزل القرآن شفاء للمؤمنين.. مثبتا أقدامهم على الطريق.. فإن قوما ظلموا أنفسهم فحرموا من بركاته.. ولو فتحوا قلوبهم له لمنحهم من لدنه دواء وشفاء.. لكنهم لم يفعلوا.. فلم يهتدوا.

وهكذا الإنسان حين يدير ظهره للقرآن: إنه موزع الفكر.. ممزق القلب: إن أصابته نعماء.. تكبر.. وإذا مسه الشر يئس..

وما التكبر واليأس هنا.. والتوفيق والإصلاح هناك إلا الترجمة المعبرة عن طبع الإنسان واتجاهه: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾

ومن شاكلة اليهود أن يختبئوا وراء الأستار ثم يحركوا عرائس الخشب من المشركين بمثل هذا السؤال: سلوا محمدا عن الروح..

ويلقنهم الحق تعالى درسا فى أدب السؤال الذى يجب أن يكون عن حاجة.. وأن يدخل فى نطاق العقل.. والروح ليست مما يدركه العقل فهى ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ وهكذا يتميز الشراب عن السراب.. ويتوارى خجلا أناس لا يسألون رغبة فى معرفة المجهول وإنما فقط لإحراج المسئول.

وكما أن الروح من أمر الله.. فالقرآن كذلك: ولو شاء الله تعالى لذهب

به.. لكنه أبقاه رحمة.. ألا وإن هذا القرآن من المنعة بحيث لو تظاهر الإنس والجن على الإتيان بمثله ما استطاعوا.. لكن الذى يستطيعونه أن يفتحوا قلوبهم للآيات التى صرفها الله تعالى ولونها إرادة إيمانهم.. لكنهم لم يفعلوا.. ولم يكتفوا بالكفران. بل أضافوا إليه التعنت عندما هُزموا فى معركة البرهان فاقترحوا أن تكون له عين جارية.. أو جنة من نخيل وعنب.. أو إسقاط السماء قطعا كما توعدهم.. أو الإتيان بالله - سبحانه - والملائكة مواجهة.. أو أن يكون له بيت من ذهب.. ولن يكفيهم ذلك حتى يعرج فى السماء.. ولن يؤمنوا حتى يأتيهم بكتاب من عند الله يصدقه.

لكنه ﷺ ينزه ربه سبحانه أن يعانده أحد. مؤكدا أنه بشر يوحى إليه. ومهمته فقط هى البلاغ..

ويبدو المانع الحقيقى للإيمان داخل نفوس القوم. وهو استبعاد أن يكون الرسول بشرا.. مع أن بشرية الرسول نعمة ضَمانا للتجانس المؤدى إلى التفاهم.. والا فلو كان فى الأرض ملائكة لكان رسولهم أيضا من جنسهم ملكا.

ولا تسترسل الآيات مع عنادهم معلنة أن شهادة الله له كافية.. الله العليم بالمهتدى والضال الذى يواجهه بمصيره يوم القيامة لا ينظر ولا ينطق ولا يسمع جزاء كفره بالبعث والحساب. وكان بإمكان الكفار أن يعفوا أنفسهم من هذا المصير الرعيب لو أنهم تأملوا الكون حولهم فعلموا أن مَنْ خَلق السموات والأرض قادر على البعث.. لكنهم أبوا.. فسجلوا على أنفسهم هذا الجحود.. تفرزه طبيعة لا تستجيب للبرهان.. كما وأنها طبيعة كانزة لو ملكت كنوز الأرض لكانت من الباخلين.. وتلك طبيعة الإنسان لو فقد الإيمان. يبخل بالمال.. كما يبخل بالإيمان.

وإذا عميت بصائرهم فلم يتأملوا مشاهد الكون.. فهل فقدوا ذاكرتهم؟ ألم يأتهم أنباء فرعون وقومه مع موسى الذى جاءه بتسع آيات.. فلم يستجب.. وحاول تصفية الحق فكان من المغرقين.. وأورث الله بنى إسرائيل أرضهم وديارهم.

وهكذا ينطق الكتاب بالحق.. هذا القرآن الذى أنزله الله بالحق.. فلما استقر فى قلب محمد عليه السلام بقى على صدقه كما أنزله الله تعالى.. فالحق لحمته وسداه.. إلى جانب نزوله المفرق تربية للأمة.. وسواء آمن به الأعداء أم لم يؤمنوا.. فيكفى أن آمن به عقلاء الأرض جميعا.. هؤلاء الذين إذا سمعوه خروا سجدا إشفاقا.. وشوقا.. وما عليهم.. وما على المؤمنين جميعا من شغب المشاغبين الذين يجادلون فى أسماء الله تعالى.. ﴿**فادعوا الله أو ادعوا الرحمن..**﴾ ﴿**فلله الأسماء الحسنى فادعوه بها..**﴾ جاعلين من صلاتكم وسطا بين الجهر والإسرار.. متخذين من ذكر الله زادا متجددا تجددون به أعماركم.

أما بعد: فسوف ينقلنا القارئ من ختام سورة الإسراء.. إلى ختام عمره ﷺ والذى أشير إلى قربه بقوله تعالى: ﴿**إذ جاء نصر الله والفتح**﴾

سورة الفرقان: من قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

[آية ٥٦ ـ آخر السورة]

تُبين الآيات ـ طبيعة الرسالة الجامعة بين عنصرى التربية: البشارة والنذارة:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ إنها ليست بشارة محضة.. وإلا كان التسيب.. وليست إنذارا صرفا.. وإلا كان اليأس.. ولكنها تضع المخاطب بين الخوف والرجاء.. ليَصلح.. ويُصلح..

(إن عنصر الصوديوم وحده قد يضر.. فإذا ضم إلى أخيه صار ملحا يصلح به الطعام).

هذه هى الرسالة التى تحمل فى ذاتها عنصر بقائها.. فأعرضتم عنها.. فهل هناك موانع من خارجها؟.. أبدا..

﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾

ألا ما أجهل الإنسان حين يبالغ فى إيذاء من يبالغ فى الإحسان إليه.. وما أجدر الناصح الأمين أن يستدبره متوكلا ﴿عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾ الجدير بالحمد.. الخبير بذنوب عباده ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ خلقا شاهدا بعظمته ورحمانيته. التى لا يدرك آثارها إلا الخبراء ببواطن الأمور.. الذين أقامهم الله تعالى حجة على هؤلاء الغافلين الساخرين الذين يتنكرون لفطرهم فإذا ﴿ قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ مع أن عيونهم المجردة كافية ـ لو أرادوا ـ فى الدلالة على عظمته سبحانه بما تريهم من منازل النجوم.. وهذه الشمس.. وهذا القمر.. لكنهم لا يريدون.. ومن ثم يشغبون!

ثم هذا الزمان السائر على قدمين من ليل ونهار.. ألا يحرضهم على الذكر والشكر.. وإذا عقد الجهل أو التجاهل ألسنتهم فهاهم أولاء عباد الرحمن يحققون معنى العبودية شاهدين عليكم بالجحود:

لقد انعكست عليهم من رحمانيته سبحانه أقباس... فهم: متواضعون.. يمشون على الأرض هونا.. متسامحون: إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

إن حركة الجسم.. واللسان تغرفان من القلوب الشاعرة لينا.. وخضوعا وسلاما.. وعلى جناحين من التواضع والعفو يكسبون كل يوم أنصارا جددا:

ويا ليت الذين يواجهون العصاة بالقوة يعلمون: أن الداعية الناجح ينتصر على مذنب بلا دماء: إحسانه إلى العاصى إما أن يضيفه إلى رصيده وليا حميما.. وإما أن يكسر قلبه بمزيد من هذا الإحسان.. فأنت بالإحسان كاسب أضعاف ما تنال بالانتقام!

وإذ يتعامل المؤمنون هكذا مع المخلوق.. فهم مع الخالق سبحانه على غاية ما يكون الرجل.. تراهم فى سجوة الليل سجدا وقياما:

أجسامهم ناحلة...وشفاههم ذابلة... ودموعهم هاطلة... والزفرات قاتلة! ومع هذا السفر المضنّى.. يخافون عذاب النار!!

ولا يذهبن بك الخيال فتحسب هؤلاء الرهبان ضعافا مهازيل. يأكلون من عمل غيرهم.. كلا!

إن لهم جباها تتصبب عرقا من أجل لقمة العيش.. بل إن لهم فى دنيا الاقتصاد منهجهم الراشد..

إن المسرفين غيرهم يريقون المال على موائد المتعة. شاهدين على أنفسهم بسرقة هذا المال الذى بددوه.. لأنهم لم يستخرجوه بالمعاناة مع خبايا الأرض. فيسرفون. ويعتل المزاج. فيقل النتاج.

أما عباد الرحمن: فلا يأكلون.. إلا عن جوع.. ولا يشربون.. إلا عن ظمأ..

﴿إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

إنهم لا يطلبون إلا الدرهم الحلال.. والدرهم الحلال فى منهجهم عزيز كالكبريت الأحمر.. ومن ثم لا ينفقونه إلا بميزان!!

ومع ذلك كله... فهم موحدون.. لا يدعون مع الله إلها آخر.. مسالمون.. لا يقتلون النفس.. سلك الله الطهر فى قلوبهم ينابيع فلا يَزْنون.. فِفروا بذلك من العقاب.. المعد لمن عصى.. إلا من تاب توبة نصوحا: ﴿فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾

وتأمل رحمة الخالق الذى يفتح أبواب المغفرة لتستقبل العائدين إليه.. وليبدل سيئاتهم حسنات.. وتأمل فى نفس اللحظة قسوة المخلوق على نفسه حين يمضى سادرا فى هواه كالحيوان لا يسمع نداء.. بينما يبسط الحق يده إليه.. لعله يعود.

ولقد بقيت من ملامح الشخصية الإيمانية أنهم ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ فولاهم للحق. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ فى رزانة أهل الحق ووقارهم. فلا يدخلون فى مهاترات مع الفارغين.

﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ استقبلوها بكل منافذ الإدراك فيهم مستجيبين قانتين.. وهم الذين ينشدون الحياة الأسرية النظيفة.

إنهم لا يرجون مطلق الذرية ولا مطلق الزوجة.. وإنما يريدون ما يمتد به العمر.. ويتسع به العمران.. ومسك الختام. أن يجعلهم الله تعالى فى باب التقوى أئمة يهدون بأمر الله.

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا. خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.. وهذا حالهم فى الآخرة جزاء عبادتهم فى الدنيا التى لولاها ما اعتد الله تعالى بهم..

أما المكذبون.. فقد هداهم الكذب إلى الفجور.. ثم هداهم الفجور إلى عذاب السعير.

سورة القصص: من قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿ أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [٧ ـ ٣٥]

فى مستهل سورة القصص نطالع سنة من سننه تعالى فى الاجتماع البشرى: وهى: أن الصراع بين الحق والباطل منته بغلبة المستضعفين من المؤمنين الذين يمكن الله لهم فى الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين لِمَا كان فى أيدى الطغاة من مال وسلطان.

وفى ذلك درس عملى يبرز إلى أى حد كانت هذه السنة واقعا ملموسا من خلال قصة موسى وفرعون:

لقد أوحى الله تعالى إلى أم موسى أن ترضعه.. فإذا خافت انكشاف أمرها. فعليها أن تلقيه فى النيل..

ولك أن تتصور غريزة الأمومة وفى عنفوانها لحظة الميلاد.. وكيف يعصف بها الأمر بإلقاء رضيعها.. وبيدها. وفى البحر ثم لتلقى عليه نظرة الوداع.. بلا أمل فى لقاء.. وقبل أن يطير صوابها يسعفها الحق تعالى بما يربط على قلبها: **﴿لا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك..﴾**

وليس هذا فقط ولكن **﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾**.. جاعلوه.. لا سوف نجعله! وكان هذا الوعد.. وهذه البشارة مرفأ الأمان لقلب الأم.. الذى يوشك من هول الموقف أن يطير شعاعا.

ولم تكن هذه البشارة ربطا للقلب الواله لحظة الفراق فقط.. لكنها كانت إعدادا لها كى تتلقى المفاجأة التالية وهى: وقوعه فى يد فرعون!!

ولا تكاد المفاجأة تضرب ضربتها حتى يتبعها الحق تعالى بما يبطل مفعولها:

إن فرعون وحزبه خاطئون.. مستكبرون. وسوف تأتى الرياح بما لا يشتهى السفن.

وقد شاءت إرادة الله أن تأتيهم القذيفة من منطقة الأمان.. وأن يحدث

الانقلاب من داخل البيت.. وبأيديهم.. فكان أن غزا حب الوليد قلب امرأة فرعون.. وقام هذا الحب حارسا.. ليبقى موسى.. وليسحب البساط بعد.. من تحت أرجل الغافلين!

وهكذا يدبر القدر الأعلى لأوليائه الذين لا يحسنون التدبير.. وقد رأينا بأعيننا.. كيف يعاديك إنسان وهو ظالم لك.. فيجيئه الرد الإلهى حين يُخرج من صلبه أولادا يحبونك حبا قد لا تجد له مسوغا. لكنه التدبير الإلهى الحكيم.. جزاء عادلا.

ومع ثقة الأم بوعد ربها.. لكنها على أى حال أم.. موصولة القلب بوليدها.. وها هى ذى خائفة عليه خوفا غيب وعيها.. ولولا أن الله كان معها. لكشف الحرص أمرها.. وحين عاد إليها صوابها: كلفت أخته بالبحث عنه.. فلما بصرت به نصحت آل فرعون بتسليمه إلى مرضعة.. فكانت أمه هى تلك المرضعة.. والتى تأكدت وبصورة عملية أن وعد الله حق.. ﴿ **وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ فيحاولون الاعتماد على سعيهم غافلين عن تدبير الله.. وإلا فهل كان سعى الأم والأخت يغنى فتيلا لو لم يُحرِّم الله عليه المراضع؟ وما على المؤمن إلا أن يسعى.. ولكن مع إيقاف التنفيذ.. حتى يوافيه من الله عون ونصير.

أجل.. إذن وعد الله حق.. وأجل.. إن أكثر الناس لا يعلمون.. ولو طلبوا العلم.. لقدم لهم الواقع ألف دليل ودليل:

لقد أنجز الحق تعالى وعده الذى بشر به أم موسى. والذى بدأ يباشر حياته فى نصرة الحق.. تمهيدا لتكليفه بالرسالة:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾

لكنه لم يباشر الدعوة من فراغ.. إنما انطلق إليها من قاعدة راسخة: منحه ربه: القوة الجسمانية.. والقوة العقلية.. فاستوى على سوقه يعجب الزراع.. وكذلك يجزى الله المحسنين أمس.. واليوم.. وغدا..

ولقد تعرضت هذه القوة البدنية والعقلية لامتحان عسير: فقد دخل المدينة فى القيلولة ففوجئ برجل من جنسه يقاتل رجلا من أعدائه.. فلما استغاثه أغاثه

بضربة قضت على غريمه.. وكانت النهاية مفاجأة له.. استعاذ الله منها وطلب منه تعالى المغفرة..

ويبدو أن الإسرائيلى نفسه كان مشاغبا.. حيث تكرر منه الموقف والاستغاثة فلما هم موسى بتأديب عدوه. ذكره بما فعله بالأمس من قتل غريمه الذى شاع فى المدينة مما حمل موسى على الخروج حين نصحه ناصح أمين بأن القوم يأتمرون به ليقتلوه.. ثم استقر به النوى وألقى عصاه فى أرض مدين.

كانت كل الدلائل تشير إلى أن القدر الأعلى يدبر لموسى.. ليصل إلى ما أراده له ربه من تكليفه بالرسالة..

وها هى ذى ملكاته الخيرة تتفتح وتبلغ كمالها.. كأنما هى الفصل الأخير فى قصة شبابه المنتهى به ليكون نبيا رسولا:

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾

ورغم السفر البعيد والحر الشديد إلا أن همته كانت غلابة.. دفعته إلى التدخل السريع.. فسقى لهما.. بعد أن تأكد من ظروفهما الأسرية.. وتأمَّلْ موقفه حين لم تتجه آماله إلى والد المرأتين لعل وعسى أن يجيئه الفرج من قِبَله.. ولكنه رغم شدة حاجته اتجهت آماله إلى أعلى.. إلى السماء: **﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾**

وعلى الفور جاء الخير الذى طلبه من طريقه.. فكان مجيئه حتميا:

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾

بنت عزيزة.. حرة. تمشى على الاستحياء.. متمكنة منه راسخةً فيه كما يفيد حرف الجر على.

فليس هو بالحياء المصطنع المجلوب.. لكنه فطرة نابعة من الذات.. وما بالذات لا يتخلف!!

﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ الدعوة منه.. لا منى.. وهى دعوة محددة الهدف

﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ليس فيها لف أو دوران مما يلجأ إليه أناس يدورون برغباتهم حول الصيد الثمين لعلهم يحققون ما يرجون.. وهيهات!

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وإذ تبدو شخصية الضيف، طرازا فريدا لا تجد البنت غضاضة فى اقتراح استئجاره بعد أن تأكد لهما أنه الرجل المناسب: إنه قوى... وقوته محروسة بالأمانة.. ولا بأس أن يتقدم الوالد على الطريق خطوة أخرى وأخيرة:

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ ﴾ نظير خدمتى ثمان سنين أو عشرا.. نعم لا بأس أن يخطب الوالد لابنته شابا ثبت فلاحه ونجاحه.. وما أكثر الآباء الذين يتحرجون من ذلك.. لكنهم ـ ومن الباب الخلفى ـ يسمحون بما لا يجيزه الإسلام.. ولا المروءة.. من صداقات يظنونها بريئة.. وما هى من البراءة فى قليل أو كثير!! ويتم الزواج.. ويمضى موسى بأهله.. حيث آنس من جانب الطور بشائر الوحى ﴿ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا ﴾ فإذا هو على موعد مع الوحى.. والرسالة.. التى بدأت بالمعجزة الشاهدة بصدق دعواه:

اليد التى يخرجها من جيبه.. فإذا هى بيضاء من غير سوء.. والعصا التى انقلبت بقدرة الله تعالى حية تسعى.. فلما أشفق عليه السلام ذاكرا ما كان منه قبل.. من قتل القبطى.. مستشعرا عبء التكليف.. طلب فى نفس الوقت الانتفاع ببلاغة أخيه هارون.. فأجيب إلى طلبه من ربه سبحانه.. ومع الإجابة وعد بالغلب: ﴿ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾.

نعم هم الغالبون فى النهاية: ذلك بأن الحق قد: يُعوَّق.. ويعذَّب.. ويحارَب.. لكنه: لا يضل.. ولا يذل.. ولا يستكين!

سورة السجدة

تُعنَى السور المكية بإرساء قواعد الإسلام وأصوله العامة.. ليستقر النظام عليها فلا يحول ولا يزول.

وسورة السجدة المكية تأخذ دورها فى تدعيم هذه الأصول بما تثيره من عواطف الرهبة والرغبة. وما تنشئه من مشاعر الإجلال الآخذة بالإنسان إلى مرفأ التوحيد. حتى لا يكون من المغرقين.

وتبدأ السورة بهذه الحروف: ألف. لام. ميم. إنها حروف من جنس ما تصوغون منه أحاديثكم. لكنكم عاجزون على الإتيان بأقصر سورة من مثل هذا الكتاب مع وحدة مادة الحديث.. إذن.. فارفعوا الراية البيضاء مستسلمين مسلمين بأنه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ودعوى الافتراء هى محض افتراء... بل هو الحق من ربك لتذكر به قوما غفلوا على رجاء هدايتهم إلى خالقهم. الحقيق بالعبودية سبحانه.

فهو خالق الكون فى ستة أيام ـ وكان من الممكن خلقه فى لحظة ـ لنتعلم التأنى فى مواجهة الأمور. فنتجنب الطفرة فى علاجها على ما يقول الشاعر.

داويت متئدا وداووا طفرة وأخف من بعض الدواء الداء

ثم هو الذى يصرف الكون مستويا على عرشه.. فأنتم فى قبضته لا ينجيكم منها نصير.. وإن فطركم لشاهدة بصحة هذه الحقيقة لولا غاشيات النسيان.. فأين تذهبون.. وإلى متى تستمرون فى شرودكم فلا تتذكرون؟!

ثم هو وحده سبحانه لا آلهتكم ولا زعماؤكم ـ يوجه الأرض بقيم السماء التى لا تصلح إلا بها. ولا يرفع إليه إلا ما جاء مطابقا لها. وكل محاولة للتفلت من شرعه مقضى عليها بالفشل لأنه تعالى: العليم العزيز الرحيم. فلا يعزب عنه مثقال ذرة. ولا يفلت من قبضته جبار.

وهو الله ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ فجعله مستقيما على فطرته. مهيئا لأداء وظيفته:

فالأرض صلبة للنبات. والهواء سلس للاستنشاق. والماء سيال لسهولة احتوائه. والنار تصعد رأسيا.. لا أفقيا. وإلا احترق الكون. والإنسان هو الحلقة الذهبية فى سلسلة الموجودات. ومن ثم كان حظه من الحسن أوفى: بدأ خلقه من طين.. فصار منيا.. ثم بشرا سويا.

إن كسرة الخبز وجرعة الماء صارتا: أذنا تسمع. وعينا ترى. وقلبا ينبض. ويدا تبطش. ورجلا تمشى. وأعصابا تحس.. وبدأ الإنسان من خلالها أحسن خلق الله.. حتى زوجتك التى لم تنل حظا من جمال ولا ثروة من مال... إنها لحسناء بوفائها. وطاعتها. وعفتها.

ومع هذه النعم ـ وكل واحدة أكبر من أختها ـ فقليلا ما تشكرون.. ويزيد الجاحدون على النكران استبعادهم للبعث ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾. ولقد ضلت عقولهم بهذا القول فى كأس من خمر الدنيا أفقدتهم رؤية الشمس الساطعة.. وعلتهم أنهم لا يؤمنون بلقاء الله.. وعليهم أن يعلموا أن أعمارهم بيد الله وأن حياتهم وشيكة الذهاب فملك الموت لهم بالمرصاد.. راجعا بهم إلى ربهم سبحانه..

ويا ليت هذا الموت ينهى عذابهم.. لكنهم به يواجهون العذاب الأليم.. وفى طليعته: عذاب الخزى والهوان.. حين ينكس الجبارون رءوسهم معترفين بالحق.. راغبين فى استئناف الحياة مرة أخرى مؤمنين.. ولا يستحقون حتى مجرد الرد على هذه الأمانى الكذاب.. وإنما تهزهم الحقيقة الكبرى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا ﴾ ولكن نوعية الاختيار هى التى تحدد المسار.. وقد اخترتم الكفر فذوقوا العذاب من جنس عملكم:

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ﴾

ودعنا من هذه القيعان التى لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ لنذكر المؤمنين الذين صاروا بالإيمان مهبطا للغيث فأنبتت أنفسهم من كل زوج بهيج فى باب الأخلاق:

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا ﴾ ماذا يفعلون؟

سجدوا بمجرد سماعها.. مسبحين حامدين. تدعوهم مضاجعهم إلى الراحة فلا يستجيبون يؤثرون التهجد على الفراش الدافئ بما فيه من متعة أجمل من مذاق الكرى فى عيون النائمين!. ولهم مع ذلك نشاط اجتماعى فهم ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ينشئون المدارس.. ويعبدون الطرق.. ويحملون الكل.. ويعينون على نوائب الحق.. فى معركة مباركة تجعل منهم رهبان الليل وفرسان النهار.

وإذا لم يحصلوا فى دنياهم جزاء كغيرهم من الانتهازيين. فقد أعد الله لهم جزاء لا يَحُده خيال طليق ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾

ولنتعلم من دروس التربية ألا نظهر جائزة التلميذ ابتداء حتى يزداد شوقه إليها. ولا يفتر حماسه لها.. وحينئذ سيضاعف من نشاطه محدثًا نفسه بلحظة سعيدة يلتقى فيها بما يشتهى.

ألا وإن لاختلاف جزاء الفريقين ما يسوغه:

فشتان ما بين اليزيدين فى الندى ... يزيد سليم والأغر بن حاتم

فهم الفتى الأزدى إنفاق ماله ... وهم الفتى القيسى جمع الدراهم

ولا يمكن بأى مقياس أن يستوى المؤمنون والكافرون:

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى روضات الجنات.. أما الذين خرجوا بالفسق عن الخط المستقيم فمأواهم جهنم خالدين فيها.. بالإضافة إلى ما يلاقونه فى الدنيا من عذاب قريب.

﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

ومن صور العذاب الأدنى أن يمر بالجبار شخص ضعيف فلا يُلقى عليه التحية.. وحينئذ تقوم الدنيا ولا تقعد فى وقت أراح فيه المتواضعون أنفسهم من هذا العذاب المكرور. وهذا العذاب الممتد كان جزاء عادلا على ظلم بلغوا فيه درجة التشبع حين أعرضوا عن الآيات البينات ولم يعطوها حقها من التأمل والتفكير.

ولم يكن محمد ﷺ فى تقريره لهذه الحقائق يمضى وحده على الطريق. فقد

سبقه موسى عليه السلام مرسلا إلى بنى إسرائيل الذين جعل الله منهم أئمة يدعون إلى الخير بما أوتوا من الصبر واليقين.. إلا الذين اختلفوا منهم فإن لهم موعدا مع الله تعالى يلقون فيه جزاء اختلافهم.

وإذا بلغ الجاحدون قمة العناد لكن ذلك لم يسقط حقهم فى التذكير أبدا.. وها هى ذى الآيات الكريمة تلفت أنظارهم إلى مصارع الغابرين الذين يشاهدون آثارهم ترهيبا.. ثم ترغبهم بما يشاهدونه من الأرض الموات تتحول بالمطر إلى جنات؛ لعلهم يفتحون عقولهم لواردات الهدى.. لكنهم يسألون ساخرين **﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾** فيما كنتم تزعمون.. وترد الآيات عليهم بأن القضية ليست متى يكون ذلك اليوم: لكن القضية هى: سوء عقباهم فيه.. **﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٢٩) فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾**

سورة السجدة: (من الآية ١١ إلى الآية ٩ فى سورة الأحزاب)

عندما تمتد بالظالمين الآمال فى عمر مديد وبأس شديد.. يفجؤهم الحق سبحانه بحقيقة الموت التى تقصف أعمارهم..

وما كان لهم أن ينسَوْا حقيقة يومية يرونها ولا يستطيعون ردها.. فهذا هو ملك الموت يتوفاهم.. واحدا واحدا.. فيسقطون بين يديه كأوراق الخريف.. مطوحا بهم فى يوم يطأطئون رءوسهم التى طالما تشامخوا بها.. وحين يرجون العودة إلى الدنيا بعد ما صارت أبصارهم حديدا لا يستحقون حتى مجرد الرد..

وقد كان من الممكن لو شاء الله تعالى أن يجنِّبهم تلك المأساة.. لكن مشيئته تعالى قضت أن يملأ جهنم ممن نسوا لقاء الله فلاقَوْا جزاءهم من جنس عملهم عدلا... تلك أمانيهم.. وهذه أنفسهم العصيّة على الانقياد.. وأين هم ممن آمنوا وترجموا الإيمان إلى:

أ ـ تسبيح وتحميد.. رقت به أفئدتهم حتى أنها غير صالحة للاستكبار أبدا.

ب ـ تهجدٍ بالليل آثروه على النوم فى سجوة الليل.

جـ ـ وكانت لهم حركة اجتماعية بما أنفقوا من أموالهم.

فاستحقوا بهذا الجهد الموصول ثوابا عظيما.. حُرِمه الأولون بكفرهم طبق سنته تعالى التى لا تسوى بين المؤمنين.. والكافرين.

ألا وإن ما يظنونه نعيما فى الدنيا. سوف يسبقه عذاب معجَّل قبل أن يعذبوا فى الآخرة على ما اجترحوا من ظلم بين.

هذا الظلم الذى سوف يسلكهم من غيرهم ممن سبقوهم على طريقه.. وفى مقدمتهم بنو إسرائيل الذين دعاهم موسى عليه السلام إلى الحق فاختلفوا.. إلا من عصم ربك.

ومع هذه العبر فكأن هؤلاء المعاندين لم يروا آثار المهلكين من قبلهم.. ثم لم يكلفوا أنفسهم عناء تأمل الأرض الجرداء تتحول بالماء خصبة ليتبينوا إمكان هداهم

بعد كفرهم.. وحياتهم بعد مماتهم..

وبدل أن يأخذوا بأسباب الهداية المسموعة والمرئية.. إذا هم يستهزئون مستعجلين يوم الفصل الذى ذكروا به..

لكن القضية ليست: متى يجىء.. لكنها بالدرجة الأولى: أنهم عند مجيئه سيكونون فى خبر كان.. وما على الرسول والمؤمنين معه إلا أن ينتظروا النصر عليهم. كما ينتظرون..

والسؤال الآن: إذا كنت تنتظر النصر عليهم.. بينما هم يترقبون الغلب عليك.. فما هى خطتك الرامية إلى هذا النصر المُحْبِطِ مسعاهم؟

اعلم أولا خطة القوم.. لتجعل منها حبرا على ورق:

لقد يئس الأعداء من كسب معركة عسكرية فاصلة.. وإنهم يلجأون اليوم إلى المناورة والمساومة.. رغبة فى احتوائكم: وذلك هو اقتراح أبى سفيان وغيره إذ قالوا له ﷺ:

ارفض ذكر آلهتنا. وقل إن لها شفاعة. وندعك وربك!

وجاء افتتاح سورة الأحزاب إحباطا لهذا المسعى ورفضا لتلك المساومة:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾

إن القوم يأتمرون بك لتكون لهم تابعا.. فاتق الله تقوى تمنعك من طاعة الكافرين والمنافقين.. لتظل الشخصية الإسلامية مستقلة متميزة.. لا شرقية ولاغربية. وذلك هو الانتصار الذى تأخذ به زمام المبادرة.

وإنك لتلمح صورة من إعجاز القرآن حين يرتبط آخر سورة السجدة المكية بأول سورة الأحزاب المدنية على تباعد زمان النزول ارتباطا عضويا شاهدا بأن هذا القرآن من عند الله.. وإذن فلا تطع غيره.. ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ الذى رأيت من آلائه ما رأيت. وإذا تبجح الباطل بما يملك من نفاثات أو رءوس نووية فتوكل على الله ﴿وكفى بالله وكيلا﴾.

وليعلم المسلمون: أن الله تعالى لم يجعل لرجل قلبين فى جوفه يخاف بواحد هؤلاء الكافرين.. ويعبد بآخر ربه.. لكنه قلب واحد يأخذ سبيله إلى خالقه سبحانه.. وبذلك ينشأ الفرد القوى بإيمانه.. فى أسرة بريئة مما كان يفعله الجاهلون حين كان أحدهم يقول لزوجته: أنت على كظهر أمى فتحرم عليه..

إن الزوجة زوجة.. ولا تتحول بكلمة إلى أم.. فالفارق هائل بين الاثنين.. كما وأن ابنك هو الذى جاء من صلبك لا ما كنت تدعيه بالتبنى وصولا إلى أسرة مستقرة تُخرِّج أبطالا يتحدَّوْن هؤلاء الكافرين الناكبين عن الصراط.

فلتأخذ الزوجة مكانتها المرموقة تحت سقف البيت.. وليُنسب الأولاد إلى آبائهم الحقيقيين فذلك خير لوالد يضم إليه فلذة كبده.. وولد ينشأ فى ظلال من حنان أمه وأبيه وفصيلته التى تؤويه.. على نحو يبدو فيه المجتمع متماسكا فإذا لم تعلموا لهؤلاء الأدعياء آباء فأحسنوا معاملتهم بالأخوة الجامعة.. ولا داعى للأسى على ما مضى من أخطاء تجاوز الحق عنها.. لكن احذروا أن تتعمدوا العصيان مستقبلا.

إن الله كان غفورا: يستر ذنب عبده.. ثم يراه مفلسا من الثواب فيرحمه ويعطيه ما يكفيه.. ويا ليت قومى يتعلمون كيف يقسو المخلوق ويرحم الخالق.

وكل مسلم يتطلع إلى هذه المغفرة عليه أن يُسلم بزواجه ﷺ بزينب التى كانت زوجا لزيد. فالنبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وحاجاتُه مقدمة.. لأن نفسه تظلمك أما النبى فلا يريد إلا صلاحك.

وضمن حملة التطهير الإسلامية يستبعد الإسلام مبدأ التوارث بالعقيدة أو الهجرة لتبقى القرابة وحدها سبب التوارث.. ويبقى الود موصولا لمن أراد أن يعطى المزيد..

وحين يأخذ النبى هذه المبادئ بقوة ـ والمؤمنون معه ـ فإنما هو ماض على طريق النبيين من قبله مضيا يصل به إلى النصر المبين.. هذا النصر الذى هو فى الحقيقة من عند الله.. وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يؤكد هذه الحقيقة بتذكيرهم بما كان يوم الأحزاب من نصر مبين لم تتوفر أسبابه البشرية.. لكنه جاء من عند الله آية بينة على ما تحققه التقوى والاتباع والتوكل من بر وخير.. فعضوا على هذه المبادئ بالنواجذ.. فلا نجاة إلا بها.. ولا رخاء إلا فى ظلها.

سورة الأحزاب: من قوله تعالى:

﴿لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [آية ٥٣

إلى آخر السورة]

فى سورة الأحزاب.. تقرر الآيات الكريمة حرمة البيوت التى يجب أن تصان. لتبقى واحة ظليلة: يأوى إليها الساغبون اللاغبون.. فيجدون فى كنفها الأمن والقرار.. فإذا تعلق الأمر ببيت النبى ﷺ.. فإن الحرمة حينئذ تصبح آكد.. على قدر ما له من مقام كريم.. وذلك قوله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾

والقصة: أن ناسا كانوا يتحينون وقت طعام رسول الله ﷺ. فيدخلون ويقعدون منتظرين استواء الطعام.. فإذا أكلوا.. جلسوا يتجاذبون أطراف الحديث سامرين.. غافلين عن حق أهل البيت فى الراحة والتبسط.. وحقهم فى إغفاءة الظهيرة استجماما..

ولقد كان ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها.. ومن ثم. كان يغلبه حياؤه فلا ينبه هؤلاء الذين يزحمون البيت.. ويشغلونه بما لا يفيد.. ولكن الله تعالى وهو **﴿ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾** يتكفل سبحانه بإلزام هؤلاء الفارغين كلمة التقوى.. فينهاهم عن ذلك:

فبيت النبوة مفتوح. كقلب صاحبه المفتوح تهرع إليه قلوب المحبين.. ولكنه ليس "فندقا".. وليس كلأ مباحا.. فلتحفظوا له حرمته.. وإن من تكريمكم لأنفسكم ألا تدخلوا.. إلا إذا دعيتم.. فإذا أكلتم فانتشروا فى الأرض..

ويبقى ذلك الأدب العالى واجب التنفيذ فى زماننا.. وعلى المؤمنين بحكم إيمانهم أن يحترموه حفاظا على الكرامة وعلى الوقت معا.

وليس معنى ذلك أن تتحول بيوت النبى إلى منطقة أثرية لا تطرق إلا بجواز مرور. بل ستظل مفتحة الأبواب شريطة أن تؤدوا حقوقها.. ومنها: أن تسألوا زوجاته حاجاتكم من وراء حجاب.. فذلك أطهر لقلوبكم.. وقلوبهن معا:

وتأمل كيف جاء الأمر بالحجاب فى أطهر بيئة عرفتها الحياة.. فالمأمورون.. بلال.. وخالد.. وعمار.. وعمر.. وإخوانهم ممن لو حاولوا النظرة ما طاوعتهم قلوبهم.. والنساء.. نساء النبى.. أطهر من عرفت الحياة.. وإلى الأبد.. ومع هذا.. كان الاحتياط الذى نَشُد به آذان قوم اليوم يغالطون أنفسهم حين يقول أحدهم وقد رأى زوجته مع آخرين:

امرأتى رجل.. ولا أخاف عليها... وكذب: فهى أولا: امرأة وليست رجلا..

وهى ثانيا: ترى فى الأجنبى ما لا تراه.. فى زوجها..

وهو نفسه يغالب في قلبه غيرة.. لكنه يتجمل بينما النار فى داخله تشتعل: إن الغريزة صماء لا تسمع.. عمياء لا ترى.. فليحذر المؤمنون..

وإذا تقررت حرمته ﷺ «حيا» فلتبق كذلك بعد موته.

﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا﴾.

إنه إيذاء له.. ثم إنهن أمهاتكم.. وإذن فالقضية منتهية باسم الفطرة.. قبل أن تكون أمرا شرعيا... ولا يلغى ذلك حق الأبناء والآباء والإخوة وغيرهم من المحارم فى مخاطبتهن من غير حجاب..

وإذ تسلك الآية مع هؤلاء الإماء والعبيد.. فإن أجراس الخطر تدق هنا محذرة من خدم البيوت وما يمكن أن يترتب عى الترخص معهم من ويلات وأنّات تصطلى بها قلوب جاءتها القذيفة من منطقة الأمان.

وذلك أمر الله أنزله إليكم بتعظيم رسوله المكرم فى الملأ الأعلى.. فعظموه فى الأرض بالصلاة والسلام عليه.. وعلى الأقل: لا تؤذوه.. حتى لا تستنزلوا بالإيذاء اللعن.. والطرد من ساحة الرضوان..

وحين تنهى الآيات عن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا نهيا مقرونا

بالحديث عن رسول الله وزوجاته.. فإنها تضع ميزانا من موازين العلاقات الإنسانية:

فإذا كنت تحب رسول الله.. فأحب الذين اتبعوه.. ولا تؤذهم.. أما أن تدعى حبه ﷺ ثم تؤذى أتباعه.. فأقول لك: إن الذى يحبنى.. ولا يحب أخى.. لا خير فيه.. لا لى.. ولا لأخى!

وإذا كان الحق تعالى يدافع عن الذين آمنوا.. فعليهم أن يكونوا أهلا لذلك التكريم.. وعلى النساء خاصة أن يسترن أنفسهن.. وهذا واجبهن.. بعد أن أخذن حقهن فى الدفاع: **﴿ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾**.

فإذا كشفت المرأة اليوم عن ساق.. وفاح من حولها العطر.. فإن من حق المجتمع أن يتصدى لها.. بل ويعاقبها قبل أن يعاقب الذين حرضتهم على الفتنة. لأنها كشفت لحمها الطرى للهر الجائع.

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يترك النساء الفاضلات وحدهن.. فهو معهن أينما كن.. وها هو ذا سبحانه وتعالى يهدد الفاسقين المتعرضين لهن فى الطرقات: فليكن أهلا لهذه الحماية الإلهية:

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً﴾.

وهكذا تتصدى الآية الكريمة للمارقين العابثين.. الذين يطلقون الشائعة تصنع سحبا فوق رءوس الأبرياء.. ويبلغ الافتراء مداه، حين يقولون الأشياء السيئة.. غير الصحيحة.. عن الصالحين ثم لا يقولون الأشياء السيئة الصحيحة: عن الأشرار؟!!

ولكن.. على قافلة الإيمان أن ترتفع إلى مستوى إيمانهما متجاوزة هذه المهاترات.. والتى منها سؤالهم عن الساعة سخرية وتعنتا.. دعوهم يسألون.. ويسخرون عن الساعة.. وليكن ردكم الحاسم أيها المؤمنون أن تعملوا أنتم لها..

ومما يشجعكم على هذا العمل علمكم بما سوف يكون عليه أولئك

الكافرون.. حين تُقَلب وجوههم فى النار ويندمون ولات ساعة مندم ثم يتلاعنون ويلقى كل على صاحبه اللوم ولن يغنى عنهم التلاوم شيئا فاحذروا أيها المؤمنون من هذا المصير.. ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾.. وهذه هى رسالتكم فالزموها:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ..﴾.

وعلى قدمين من: العمل الصالح.. والقول الطيب.. يبلغ الإنسان كماله فى دنياه.. وأخراه..

لماذا؟ لأن الطاعة تعنى انتصار الإنسان على مختلف الضغوط التى تناوشه من داخله.. ومن حوله.. وأمامه.. فإذا انتصر.. فقد فاز فوزا عظيما..

وعلى الإنسان أن يكون عند حسن الظن به متحملا مسئولية الرسالة التى احتملها بعد أن أشفقت من حملها الأكوان.. تاركا هؤلاء المشركين والمنافقين فى الدرك الأسفل من النار محققا بطاعته ذلك الفوز العظيم:

إن الطاعة بذاتها فوز عظيم: فهى استقامة على نهج الله. والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة.

والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل.. سعادة بذاته.. ولو لم يكن وراءه جزاء سواه. وليس الذى يسير فى الطريق الممهد المنير وكل ما حوله من خلق الله يتجاوب معه ويتعاون.. كالذى يسير فى الطريق المقلقل المظلم.. وكل ما حوله من خلق الله يعاديه ويصادمه ويؤذيه.

فطاعة الله ورسوله تحمل جزاءها فى ذاتها. وهى الفوز العظيم قبل يوم الحساب. وقبل الفوز بالنعيم. أما نعيم الآخرة. فهو فضل زائد على جزاء الطاعة.

فضل من كرم الله وفيضه.. بلا مقابل.. والله يرزق من يشاء بغير حساب[(١)].

(١) فى ظلال القرآن.

سورة يس: من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾
إلى قوله تعالى﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ﴾ [٢٨ ـ ٥٩][1]

الحمد لله. والصلاة والسلام على رسول الله.

بينت الآيات الأولى من سورة يس ما انتهى إليه أمر المؤمن الشهيد الذى دخل الجنة كما يدخل العروس المزين البيت على رؤوس الأشهاد ﴿قيل ادخل الجنة..﴾ وتبين هذه الآيات حال المخالفين له. والذين تم إهلاكهم بصيحة واحدة تحولوا بها إلى جثث هامدة.. تستدعى أن يتحسر عليها المتحسرون.. فى وقت هو أنسب الأوقات للتحسر على قوم غرباء فى تفكيرهم ونواياهم:

أولا: جاءهم رسول من عند الله.

وثانيا: يدعوهم إلى ما ينجيهم من شقوة الأبد.

وثالثا: ثم هو لا يطلب على البلاغ أجرا.

فلم يكتفوا باعتزاله إن لم يؤمنوا به.. لكنهم سخروا منه سخرية انتهت بقتله. على حد قول الشاعر:

أريد حياته.. ويريد قتلى!

ثم تذكر الآيات الكريمة أن هناك دلائل كان من الممكن لو أنصفوا أن يعفيهم تأملها من هذا المصير.

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ وإذا فقدوا الذاكرة فلم يعتبروا.. فهلا اعتبروا بالأرض وهى تحت أقدامهم. وقريبة منهم تدلهم على إمكان البعث الذى ينكرون؟

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾. بالمطر.. فأنبتت من كل زوج بهيج.. يتمتعون بأكله مع أنهم لم يصنعوه وينقلنا السياق من آية المكان

---

(١) هذه أول تقدمة للتلاوة سجلت قبل خمسة عشر عاما.

وكانت تقدمة التلاوة من سورة النساء آخر ما سجل فهل أضاف الزمن الممتد جديدا..؟!!

إلى آية الزمان.. فأين أنتم من آية الليل والنهار؟

﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ﴾. يميز الله النهار من الليل.. فإذا أتى آخر النهار دخل أول الليل... والشمس تجرى إلى وقتها المحدد.. بتقدير العزيز العليم.. والقمر ينتقل كالمسافر من منزل إلى منزل.. ليعود فى النهاية كالعرجون القديم مقوسًا.. حاكيا فى نفس الوقت قصة الإنسان كما تذكرها الآية الكريمة.

﴿الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾.

كل ذلك يتم طبق الحكمة الإلهية المسيرة كلا فى فلكه بنظام لا يتعداه:

إن الشمس: هى سلطان النهار لا تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمر.. وإلا لكان فى شهر واحد صيف وشتاء فلا تنضج الثمار.. ولا تصلح الحياة. والقمر وهو سلطان الليل لا يسبق الشمس بحال.. **﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾**.

وهكذا تعبر الآية عنهما بضمير العقلاء.. ليفهم العقلاء من البشر أن النجوم سبقتهم إلى الله لعلهم يعتبرون.. فيسبِّحون! ثم يضبطون حركة حياتهم وفق أمر الله تعالى.. وحرام أن يعرف الكائن الجاهل ربه بينما عقل الإنسان هامد لا يتحرك.. غافل لا يتذكر.. وكهذا الكوكب السيار تمخر السفن عباب البحار آية ينبغى أن تذكر فيشكر خالقها سبحانه.. الذى حمل الإنسان.. عليها وعلى مثلها من الحيوان.. مع قدرته سبحانه على إغراقهم مع وجود أسباب النجاة لولا أنه تعالى يرحم المؤمن.. ويمتع الكافر إلى حين.

رمع كل هذه الآيات الدالات على الحق سبحانه.. فقد بلغوا فى الكفران حدا ما عظموا فيه الخالق.. ولا أشفقوا معه على مخلوق فحرموا من عنصرى العبادة: فإذا ﴿قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا..﴾.

وإذا صُرِّفت بين أيديهم الآيات وتنوعت.. استمروا على إعراضهم.. وما قدروا الله حق قدره.. والأرض جميعا قبضته.. والسموات مطويات بيمينه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا..﴾ وأنفِقوا من رزق الله الذى استودعكم إياه

بفضله.. تبجحوا وقالوا كما حكى القرآن ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ..﴾.

ولم يقف بهم البخل عند حد الإمساك.. لكنهم يسبون الداعين إلى البذل لاصقين بهم تهمة ضلال هم منه براء.

ولا يكتفون بالبخل وإلصاق التهم بالأبرياء. بل على هذا الإعراض مزيد من السخرية بيوم القيامة.. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

هذا الإعراض الذى يستنزلون به وعيد الله تعالى بصيحة واحدة تحتويهم وهم مشغولون بأمر دنياهم..

صيحة: هى فى عنفوانها وسرعتها لا تبقى لهم فرصة يوصون فيها.. وإنها لتبهتهم فَيُخطفون من الحياة بلا تحية وبلا وداع! ثم إذا هم يواجهون مصيرهم المحتوم.. فى يوم معلوم.

وإنهم لينتقلون إلى يوم الحساب العسير.. حين يخرجون من قبورهم سراعا.. يَدْعون بالويل على أنفسهم.. شاهدين عليها بالظلم.. معلنين صدق المرسلين على نحو لا يفيدهم بعد فوات فرصة التكليف.. وليس هناك إلا قانون يحكمهم هو قانون الحق: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

ثم يهمل السياق هؤلاء فى غمراتهم.. ليعرض صورة وضيئة لأصحاب الجنة المشغولين بالنعيم المقيم.. مع أهليهم وولدهم فى جلسة هانئة وادعة.. يظللهم سلام وأمن من ربهم الرحيم وإن الإحساس بالمتعة ليربو فى قلوبهم حين يقال للمجرمين... ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

إن الذين حولوا الحياة بسخرياتهم ومؤامراتهم إلى جحيم يصطلون اليوم بالنار.. جزاء من جنس ما كانوا يعملون.. بينما الذين استحالت بهم الحياة جنة.. ﴿فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ. لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ. سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ. وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾.

سورة الصافات: من قوله: ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ ﴾ آية ١٤٥
إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّهُ أَوَّاب ﴾ من سورة «ص» آية ١٧

لم يفتر يونس عليه السلام ـ وهو فى بطن الحوت ـ عن ذكر الله تعالى.. ولولا تسبيحه لبقى فى بطنه أبدا.. لكنه ظل موصول القلب بربه سبحانه. فكان جزاؤه أن لفظه الحوت على الشاطئ الآمن متعبا.. وأنبت الله تعالى عليه شجرة بلا ساق أظلته فحمته حتى استوى على سوقه.. مكلفا من جديد بإبلاغ قومه رسالة ربه تعالى.. فصدقوه مستأنفين معه حياة نالوا فيها حظهم من نعيم الدنيا.

ولقد كانت قصة يونس عليه السلام مسك الختام بعدما قص الله تعالى من سير الأنبياء قبله فى سورة الصافات.

هذه السيره الشاهدة بسوء عاقبة التكذيب.. ثم بما تحققه الطاعة والذكر من فلاح ونجاح. وعلى ضوء هاتين الحقيقتين تبدأ محاكمة الكافرين المناوئين لمحمد ﷺ: ﴿**فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون..**﴾ الآيات..

لقد افتروا على الله الكذب حين أضافوا البنات إليه سبحانه وهى أضعف الجنسين.. بينما ظفروا هم بالأقوى! وزعموا الملائكة الذين هم عباد الله إناثا.

بل جعلوا بينه ـ سبحانه وتعالى ـ وبين الجن قرابة ونسبا... فمن أين استمدوا هذه الأحكام أو هذه الأوهام؟

إن طريق المعرفة واحد من ثلاثة أمور: الحس. أو الخبر. أو النظر.

أما الحس فمفقود.. لأنه لم يشاهدوا خلقهم. وأما الخبر: فهم كذابون.. وصدقهم المزعوم لا تقوم له إشارة ولا أمارة.

أما النظر: فإن العقل قاض بأن الشىء الذى يستنكف منه المخلوق. كيف يمكن إثباته للخالق سبحانه؟

ثم.. إن الله تعالى أكمل الموجودات على الإطلاق.. والأكمل لا يليق به أضعف الجنسين.. وإسناد الأفضل للأفضل أولى فى ميزان العقول. إن كان لابد

من إسناده. ألا وإن قوما لا يزكيهم حس ولا خبر ولا نظر.. إنهم فارغون من مقومات الصدق مهيأون بطبيعتهم إلى الافتراء البالغ حد نسبة الولد إليه سبحانه وتعالى... فماذا دهى القوم حتى وصل بهم التجنى إلى منتهاه؟

﴿مالكم﴾ وأين عقولكم؟ كيف تحكمون هذا الحكم الجائر؟

هل لديكم حجة تثبت مدعاكم؟ ألا فائتوا بها إن كنتم باحثين عن الحق فعلا.. وطبعا.. لا جواب هناك.. ولكنه المضى فى رحلة التجنى.. حين يزعمون أن بينه سبحانه وبين الجن قرابة.. فى الوقت الذى تشهد فيه الجن أنهم - أى الكفار - مستحقون للنار محضرون فيها بسبب هذا الادعاء الذى تنزه عنه الحق تعالى.. أما عباد الله المخلصون فهم بنجوة من هذا المصير..

وقد يسول الغرور للطغاة أنهم يغيرون فى واقع الحياة كيفما شاءوا.. وأن لهم تأثيرا فى عقول أناس يُخدعون بمكرهم.. ألا فليعلموا أن الذين يحتطبون فى حبالهم حفنة ممن علم الله تعالى أنهم من أهل النار.. أى أن من يُضلونهم جاهزون للضلال فعلا ولا عمل للمضلين إلا أنهم كانوا سببا من أسباب الضلال. فلا يظنن الطغاة أنهم على شىء..

يشهد بذلك الملائكة الذين يقرون أنهم عباد الله المسبحون. لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ويكشف السياق فى النهاية عن واحدة من تمنياتهم الباطلة حين زعموا أنهم لو أُنزل عليهم كتاب لتنافسوا فى العمل به.. لكن الواقع الصارم يشهد بفساد مدعاهم حين جاءهم أشرف الذكر فكفروا به.. فسوف يعلمون.

والحقيقة التى تفرض نفسها: أن أعداء الحق قد يسحرون الأعين بانتصارات وهمية بيد أن النصر فى النهاية - والعبرة بالخواتيم - لجند الحق.

والحكمة قاضية بالإعراض عن هؤلاء إلى أن يفاجئهم مصيرهم المحتوم غدا أو بعد غد.. عذابا رهيبا إذا نزل بديارهم فساء صباحهم..

ومرة أخرى تول عن هؤلاء الذين يستعجلون عذابا ماذاقوا له طعما بعد..

وسوف يبصرون بأعينهم غدا ما يسخرون منه اليوم.. فاستمسك بالذى أوحى إليك منزّها ربك عما يقولون.. ولعنة الله على الظالمين. وسلام على المرسلين. والحمد لله رب العالمين.

ولكن: هل طويت صفحة العناد.. وخلا الجو لدعاة الحق؟ أبدا.. إن قصة العناد لا تنتهى وما زالت الحرب دائرة بين الحق والباطل.. وتأتى سورة «ص» حاكية فصلا آخر منها.. كاشفة عن جانب من البواعث الصارفة عن الحق: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ . بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾.

فعلى رغم أن القرآن قد استجمع كل عناصر الصلاح والفلاح إلا أن المعاندين رفضوه.. ولم يرفضوه لعيب فيه.. بل كان العيب فيهم أنفسهم:

إنهم غارقون فى الاستكبار إلى آذانهم.. إلى جانب مخالفتهم لله تعالى ولرسوله.. فى إطار من غفلة مستغرقة سولت لهم أن يقفوا ذلك الموقف. ذاهلين عن مصير أسلافهم الذين كذبوا.. فلما جاءهم العذاب نادوا بالخلاص.. ولا خلاص حينئذ ولا مناص!

ولقد عجبوا لأن النذير منهم ولأنه يدعوهم إلى التوحيد.. ولم يكتفوا بالتعجب لكنهم شنوا حملة من التشويش حين اتهموا الرسول بالسحر والكذب وهم آخر من يتهمه بذلك من حيث يشهدون أنه الصادق الأمين..

وهو بأمانته وصدقه المقرَّرين سلفا أجدر بالرسالة.. وإذن فليس للعجب من سبب. ويبرز السياق دور كبرائهم فى التمكين لحملة التضليل حفاظا على أوضاعهم الراهنة:

﴿وَانطَلَقَ الْمَلأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ﴾ إنها محنة فرضت علينا ولابد من مواجهتها... وإحساسا منهم بالهوان فى أعماقهم يفتعلون أسبابا لعلها تصرف الجماهير المخدوعة عن الحق.. ولعلها فى نفس الوقت تخفف مشاعر الهوان الذى يعذبهم:

إنهم يدّعون الإحاطة ببواطن الأمور.. فلم يخبرهم أحد من الكهان ولا من أهل الكتاب بحقيقة ما يسمعون.. ثم يزعمون إلى جانب ذلك أنهم الأشراف

والأعلى فلا مسوغ لتفضيل محمد عليهم؟ ويخرس الحق تعالى ألسنتهم كاشفا سبحانه عن سبب هذا التبجح: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾.

ولو ذاقوه لاعترفوا.. ثم يعدد السياق الأسباب التى قد تملى لهم ثم يجردهم فى نفس الوقت منها:

إن النبوة عطية من الله القادر الوهاب.. وما ملكوا هم خزائن رحمة الله حتى يزعموا قدرتهم على التحكم فيها.. وليس لهم من هذا الملك العريض نصيب.. وإلا فليحاولوا الصعود إلى العرش الأعلى ليدبروا منه أمر الكون.. وإنهم لعاجزون.. إنه مجرد تجمع هش.. هزيل.. محكوم عليه بالهزيمة. كأخوة لهم فى الضلال من قبل.. شاركوهم فى أسبابها: ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾.

وما هى إلا صيحة واحدة مالها من تأخير إذا جاءت.. ولم يبق إلا الصبر الجميل.. كما صبرا أولوا العزم من الرسل.. وإن يوم الخلاص لآت لا ريب فيه.

سورة الزمر: من قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا﴾

[آية ٥٣ إلى آخر السورة]

يقول الحق سبحانه :

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا..﴾ الآيات..

تكمن قابلية التوبة فى نفس المذنب كمون النار فى الحجر: إن قدحته.. أورى.. وإن تركته.. توارى!

والآية الكريمة قدح لزند النفس حتى تفيق من غفلتها بالتوبة النصوح.. قبل أن تتوارى باليأس نوازع الخير فيها..

يقول الشوكانى فى «فتح القدير»[1]:

[اعلم أن هذه الآية أرجى آية فى كتاب الله سبحانه.. لاشتمالها على أعظم بشارة:

فإنه أولا أضاف العباد إلى نفسه لقصد تشريفهم وتبشيرهم.. ثم وصفهم بالإسراف فى المعاصى.. وعقب ذلك بالنهى عن القنوط من الرحمة لهؤلاء المسرفين.. فالنهى عن القنوط للمذنبين غير المسرفين من باب أولى.

ثم جاء بما لا يبقى بعده شك، ولا يتخالج القلب عن سماعه ظن فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

فاللام للجنس فهو فى قوة: إن الله يغفر كل ذنب كائنا ما كان. ثم لم يكتف بهذا بل أكد ذلك بقوله ﴿جَمِيعًا﴾. فيا لها من بشارة ترتاح لها قلوب المؤمنين المحسنين ظَنَّهم بربهم. الخالعين ثياب القنوط. الرافضين لسوء الظن] انتهى..

---

(١) بتصرف.

ثم توج ذلك كله بما يسد منافذ اليأس: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وهذا درس للدعاة ليبسروا ولا يعسروا ويبشروا ولا ينفروا.. إن اليأس من المغفرة يدفع المسرف من الناحية العملية إلى واحد من طريقين:

إما الانطلاق مع الشهوات فى رحلة لا يعود منها.. وإما الكبت.. وما يترتب عليه من عقد نفسية..

وأحلى الأمرين. مُرّ. فليحاول الدعاة أن يقفوا بالعصاة عند حد.. حتى لا يعودوا إلى سالف أيامهم.. ذلك بأن المعصية تزيد الشهوة ضراوة.. والنفس جرأة.. وعلينا أن نقاوم تلك الضراوة.. وهذه الجرأة.. فإذا لم تهزم إرادة المعصية.. فربما كانت الحرب سجالا.. فالوعظ على كل مفيد.. واحتمال التوبة قائم... وللأمور مواقيت مقدرة وكل شيء له وقت وإبان فإذا تم عنصر البشارة بأن الله يغفر الذنوب.. مهما كانت أحجامها.. وجميعا.. مهما كان عددها.. إذا تم ذلك.. جاء عنصر النذارة لتتم الموعظة كمالا.. وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فإذا عادوا إلى الصراط المستقيم... كان عليهم أن يتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم.. فلا يرضون بالقريب من الغايات.. بل عليهم أن يكونوا صقورا.. لا تكف عن الطيران حتى تستقر على القمم السامقة.. وضمن حملة الإنذار من سوء العاقبة تؤكد الآيات ضرورة التوبة فرارا بهم من موقف الحساب حين يبغتهم العذاب.. فيعتصرهم الندم.. ويتحرقون شوقا إلى رجعة إلى الدنيا.. وهيهات.. وسوف يواجَهُون بما كان منهم من تكذيب واستكبار.. ينعكس اليوم على وجوههم غبرةً. بينما المؤمنون التائبون بنجوة من هذا العذاب.

وتلك هى النهاية يخبر بها القادر على تنفيذها سبحانه.. وكيف لا وهو ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ. لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.. أجل هم الخاسرون الذين حرموا أنفسهم من هذا الرزق الحلال.

وإذا كانت هذه نهاية الكفران.. وتلك عاقبة الإيمان. أليس من العجيب أن تدعونى إلى عبادة غير الله تعالى أيها الجاهلون.. مع أن الشرك مفسد للأعمال مؤد إلى الخسران.. وتلك حقيقة نطق بها الحق الأعلى على مدار التاريخ.. حين جعل التوحيد حقيقة مقررة.. بينما الشرك دخيل على طبيعة الإنسان.. وقد بلغ من شؤمه أن الرسول وهو سيد الخلق لو أشرك لأحبط الشرك عمله.. لكن ذلك الموقف المنحرف من قبلَ المشركين ينبع أساسا من عدم إحساسهم بعظمة الله تعالى بينما ﴿الأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.. وإذا كان اليوم عمل.. ولا حساب.. فغدا يكون الحساب ولا عمل. حين يُنفخ في الصور.. فيقوم الناس لرب العالمين.. فى ضوء عدله المطلق سبحانه: ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وإذا اختلفت الأعمال فى الدنيا.. فطبيعى أن تختلف العواقب.. التى يشير إليها السياق.. فبينما يساق الكافرون إلى جهنم جماعات.. يهملون لدى أبوابها.. فإذا فتحت أبوابها ورأوا العذاب صك أسماعهم ذلك التأنيب بسبب استكبارهم.. فاعترفوا صاغرين بجرمهم:

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ. قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

وفى نفس اللحظة يساق ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ﴾ وفودا مكرمين.. فى موكب آسر تحفه الملائكة. ويظلله السلام... ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾... وعندئذ تتم السعادة بذكر الله حامدين فضله:

أ ـ أن زحزحهم عن النار. ب ـ ثم أدخلهم الجنة.

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾... ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

سورة الزخرف: من قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُم﴾ إلى قوله تعالى : ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾[٢٤ ـ ٧٠]

إذا كان حب الدنيا رأس كل خطيئة.. فقد كان المقلدون على رأس الخطائين الذين أغمض النعيم أبصارهم فلم تر الحق.. وطمس على قلوبهم فلم تنفعل به.. وجاءهم من ربهم الهدى فرفضوه وهو أجدى وأهدى من تراث آبائهم.

لقد عطلوا بالتقليد منافذ المعرفة. فصاروا بالتعطيل غثاء ينبغى تنحيته.. فكان الانتقام الإلهى.. ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وبقى الموقف درسا حافلا بالعبر المعروضة للناظرين ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ وتبرز فى نفس اللحظة قصة إبراهيم عليه السلام شاهدة عليهم بالإثم والعدوان.. ذلك بأنهم ردوا الحق وآثروا التقليد..

وإذا كان ولابد من تقليد فلماذا يقلدوا أباهم إبراهيم عليه السلام ـ ولهم فيه أسوة حسنة ـ؟ لماذا قلدوا آباء السوء.. وتركوا اتباع إبراهيم الذى وفى: حين تحدى المجتمع كله واعتصم بالتوحيد الذى بقى من بعده حقيقة تواكب الحياة.. ليعود إليها الشاردون الضاربون فى التيه؟

وما غابت عنهم تلك الحقيقة فلم يكن الغباء مشكلتهم.. ولكنه النعيم: خدر فيهم الإحساس بها. فأصبحوا يهرفون بما لا يعرفون:

قالوا عن الحق المبين: هذا سحر. وقالوا: هلا نزل القرآن على عظيم غير محمد؟ ويخرس الحق تعالى ألسنتهم بالحجة الدامغة... نحن قسمنا بينكم أرزاق الدنيا: ماديها ومعنويها ليتكامل البشر.. فما اعترضتم على تقسيمها.. وهى أدنى... فكيف تعترضون على قسمة النبوة وهى أعلى؟

إن قيم الخير أولى بالترجيح. وهى المقياس الحقيقى لعظمة الرجال.

أما مظاهر الحياة التى تريدونها أساس تقدير البشر.. فهى فى ذاتها حقيرة لا قيمة لها.. ولا تضيف إلى صاحبها شرفا إذا حرم عناصر الخير. بدليل أنه تعالى

لو أراد ـ لأغرق كل كافر بالنعيم وأسكنه القصور المرصعة بالجواهر استهانة به وبها.. لكنه تعالى لم يشأ ذلك. حتى لا يجتمع البشر على الكفر رغبة فى هذا النعيم.. وحتى تظل الحياة ماضية مشدودة إلى أوتادها الثابتة وهى: قيم التقوى.

وليت شعرى.. ما قيمة دنيا تسفر عن شيطان مريد يلازم صاحبه كالظل يهدم بالوسوسة ما يبنى... ومتى يبلغ البنيان يوما تمامه.. إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟

وذلك جزاء أعداء الله الذين أغمضوا أبصارهم فلم تر النور.. وعاملوا شريعة الرحمن.. بالنكران؟

والذين سول لهم الشيطان وأملى لهم حتى حسبوا أنهم على الهدى.. بينما هم من الضلال فى القاع البعيد؟

وما قيمة الدنيا كلها إلى جانب لحظة يتلاوم فيها الظالمون والنار تشويهم.. هل يخفف عنهم الاشتراك ألم العذاب كما قالت الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى؟!

أبدا: إن الأمر على ما يقول سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾.

وأنت يا محمد: هون عليك وجفف دمعك الغالى: لقد صاروا صما وعميانا.. فلو أسمعتهم ما سمعوا.. ولو أريتهم ما رأوا.. حتى الشمس فى رائعة النهار.. وليس يصح فى الأذهان شىء ـ إذا احتاج النهار إلى دليل. فامض لما أمرك ربك سبحانه مستمسكا بالوحى ثابتا عليه.. وتلك مسئوليتك وأمتك من بعدك على طريقك. ويحملك على الاستمساك: أنك على الحق المبين... وأن جريمة القوم. وتحرشهم بك لن تمر بلا عقاب قد تراه.. أو تموت قبل أن تراه فهو لا محالة واقع بهم.. فلا تشغل وقتك بنهاية لست مسئولا عنها.. بل اجعل همك إبلاغ القرآن الذى كان شرفا لك ولقومك.. وهو مستراد الآمال وصانع الرجال.. ورافد الكرامة.. وسوف تُسألون جميعا عن موقفكم منه..

إن مستقبل الأمة موهون بهذا الكتاب العزيز.. والسير على هداه. ولن تغنى

عنه مذاهب الأرض جميعا.. ومن أعرض عنها.. فلا قيمة له.

واسأل التاريخ أيضا ينبئك بالخير: إن ما تسمعه اليوم من قريش سبقهم إليه فرعون حين جاءه موسى عليه السلام بالهدى: فالكفر ملة واحدة!

ضحكوا من الآيات البينات.. ومع قوة الدلالة فيها أنكروها فكان العذاب قدرا مقدورا.. ولم يكن انتقاما.. ولكن: ليعردوا إلى الصف المؤمن.. فلما كشف الله عنهم العذاب بدعاء موسى عليه السلام عادوا لما نهوا عنه.. فانتقم الله تعالى منهم.

وتلمح في هذا التذبذب شخصيات مهلهلة.. وهي بهذا مرتع خصيب لكل دعوة هدامة.. وهذا ما عرفه فرعون الذكي.. فاستغله لصالحه:

زها بماله. وملُكه العريض. مستكبرا على هذا الفقير الذى لا يكاد يبين والذى لا سند له فى دعواه. فاستَسْلمت للاغراء أنفس ضعيفة.

فكان طبيعيا أن يستخف قومه.. فالإلحاد لا يستخف الأوتاد المغروزة فى الأرض ولكنه يحاول خلخلتها بالكتاب المسموم.. والنغمة المتكسرة.. والفكرة المغرضة حتى إذا فسقوا.. إذا خرجوا عن الخط المستقيم لم تكن لهم جذور.. بل صاروا كيانات هشة.. فاصطادها.. فريسة سهلة.. وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.. ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

ومن فرعون الذى يلوح بسيفه وجاهه إلى زميله المجادل المتعنت والذى قال للرسول ﷺ: أنت تقول أنتم فى النار مع معبوداتكم. وإذن فعيسى فى النار مع من يعبدونه!

ويرد القرآن على هذه المغالطة المكشوفة بالكشف عن طبيعة عيسى عليه السلام: إنه عبد.. أنعم الله عليه بالرسالة منار هدى لبنى إسرائيل.. وعَلَما على الساعة التى يجب عليكم الإيمان بها واتباع الصراط المستقيم.. وها هو ذا عيسى عليه السلام نفسه يحدد وظيفته: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

ولكن رد الفعل كان الاختلاف المؤدى بالمختلفين إلى عذاب يوم أليم.. يوم القيامة التى سوف تبهتهم فلا يستطيعون ردها.. وسوف تفاجئون بقيم الأرض تتقلب رأسا على عقب.. فالأخلاء المتعاونون اليوم على الإثم والعدوان يلعن بعضهم بعضا والذين جمعتهم الدنيا.. تفرقهم الدنيا.. أما المؤمنون فإنهم فى أنس دائم ونعيم مقيم: وأعلى صور النعيم مخاطبتهم **﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ . الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ . ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾**.

سورة الشورى: من أول سورة الشورى..
إلى قوله تعالى :﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [١ ـ ٢٤]

تُفتتح سورة الشورى ببيان أن الله تعالى كما أوحى إلى الأنبياء قبلك. يوحى إليك ما أوحى من الرسالة الصادرة عن الله العزيز الحكيم.. العلى العظيم.. الذى يملك ويحكم ويصرف ما فى السموات والأرض.. وليس هو كما تصوره الفلاسفة إلها.. يملك ثم يترك للسنن الكونية تصريف شئون الخلق نيابة عنه.. سبحانه وتعالى.

ومع تلك العظمة الآخذة بناصية الأكوان.. فإن قوما يجحدونها ناسبين إليه سبحانه ما لا يرضى من القول..

وتصور كيف تخرج الكلمة الخبيثة من فم الإنسان فإذا هى كالصاروخ تعبر جاذبية الأرض حتى لتوشك السموات العلا أن يتصدعن ليتهدم بناء العالم على رءوس الخلق.. لولا أن الملائكة ينزهونه تعالى عما قيل.. شاهدين بعطائه السابغ.. مستغفرين لمن فى الأرض استغفارا لعله أن يعود بالقطيع الشارد إلى ربهم الغفور الرحيم.

فإذا مضوا فى رحلة العناد متخذين لله أندادا ... فقد انتهت مهمتك يا محمد.. فلست مسئولا عن أعمالهم ...ولا مكلفا بهدايتهم ... وإنما عليك البلاغ ..وقد بلغت... وعليك أن تواصل البلاغ بهذا القرآن العربى المبين ... تنذر به مركز المعمورة فى مكة إنذارا ينساح ليشمل أهل الأرض جميعا ... مخوفا بيوم يجتمع فيه الخلائق.. ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾

وإذا علا وجيب قلبك حزنا إن لم يكونوا جميعا فى الجنة ... فاعلم بأن ذلك قد كان ممكنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾مهتدية .. ولكن هل كان البشر عند حسن الظن بهم؟

أبدا .. إن فريقا منهم ساروا فى الاتجاه الصحيح .. فأدخله الله فى

رحمته .. ويبقى فريق سادرا في ضلاله فحفر بيده قبره: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾

لقد اتخذوا غير الله أولياء .. مع أنه سبحانه هو الولى وهذه دلائل ولايته:

﴿يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فأين قدرة المخلوق .. من قدرة الخالق؟ لا مقارنة على الإطلاق .. وبالتالى فلا ينبغى أن يكون خلاف حول قضية التوحيد الظاهرة كأنها الصحوة الكبرى .. ولو فرض وكان خلاف .. فردوه إلى الله .. الذى فطر السموات سقفا .. والأرض مهادا .. وجعل لكم من أنفسكم أزواجا من جنسكم .. ومن الأنعام كذلك .. فتناسلتم وتوافقتم على سنة النظام والاتحاد السارين فى أعطاف الكون .. إنه الولى الحقيقى و﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾.. بيده تعالى مفاتيح الرزق المعنوي .. وهو الرسالة .. والرزق المادى بسطا وقبضا. طبق ما تقضى مشيئته سبحانه .

وفيم الاختلاف وقد ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾؟

إن الاختلاف بعد اتحاد الأصول مؤامرة ينبغى التصدى لها والذين دبروها بليل من المشركين الذين شق عليهم ما ساقه إليكم سبحانه من فيوضات الهدى.

ولاحظوا التعبير بالفعل «وصى » فى جانب الرسالات الأخرى .. وبالنسبة لرسولنا بالفعل : أوحى ..

ثم تأملوا التعبير بلفظ «ما» فى جانبها .. وبالموصول الأصلى فى جانب رسالة محمد﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ اعتناء بها .. وتأملوا .. لتدركوا كيف ورث الإسلام حقائق الأديان قبله .. ثم صار بشريعته الشاملة الكاملة أصلا ثابتا ضارب الجذور .. بينما أفسحت له الرسالات قبله الطريق ليتقدم هو .. حاملا راية الإصلاح .. وإلى الأبد ..

هذه هى الحقيقة التى تفرض نفسها .. ولا ينكرها حتى الذين اختلفوا

فيها . فما اختلفوا إلا بعد أن علموا . . إذن هو العناد . . وليس الاجتهاد !

وكان من الممكن إراحة العباد من هذا العناد بتدمير أهله . . ولكنه تعالى حدد لهذا التدمير ميقاتا لهم ولأمثالهم ممن جددوا قصة الطغيان.

ويفرض عليك هذا التآمر من قوى البغى أن تستمسك بالذى أوحى إليك داعيا . . مستقيما على الجادة . . ﴿وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ .

إن أعداء الدعوة لصوص يريدون بالأهواء أن يسرقوا أوقاتكم المرصودة لتجلية الحق والدعوة إليه . . فاقطع عليهم الطريق دامغا لهم بهذه الحقائق :

﴿ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

وبهذه السمات البارزة تتحدد الشخصية الإسلامية . . التى تحتل الساحة بلا منازع . . وبما ملكت من عناصر الكمال . . وينتهى الحوار مع الأشرار إلى يوم الفصل . . ويسدل الستار بعد ما تبين الهدى . . وكل محاولة للجدال العقيم مقضى عليها بالفشل . . بعد ما استجاب العقلاء للحق المبين .

وإذا ظن هؤلاء الغافلون أنهم بنجوة من العذاب . . فقد أخطأوا . . فحجتهم باطلة . . وعليهم غضب . . ولهم عذاب شديد . .

وتلك شريعة العدل التى سوف يحاكمون إليهم عندما تقوم الساعة القريبة الوقوع . . والتى لا يستعجل بها إلا من لايستشعر هولها . . كالأطفال الصغار يهجمون على النار جهلا وغشما . . فى الوقت الذى يهز الخوف قلوب المؤمنين العارفين بما فيها من أهوال.

ومع هذا . . فالله تعالى أبدا ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ يبسط يده بالليل . . وبالنهار ليقبل عليه التائبون . . والإنسان مبدأ الخير . . وجالبه لنفسه بتوفيق الله تعالى : فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها . . ضاعف الله ثوابه . . ومن أراد الدنيا . . لم يصب إلا بعض ما أراد . . وبتقدير الله تعالى . .

تلك هي الحقيقة التى تضع فى يد الإنسان مفاتيح مستقبله .. وأسباب رخائه.. فلماذا لا يسمعون .. وإذا تلى عليهم القرآن لا يفهمون .. ولا يعلمون؟

هل لهم شركاء زينوا لهم هذا الانحراف بشرع مزعوم؟

نعم لهم شركاء زينوا لهم التهور .. فسموه شجاعة .. وأوهمهم أن النفاق شطارة .. والإسراف كرما .. والإلحاد تقدما.. فليزينوا ما شاء لهم التزيين .. فلن يغير ذلك من طبائع الأشياء .. وليأخذوا الدنيا بالعرض .. والموعد القيامة حين : ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا﴾ .

ولن يجديهم الخوف .. حينئذ .. فهو واقع بهم ما كانوا يجحدون .. ومما يزيد طينهم بلة ما يشاهدونه من حال المؤمنين الناعمين فى روضات الجنات.. لهم فيها ما يشاءون ..

وذلك مصير عباد الله المؤمنين فى كل زمان .. إنه الفوز العظيم يُهدى إليهم

وبلا من ولا أذى .. والكافرون مطالبون فقط بحفظ حق القرابة - وإن لم يهتدوا - ليبقى الود موصولا .. ومن أحْسَنَ بالالتزام زاده الله إحسانا .. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

يعصى .. فيغفر .. ويعطى .. ثم يشكر ..

وهذه الحقائق تحمل دلائل صدق قائلها .. وإذن فدعوى الافتراء .. محض افتراء.

سورة الحجرات كلها

إذا كان الإيمان عهدا بين العبد وربه سبحانه وتعالى .. فمن الوفاء بهذا العهد مراعاة الأدب مع رسوله ﷺ.. ومن مظاهر هذا الأدب :

أولا: الا نقطع أمرا قبل أن يحكم الله تعالى ورسوله: **﴿ لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾**

وحذف مفعول (تقدموا) .. ليبلغ الأداب مداه .. فلا نحاول أن نتقدم متعجلين الحكم فى أى أمرهما بدا ضئيلا .. متخذين موقع التابع .. الذى يترك للمحكمة العليا أمر حسم قضاياه فى دنياه .. وفى أخراه.

﴿واتقوا الله﴾ تقوى تحول بينكم وبين محاولات تجاوز الحد... والاستقلال بالرأى. ذاكرين أنكم مشمولون برقابة من لا تخفى عليه خافية: **﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾**

ثانيا: احترام مجلسه ﷺ: فـ **﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾**

ثالثا: التأدب فى مخاطبته: فـ **﴿وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾**

فإذا استوفت الهيبة .. هيبة الرائد .. إذا استوفت عناصرها آتت التربية أكلها بإذن ربها .. ذلك بأن إجلال المبادئ فى باب التربية والدعوة .. نابع أساسا من هيبة المربى والداعية.. الذى نحترمه. فنحترم معه مبادئه .. ثم نسابق إلى العمل بها طائعين ... وإلا .. فإن التقصير فى حق الدعاة.. وعدم توفيتهم حظهم من الاحترام.. ينعكس على الدعوة قصورا .. لا يتحمل الدعاة وحدهم مسئوليته..

إن الرجوع بالداعية ليكون فى آخر الصفوف يجعل من الدعوة مجرد تلقين لا يثمر فائدته المرجوة. وذلك قوله تعالى: **﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾**.

فالسائمة التى تأكل.. وتأكل.. فوق طاقتها.. لن تستفيد من هذا الركام.. بل قد تصاب بالضرر من الحبط الذى يكثر به الأكل .. فتنتفخ بطنها ولا يخرج منها.. ألا وإن الكلمة الطيبة الصادرة من قاعدة لا تشعر بقيمتها .. والواصلة إلى مستمع لا يقدر صاحبها قدره .. يجعل من الكلمات ركاما .. قد يزحم

الجو .. لكنه لا يثمر عملا مفيدا.. أما ﴿الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ﴾.. اما الذين يقدرون الداعية قدره .. ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى﴾ فكانوا أحق بها وأهلها .. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ حرم منه المتسرعون الذين تخلي عنهم صبرهم.. ففاتهم ذلك الفوز العظيم.

ولكن .. من أية جهة تهب رياح السموم ؟ .. ومن الذى يحاول أن يهز صورة القيادة فى أعين الناس حتى لا تكون ثقة رابطة ؟

إنه الرجل الفاسق .. الذى خرج عن الخط .. فكان عن يمين الحق .. أو شماله .. فاحذروه ..

ومن شأن الإيمان العاصم أن يجعل من خلخلة الصف المؤمن شيئا غير وارد :

﴿إِن جَاءَكُمْ﴾ فأنتم بالايمان كيان واحد .. غير قابل للاختراق .. وأرض لا تنبت فيها أعشاب طفليّة .. ولو فرض وحدث ذلك فعن طريق عدو .. يجيئكم من خارج الساحة الإسلامية ..

﴿إِن جَاءَكُم﴾ لا من بينكم أنتم .. فاحذروه .. حتى لا تصيبوا قوما مظلومين .. سوف ينهضون للدفاع عن أنفسهم بالحق وبالباطل .. فيقذفونكم بمثل قذائفكم أو أشد.. فتندمون .. ولكن بعد فوات الأوان ..

﴿واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم﴾ .. لهلكتم .. لو ورطتم القيادة فيما لا تحمد عقباه من الأمور التى سوف يصيبكم كفل منها.. ولكن الله تعالى عصمكم بالإيمان .. ووجود الرسول ﷺ بينكم .. فاشكروا هذه النعمة بالاعتصام بحبل الله جميعا.. ولا تفرقوا .. فإذا نزغكم من الشيطان نزغ وتنازع منكم طائفتان فواجبكم أن تتدخلوا لإصلاح ذات البين .. فإذا لم تستجب إحداهما فقفوا إلى جانب المظلوم كسرا لشكوكة العدوان. واجعلوا آخر الدواء القتال .. فإذا عادت .. فلا يكفى إلقاء السلاح .. بل لابد من ملاحقة الطائفتين بالحكمة حتى تذهب آثار العدوان المستقرة فى النفوس.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .. ولكى يستمر الوفاق بين صفوف الأمة .. فأنتم منهيون عن كل ما يضر بهذا الوفاق :

﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ﴾

وربما انبعثت إرادة السخرية فى المحافل التى تجمع أشتاتا من الناس . . حين يحاول بعض العابثين كسب معركة رخيصة عن طريق التعرض بآخرين قد يكونون أفضل ممن سخر منهم . . . وإلا . . فأنتم قوم . . وهم قوم .

وأنتن نساء . . وهن نساء . فالمادة واحدة . . فلم السخرية إذن ؟

إنكم إذن تطعنون أنفسكم . . والطعن . . والتنادى بألقاب السوء . . يرتد عليكم ذلك وبالا . . فالمعركة منتهية بهزيمة الفريقين . . من حيث كان الجميع نفسا واحدة . . فاستمروا مؤمنين . . على طريق الأخوة . . فرارا من نكسة تعود بكم إلى الفسق بعد أن صرتم مؤمنين . . وضعوا حدا لهواجس الظنون تطوفون بها حول الأبرياء من الناس . . فتجنبوها . . ولو كنتم تملكون دلائل ترجيحها . . فقد يكون بعضها ظلما . . وأحسنوا الظن بإخوان لكم . . وعاملوهم بما ظهر من أحوالهم . . ولا تجسسوا . .ولا يغتب بعضكم بعضا . .

وإلا فهل يحب أحدكم أن يأكل لحم إنسان . . هو أخوه . . والذى صار ميتا؟!

وربما كانت السخرية . . والتجسس . .والغيبة صادرة عن إحساس بالتميز . .

وإذن فاعلموا : أن المعادن قد تتفاضل . . لاختلاف أصولها . . ولكن أصلكم واحد . . ففيم الخلاف بينكم؟!

يا أيها الناس . . يا سكان الكرة الأرضية جميعا . . لا داعى للخلاف أبدا. . فإذا لم توحدكم الأديان . . فأين المروءة . . وإذا كان ولابد من تفوق . . فإنما هو بالتقوى . . التى هى مقياس التكريم. وليست القضية دعوى بالكلام والشعارات . فمن ادعى رتبة أعلى فليؤكد ذلك بالعمل : ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾.

ولا تتحقق الآمال إلا بطاعة الله تعالى ورسوله . . وهذا طريق النجاة . . لمن أراد النجاة. . والتوفيق إلى السير فيه نعمة من الله على عبده . . ينبغى أن تذكر فتشكر . . فالمنة منه تعالى وحده .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

سورة الواقعة كلها. .إلى قوله تعالى فى سورة الحديد
﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ آية ٥

عندما ركب المشركون رؤوسهم فأنكروا البعث والجزاء . . جاءتهم سورة الواقعة لتقص عليهم نبأ الفاجعة التى ستحل بهم يوما . . حين تقوم قيامتهم .

ثم يحاولون الإنكار فلا يستطيعون. . خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة :

﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ . لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ. خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾

تتغير أحوال الأرض . . كما تتبدل أوضاع الخلق: القصور العالية . . تتدحرج فى سفوح أعشاش تصير حينئذ كالبروج العالية . . ﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا. وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾

والظالمون الذين عاشوا ملء الأسماع والأبصار : من الجحيم في أسفل دركاته. . بينما ضحاياهم . . المؤمنون: من النعيم فى أسمى درجاته.

وينجلى الموقف العصيب عن أصناف ثلاثة يضعهم القدر الأعلى حيث أرادوا بأعمالهم . . ولكل درجات مما عملوا :

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ؟!

لو حاولت تصور عقبهاهم . . لتعب خيالك . . وارتد اليك حسيرا. . إنها أعظم مما تتصور !

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ ؟!

لو سرح بك الخيال لكان من المحال تصور مآلهم . . إنه أسوأ ما تتخيل !

أما السابقون . . فهم السابقون ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

إنهم هناك فى العالم الأسنى . . فلا تحاول ابتداء أن تتخيل ماهم فيه من نعيم:

لقد عبروا مثل سفن الفضاء جاذبية الأرض . . واستقروا هناك فى عالم

النور.. فكيف يحاول الذهن الكليل المحكوم بجاذبية الأرض أن يتصور هذا المقام الجليل؟!

وعلى أى حال .. لا تقطع الأمل فى الوصول .. فمنهم كثير .. من السابقين .. وقليل من المتأخرين .. وعسى أن تكون منهم .. فشد إليهم الرحال.. ومن سار على الدرب وصل إلى مثل ما وصلوا :

إنهم يتكئون على سرر منسوجة بالذهب .. يواجه بعضهم بعضا .. فى جلسة وادعة .. خالية من منغصات الدنيا :

يطوف عليهم غلمان مخلدون بخمر حلال لا تفسد العقل ولا تخدش الهيبة.. إلى فاكهة .. ولحم .. وحور مقصورات عليهم .. فى ظل السلام المرفرف عليهم .. والذى يجعل لنعمة الأكل .. والزوجة قيمة .. وفي غيبته لا يكون للنعمة مذاق.

أما أصحاب اليمين : فيتنقلون فى رياض الجنة : من شجر أملس بلا شوك.. الى طلح .. موز.. مثقل بالثمر كأنه العقد النضيد: يأكل الفم .. ويستمتع البصر بالظل الممدود والماء المسكوب فى صحبة زوجات متحببات إليهم . ومن وراء ذلك كله إحساس بصلاح البال أعظم من كل هذا النعيم..

ويشتد هذا الإحساس برؤية ما يتقلب فيه الظالمون .. من رياح كاوية .. ونار شاوية .. ودخان يحبس الأنفاس .. يضاعف حسرتهم على ما كان من ترف .. وإنكار للبعث .. ألا إنهم مجموعون اليوم .. آكلين ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ شاربين كالإبل العطاش... وحالهم كحالهم : لا يذوقون الموت .. ولا يستمتعون بحياة!

فأصبحت كالهيماء : لا الماء مبرد صداها ولا قاض عليها هيامها

و﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ فهلا تلافوه بإعمال العقل والقلب فيما يحيط بهم من آيات بينات تقودهم .. لو أرادوا ـ إلى الحق ؟

وإذا عمى العقل والقلب .. فهل عميت الأبصار عن هذه الأمور الجارية فى

حياتهم اليومية والتى تنصب شاهدة بصحة ما يسمعون ؟

هذا المنى الذى يصير بشرا سويا .. هل خلقتموه أنتم .. أم هو خلق الله.. الذى خلق الموت والحياة .. القادر على الذهاب بكم والإتيان بآخرين ينوبون عنكم فى الكشف عن دلائل الحق .. والتى منها : أن إعادة الخلق أهون من إنشائه.

وهذه ثانية تخرجكم إحراجا:

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ . أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾

إنكم تضعون الحبة .. التى خلقها الله .. وخلق اليد التى تضعها .. فلا يبقى لكم إلا مجرد السقى .. ولكن القدرة الإلهية وحدها هى التى تجعل من النواة السحوق نخلة فرعا.. والتى لو شاء الحق لجعلها هشيما .. فتعجبون .. وأليق بكم أن تتعجبوا من أنفسكم المصروفة بالعناد عن رؤية الشمس فى وضح النهار.

ولو كان دليلا واحدا ... لكفى .. ولكنه ثان .. وثالث.. هو ذلك الماء النازل من المزن.

من الذي أنزله .. بل من القادر على تغيير طعمه .. وهذه النار .. هل أنشأتم شجرتها إنشاء .. أم أنشأها القادر على إحراقكم بنار أشد منها ؟!

إنها تذكرة .. ومتاع للمسافرين .. فى الدنيا ..

وهكذا يلسعهم السياق بالأسئلة.. ثم لاجواب .. لأن الفطرة الصافية تعرفه مقدما.. وإذا أمسك العناد ألسنة المعاندين فلم تنطق به.. فتول أنت إعلان صوت الفطرة المحبوس خلف ضلوعهم ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾

هو الذى شهد بعظمتة هذا الكون الواسع .. الواسع لا يحده خيال .. شهادة تؤكد أن خالق الأكوان هو منزل القرآن .. وساخرة فى نفس الوقت من هؤلاء الذين يشكون فى حقيقته .. جاعلين من التكذيب بالقرآن شكرا ـ على طريقتهم ـ فى التعامل مع آلاء ربهم سبحانه . صادرين فى كل ذلك عن نزعة مستكبرة طاغية تظن أنها تصنع أقدارها بما لديها من مال وسلطان..

وكذبوا.. فلو كان الأمر كما تظنون .. وأنكم لا تبعثون ولا تُجازون .. فجربوا الآن:

هاهو ذا مريضكم يلفظ أنفاسه الأخيرة.. وأنتم من حوله حياري بعد أن عجز الطب .. وعز الدواء ..

هل تستطيعون أن تزيدوا فى عمره لحظة؟

وإذا خرجت الروح فهل تستطعون ردها .. الذى تستطيعونه فقط هو : الدموع الغزار فوق الفتى المسجى .. والدموع الغزار أيضا على فشلكم الذريع ..

ويجب أن تجف اليوم هذه الدموع لتروا بأعين باصرة ذلك الختام لرحلة الحياة والذى كان من جنس عمل العاملين :

إن الله تعالى لا يضيع أجر من أحس عملا .. فالمقربون فى روح وريحان وجنة نعيم .. وأصحاب اليمين فى سلام وأمن .. وها هم أولاء ومن وراء ستر الغيب يرسلون تحية الإسلام لمن سار على دربهم: ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾

أما المكذبون الضالون .. فإنهم يساقون إلى نهاية مهدوا لها بأعمالهم تمهيدا:

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿إن هذا لهو حق اليقين ﴾ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾.. سبح باسمه

فقد ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وهو مفتتح سورة الحديد. وجدير بك أن تأخذ مكانك مع الكائنات .. مرددا هذا النشيد العلوى الخالد ..

ومن غيره تعالى أجدر بالتسبيح وقد تفرد بالجلال والكمال؟:

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

هو الله : الخالق العليم .. اللطيف بعباده .. المالك .. القادر .. ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ .. وإذا كانت صحائف أعمالنا سترجع إليه سبحانه يوما .. فحرى بنا أن نعود بها .. بيضاء .. من غير سوء.

سورة الحشر : من قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ آية ١١
إلى قوله تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ آية ٩

حدثتنا سورة الحشر عن الأنصار الذين وقاهم الله بالإيثار شح النفس فكانوا هم المفلحين فلاحاً كان من آثاره أن حرك الله ألسنة المؤمنين من بعدهم بالدعاء لهم والاستغفار لذنوبهم: **﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

وتلك أخوة الإيمان دائما: يتلاقى المؤمنون فى رحابها على معنى الوفاء أحياء وأمواتا فى موكب يجعل منهم أمة واحدة.. موحدة.

أجل: هذه أخوة الإيمان.. فماذا عن أخوة الكفران؟

تجيب هذه الآيات :.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

والمنافقون هنا يلعبون دورهم فى الظلام.. باعثين من خلف الغيوم وعودهم المؤكدة بمناصرة حلفائهم اليهود قائلين لهم: نحن معكم.. إذا كتب عليكم الجلاء. ولن نسمع كلام أحد يريد خذلانكم.. ولئن هوجمتم فسنعلن حالة الطوارئ.. واقفين معكم فى خندق واحد.

فهل كان المنافقون قادرين على الوفاء بما وعدوا؟

﴿اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وإنما هو الأمل الكذوب: لا يروى غليلا.. ولا يشفى عليلا. والحقيقة التى تفرض نفسها هى: **﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾**.

ذلك بأنهم لا يفقهون.. ولا يعقلون.. ولأنهم لا يفقهون.. فهم يمضون فى الظلام لا يعرفون مواقع خطاهم.. ولا متى.. ولا من أين تأتيهم الضربة..

يحسبون كل صيحة عليهم. . فكيف ينتصرون؟ ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾.

إن واحدا من هذا التحالف الباغى لو واجه مسلما. . ماذا يحدث؟

يعتقد المسلم أن سيغلبه. . وهذا الكافر أيضا يعتقد أن المسلم سيغلبه. . فكان المسلم. . ونفس الكافر . . على الكافر .

ولأنهم لا يعقلون. . فهم يبحثون عن أسباب النصر خارج ذواتهم بينما لا يَضُمون قلوبهم على دوافعه المؤثرة:

إنهم يقفون جميعا وراء ترسانة من الأسلحة المستوردة. . قابعين خلف الخطوط الساترة ـ بينما العقول فى غاية الجهل لا تحسن الرؤية ـ ثم إنهم يتعاملون مع السلاح بأذرع راعشة خلفها قلوب واجفة. . وقد رأينا كيف بنى أعداؤنا الجسور. . فلما انقض عليها النسور. . طارت هباء. . وطاروا سدى.

طاروا كإخوة لهم من قبل فى بدر: اتخذوا من الغرور ركوبا قادهم إلى العذاب الأليم. . فكانوا جميعا فصلا فى قصة الشيطان مع حلفائه. .

﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾.

وتفرض الحكمة على المؤمنين الفرار من مثل هذا المصير المخزى. . . بالاعتصام بالتقوى. . زادا للرحلة الطويلة. . آخذين فى اعتبارهم ما قدموه للغد القريب:

فليتقوا الله أوّلا: بطاعته: والإخلاص فى عبادته والشفقة على عباده. وليتقوه ثانيا بالحذر من قطاع الطريق. فاتحين أبصارهم نحو الغد المأمول. . إن الاستغراق فى الماضى كما قيل انتحار. كما أن الاستغراق فى الحاضر. . انبهار.

ولتأخذ من الماضى عبرة للحاضر. . فاردين الشراع فى بحر الحياة عبر المستقبل الواعد. . منتفعين بدروس الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم التى تجمدت فيها مشاعر الخير فكانت جمادا. . ذاكرين المسافة الفارقة بين أصحاب النار

وأصحاب الجنة.. حتى نواصل المسير نحو الغد. فلا تحجبنا عنه مفاتن الدنيا.

وهذا هو القرآن العظيم.. حبل الله المتين.. يمتد إليكم من قبل الحق تعالى فاشكروا نعمته بالاستمساك به.

وكيف لا ينتفع الإنسان العاقل الحساس بالقرآن.. بينما لو أنزل على الجبل.. لخشع وكاد يتهاوى.

وأجدر بكم أن تخشعوا لعظمة منزلة سبحانه: الموصوف بصفات الكمال والجمال: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾.

الملك.. القدوس: البليغ فى النزاهة والطهارة.. الخالق. المقدر الأشياء طبق الحكمة البالغة.. البارئ: الموجد لها بريئة من التفاوت.. المصور: الموجد لصورها وأشكالها : ﴿له الأسماء الحسنى يسبح له مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وإذا سبحت بحمده الكائنات علويها وسفليها.. شاهدة بعظمته سبحانه.. فخليق بالإنسان أن يكون أكثر تسبيحا وتحميدا.. رافضا فى نفس الوقت أن يتخذ وليا: مَنْ عادى ربه المتصف بهذا الجلال وهذا الجمال.. وذلك ما تكفلت به سورة الممتحنة التالية لسورة الحشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

لقد كان لحاطب رضى الله عنه أهل فى مكة.. فأراد أن يجامل قريشا ليردوا إليه الجميل حفاظا على أهله. ومع أنه مؤمن كامل الإيمان. .ومع أن إفشاء السر لن يغنى قريشا حينئذ فتيلا.. ألا أن الموقف يحتاج إلى وقفة حساب.. ولفت نظر لكل من قد تسول له نفسه أن يترخص على حساب مصلحة الحق.. ومن ثم كان هذا البيان الإلهى الشديد اللهجة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾.

هكذا.. وبلا حساب للعواقب.. ولقد كان المتوقع أن يمنعكم من اتخاذهم أولياء موانع: مانع الإيمان: وهو عهد بينكم وبين الله تعالى. فلا تخونوه.. من أجل أناس كفروا بما جاءكم من الحق.. ولديكم ذكرياتكم المرة معهم:

أخرجوا الرسول.. وأخرجوكم من دياركم.. لا لسبب إلا لأنكم مؤمنون.. فجعلوا مانع الإخراج مقتضيا له.. فإذا كنتم خرجتم حقا للجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته.. فاحتفضوا بالشخصية الإسلامية صلبة العود ولا تلقوا بأسراركم هكذا جزافا.. ويحملكم على الالتزام إحساسكم بعلم الله المحيط.. ثم ما تعرفونه من غدرهم إلى حد أنهم لو تمكنوا منكم لسلطوا عليكم بأسهم.. وألسنتهم بالسوء فى حملة مغرضة تستهدف أن تكونوا مثلهم كافرين.. ولو تم ذلك فلن تنفعكم أرحامكم يوم الحساب.

ولقد كان لكم فى تاريخ أبى الأنبياء إبراهيم أسوة حسنة تمنعكم لو تأملتموها من التورط فيما حدث.

لقد وقف إبراهيم وقومه - إلا فى حالة استغفاره لأبيه - وقفوا موقفا صلبا فأظهروا البراءة مما يَعبد قومهم.. حتى يكونوا معهم على كلمة التوحيد..

فاذكروا هذا المثل جيدا.. ولكن لا تبالغوا فى قطيعة قومكم فلعل مخالطتكم إياهم أن تجذبهم إلى الإسلام.. الإسلام الذى لا يرى بأسا فى الإحسان إلى المخالفين فى الدين الذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم.. ولا بأس أن تبروهم وتقسطوا إليهم.. أما من قاتلوكم.. وأخرجوكم.. وتآمروا مع أعدائكم عليكم.. فلا تلقوا إليهم السَّلَم.. ومن يتولهم.. فلا يلومن إلا نفسه. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

سورة المطففين والانشقاق والبروج

فى إطار الحملة الرامية إلى تطهير المجتمع من علله المهلكة.. تشن سورة المطففين هجوما عنيفا على خُلق الأنانية الوبيل.. المستكن فى قلوب أناس إذا كانوا شُراة يستوفون حقوقهم وعليها مزيد لا يستحقونه.. وإذا كانوا بائعين ينقصون.

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ . الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ . وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

ويأخذ السائرون على دربهم نصيبهم من هذا الوعيد:

مَنْ طلب حقه من غيره.. ثم لا يعطيه حقه.. من رأى عيب غيره.. ولم ير عيب نفسه. من لم يرض لأحد مثل ما يرضى لنفسه.

﴿أَلا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ . لِيَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنه الإنكار لهذا المسلك المعيب ثم التعجيب من أناس يتبجحون إلى هذا الحد.. وكان المتوقع أن يكفوا أيديهم لو أصغوا إلى نداء الفطرة فى أنفسهم.. هذه الفطرة المانعة من هذا التردى.. ولو لم يكن هناك شرع يثبت البعث.. لهدتهم هذه الفطرة إلى الارتفاع فوق مستوى الأطماع. لكنهم لما لم يستمعوا إلى حقائق الشريعة.. ولا إلى نداء الطبيعة. صاروا بهذا الجحود فجارا: كتابهم مسطور جامع لأعمالهم.. شاهد بسوء عقابهم.. كفاء ما ارتكبوا من جرائم.

وهى: التكذيب بيوم الدين.. ثم تجاوز الحدود.. إلى مدى غير معهود.. إلى جانب الاستغراق فى الشهوات.. ورمى القرآن بما لا يخطر على بال.. ثم الاستمرار على ذلك حتى صار العدوان طبيعية ثانية لهم.. غطت على القلب الذى مات تحت ركام الخطايا.. فلم يعد صالحا لرؤية الحق.. وبالتالى لم يكن صالحا للتكريم والتمتع بمعية الله تعالى.

ونترك الفجار: هؤلاء المتلاعبين بأقوات العباد.. نتركهم فى تسفلهم.. وضيقهم.. وألسنة اللهب تشريهم.. لنسعد مع الأبرار فى علوهم.. وسعتهم..

بين مطارف النعيم المقيم.

نستدبر الذين فجروا إلى حد تَمكُّنِ الأنانية من قلوبهم فجفت فيها ينابيع الخير.. لنستقبل الأبرار الذين اتسعت أفئدتهم لِبَنِى وطنهم وإخوانهم فى الدين.. فعاملوهم بالعدل.. بل وبالإحسان.

﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ كتابهم فى مكانه العالى يشهد المقربون بكرامته.. بينما هم يتقلبون فى بحبوحة النعيم:

﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ . تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ . يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ . خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾.

إن الذين رفضوا الأثرة.. واختاروا الإيثار.. الذين أمهلوا المدين.. وأكرموا السائل.. وجبروا خاطر الضعيف.. الذين حولوا الدنيا من حولهم إلى بستان مورق مثمر ظليل..

وهؤلاء: يلقون اليوم جزاءهم من جنس ما عملوا.. بل فوق ما عملوا.

وما أبعد المسافة بين النهايتين.. من حيث بعدت المسافة بين الخلقين: أثرة الفجار.. وإيثار الأبرار.. الفجار الذين لم يكتفوا بالظلم فى الأسواق،.. فارتكبوا ظلما أكبر حين سخروا بالمسلمين.. ضاحكين.. متغامزين.. راضين عما فعلوا بلا ضمير آسف يعاتب.

وأين الضمير فى كيان أضل الناس: يرمون الأبرار الأطهار بدائهم فى قولهم:

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ﴾ مع أنهم غير مسئولين عن المؤمنين.. ولا حافظين عليهم.. واليوم يواجهون بما لم يكن لهم فى حساب:

إن المؤمنين يضحكون منهم اليوم.. فى سخرية.. باقية.. متجددة جزاء بما كانوا يفعلون. والذين فعلوا الخطيئة وهم يضحكون يدخلون النار اليوم وهم يبكون.

وتكشف سورة الانشقاق الستار عن أهوال القيامة التى من شأنها هزُّ الضمير الغافل ـ ضمير الفجار ومن لف لفهم ـ وتلمح آثار رحمة الله تعالى التى تُذكرُ

بهول ذلك اليوم.. ليعود الشاردون إلى سيدهم:

تَذكّر باليوم الذى: تنشق السماء.. فيطلع منها الغمام.. طاعة لربها.. وتُمَدّ الأرض وتبسط بعد إزالة جبالها.. ملقية بما فى جوفها من معادن وأموات.. متخلية عنه.. مستسلمة طائعة لربها.. وهى جديرة بذلك.

وإذا أذعن الجماد.. فأحرى بالإنسان أن يدرك مغزى عمره المشحون بالكفاح استعدادا للقاء ربه فى يوم:

يؤتى فيه الطائعون كتبهم بإيمانهم.. تكريما.. بينما يمر الحساب سهلا متجاوزا ميسورا بعود الطائع بعده إلى أهله مسرورا سرور أبديا.

فى نفس الوقت يؤتى العاصى كتابه بشماله.. إهانة تميت فى قلبه كل أمل فى الحياة.. إلى حد يكون الموت أحب أمانية.. ويا له من عذاب.. أن تستعجل الموت:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

لقد آثر المتعة العابرة التى راحت كأنها الضيف أو سحابة الصيف.. وظن بالله ظن السوء.. وأنه لا بعث ولا حساب.. ولكن الله تعالى كان محيطا به.. يمهله إلى حلول عذاب سينتقل فيه من شديد إلى آخر اشد.. وهو عذاب يُقسم الحق على مجيئه: بحمرة الشفق عند الغروب.. والليل وما ستر من خلائق.. والقمر إذا صار بدرا كاملا..

فما لهؤلاء النذر لا تلوى أعناق هؤلاء إلى الحق؟ ولا تحملهم على سماع القرآن وتعظيمه؟ ليس هناك مسوغ كاف لهذا الإعراض.. ولكنها الأمراض النفسية وفى مقدمتها التكذيب.. إلا أنهم مشمولون بعلم الله تعالى.. وإن عذابهم آت لا ريب فيه.. فبشرهم ـ استهزاء ـ بعذاب أليم لا ينتهى.. بشر المؤمنين ـ تكريما ـ بنعيم غير مقطوع ولا ممنوع.

وإذا أقسم الله بالليل.. والقمر.. فهو فى سورة البروج يقسم بمنازل النجوم وبيوم القيامة.. وبكل شاهد ومشهود على أن كفار مكة ملعونون كإخوة لهم من

أصحاب الأخدود.. الذى حفره الطغاة.. وأشعلوه نارا. ثم ألقوا بالمؤمنين فيه.. وهم على مشارفه يتلذذون! وما كان ذنب المؤمنين إلا أنهم آمنوا.. ويرحم الله القائل:

إذا محاسنى اللاتى أدل بها   كانت عيوبى فقل لى كيف أعتذر؟!

ويعلنه السياق نذيرا مدمدما لمن استمر فى حرب الإبادة.. إبادة المؤمنين.. وهم الأجدر بالحياة.. ومع ذلك فإن تابوا.. وسعتهم رحمة الله وكانوا مع المؤمنين فى روضات الجنات..

ألا فليحذر المعتدون بطش الحق تعالى.. القادر على رجعهم إليه سبحانه.. ولكنه مع ذلك: غفور.. ودود.. عظيم متعال.. يفعل ما يشاء ويختار.

وقد فعل بفرعون وجنود ما علمته.. جزاء احترافهم التكذيب الذى صار ظرفا لهم.. يحتويهم.. فلا يستنشقون إلا التكذيب.. ولا يجيدون إلا هو.. ولا يُعرفون إلا به.. ألا فليعلموا أن الله من ورائهم محيط بهم.. وأن ما يتقولونه على القرآن لا ينفى حقيقة أنه الكتاب الخالد رغم أنوفهم: **﴿بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ﴾**.

وإذا أرادت الأمة أن تحتفظ بشبابها.. وقوتها.. فلتحافظ على كتاب الله تعالى ليكون لها دستور عمل ومنهاج حياة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة